

# دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر  
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية



عدد خاص

## المدرسة الأشعرية

427

السنة الثانية والستون - رجب 1440 هـ / مارس 2019 م





# دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر  
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة الثانية والستون - العدد 427 رجب 1440 هـ / مارس 2019 م



الملك محمد الخامس  
في عهد محمد الخامس  
الملك محمد الخامس  
الملك محمد الخامس

أسسها  
جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه  
سنة 1376 هـ / 1957 م

”... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة  
تُعنى بصفة خاصة بناحية الإصلاح الديني، كما تعالج مختلف  
الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وحيه الأمل في أن يلتفت  
حولها دعاة الفكر والثقافة والإصلاح في هذه البلاد وغيرها  
لتؤذي مهمتها خير أداء.  
وعسى أن تسلك مجلة “دعوة الحق” سبل النجاح والتوفيق.“

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه  
إلى “مجلة دعوة الحق” بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لاتعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني: www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني: daawatalhak@mhaj.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 59 05 - هاتف مدير المجلة: 05 37 66 06 74

فاكس: 05 37 76 17 21

التوزيع : هاتف وفاكس: 05 37 76 32 10

الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط:

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة: الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 دھ

الخارج : 300 درهم

ثمن العدد : 15 دھ

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

الرقم الدولي : 1981PE0003

الإخراج الفني والطباعة: مطبعة الكرامة - الرباط

مدير المجلة:

الأستاذ أحمد قسطاس



رئيس التحرير:

الأستاذ عبد الحميد العلمي







أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله







صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد





## افتتاحية

من المعلوم أن المباحث العقدية من المسائل التي أثارت اهتمام الباحثين، ونهضت بموجبها همم الدارسين وتعلق كل من خاض فيها بالدعوة إلى ما عليه أهل السنة والجماعة.

والمقصود بهم المتمسكون بالكتاب والسنة، وما أخرج عليه سلف هذه الأمة الذين أجمعوا على سنية العقيدة الأشعرية. وإجمالهم هذا شامل لمخالف المذاهب الفقهية، جامع لأعلام السالمة الصوفية. منجى لمن شذ من بعض الفرق الكلامية. سندهم في ذلك ما عبر عنه أبو الحسن الأشعري بقوله: "قولنا الذي نقول به، وحياتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتمدون".

وهذا الذي قرره الإمام أبو الحسن مكرراً في المذاهب السنية، عبر عنه تاج الدين السبكي بقوله: "وهؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة - والحمد لله - في العقائد يد واحدة، كلهم على رأي أهل السنة والجماعة، يدينون الله تعالى بصريح شيخ السنة والجماعة أبي الحسن الأشعري رحمه الله تعالى".

وقد كتب الله للمغاربة التمسك باختيارات مذهبية قائمة على الأخذ بالكتاب والسنة، يستفاد ذلك من الغصاب الذي وجهه المولى إدريس الأول (177هـ) إلى المغاربة، ومما ورد فيه: "أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإلى العدل في الرعية والقسم بالسوية، ورفع المظالم والأخذ بيد المظلوم، وإحياء السنة وإماتة البدعة، وإنقاذ الكتاب على القريب والبعيد".



وهذا دليل على تعلق المغاربة بالمنهج السني في الجانب العقدي وهو ما عيّر عنه الناصري بقوله: " أما حالهم في الأصول والاعتقادات: فبعد أن هجرهم الله من نزعة الخارجية أولاً، والرافضية ثانياً، أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة". كما استقر حالهم في الفقه على المذهب المالكي فقد أثر عن المولى الرئيس الثاني مدعوه إلى أحقية الأخذ به بأمره باتباعه مع تفصيل كتاب الموصلاً وحفظه له.

فهذان أصلاً يمثلان ثوابت المغاربة في الفقه والاعتقادات، نصر على ذلك عبد الله كنون في نبوغه بقوله: " فإن مذهب مالكا لم يتوه<sup>2</sup> أمره في هذا المص كما مذهب فقهاء، ولكن كعقيدة أيضاً".

لذا يسعد بمجلة "مدعوه الحق" أن تنصير ملف هذا العدد للمدرسة الأشعرية بمشاركة ثلة من العلماء العاملين والأساتذة الباحثين، والحمد لله رب العالمين.

رئيس التحرير

## مقالات العدد





## كيف يتسلل التعصب إلى عقائد الناس

ذ.عبد الحميد عشاق

مؤسسة دار الحديث الحسنية، الرباط

ما التعصب؟ وكيف يتسلل التعصب إلى عقائد الناس وقناعاتهم الفكرية؟ هل يمكن أن يجتمع التعصب مع التفكير العقلاني؟ كيف يجعلنا الإيمان بمعتقد ما نخرط بلا قيد أو شرط في منظومة من الأفكار والمواقف والأفعال يمكن أن تُفضي بنا إلى التضحية بحياتنا وأرواحنا؟ لماذا تتسع ظواهر التعصب ومساحات التفكير غير العقلاني في ظل انتشار المعرفة وتطور العلوم والصنائع؟

من جهة أخرى؛ ماذا يعني "التعصب" في مجال الدين، وتأويل نصوصه وتفسيرها، والعمل بها؟ هل ثمة منطق إدراكي يختص بخطاب التعصب في مجال الدين؛ رؤية وفهماً وتطبيقاً؟ كيف يتسلل الغلط والوهم إلى مدارك الفكر "المتطرف" وتصوّراته وطرائقه الاستدلالية؟

ولماذا يعمد خطاب "التطرف" إلى تحريف الكلم عن مواضعه، وقراءة نصوص الدين قراءةً متحيزةً، وانتزاعها من سياقاتها، والنزوع بها إلى الاستدلالات الجزئية، ومصادمة قواطع الشريعة الكلية، والخروج على الإجماع، والتفلّت من القواعد المعتمدة في التفسير والاستدلال.

إنّ الباحث ليحار في تفسير أسباب انتشار هذا الفكر على علّاته وآفاته الظاهرة والباطنة، وإزاء ذلك تطالعنا مقاربات ومناهج شتى في دراسة الموضوع وتحليله:

فثمة من يُرجع الظاهرة إلى فتنة تأويل نصوص الدين لأغراض متباينة؛ وهي فتنة قديمة جديدة في تاريخنا الثقافي، ومنهم من يرجعها إلى مركب من العوامل النفسية والاجتماعية والاقتصادية المتعاقبة، ومنهم من يرجعها إلى أسباب جيو- سياسية وثقافية ترتبط بطبيعة "العولمة" المهيمنة العابرة للقارات.

وبعض الباحثين لا يتردد في ردّ الظاهرة إلى ضرب من الجنون، أو الحرمان الاجتماعي، أو الحرمان العاطفي، أو الفقر، والهشاشة، والبطالة، وانسداد الأفق الاقتصادي...

ولئن أسفرت هذه المقاربات عن وجهات نظر وتعليلات متباينة، فالواقع أن ميزة المجتمع الإنساني أنه يظلّ مجتمع اعتقاد، بغضّ النظر عن مستوى تطور معارفه وصنائعه وخبراته، وأن الإنسان مهما بلغ من المدنية والخبرة والعلم، يبقى ضعيفاً في القوة على معرفة الأشياء كما هي في كينونتها ووجودها الخارجي. ولا سبيل لوعي العالم وإدراكه كما يقول - جيرالد برونر - إلاّ بطريقتين: "المعرفة أو الاعتقاد".



والواقع، أن التعصب هو البديل عن خيار المعرفة، إنه لا يعدو أن يكون نتيجة اعتقاد جازم في فكرة أو مذهب أو طريقة... إنه حالة عقلية ونفسية تتسم بالتحيز لفكرة أو طائفة أو مذهب، وانحراف عن ميزان "الفطرة العقلية" لعدد من المعايير السلوكية المعتبرة، إنه ضرب من الفكر الحادّ LA PENSEE EXTREME الذي يجمد صاحبه على معتقده ورأيه، ويتنكر لحق غيره في النظر والاختلاف.

وعلى هذا، عرّف بعضهم التعصب بأنه "الوعي الذي يصل في حدّيته إلى الطرف الذي لا يرى فيه سوى ما جمد عليه، لا يجاوزه إلى غيره، ولا يقبل فيه مناقشة، وذلك على نحو يفضي إلى إلغاء وجود الآخر، بواسطة فعل من أفعال العنف، الذي يستأصل حضور المخالف معنويا وماديا"<sup>1</sup>.

ويتداخل مفهوم التعصب مع عدد من المصطلحات المصاحبة كالذوغمائية، والتطرف، والتمييز، والإرهاب، والتحيز. وثمة علاقة وثيقة بين هذه المفاهيم بجامع الجمود العقائدي، والانغلاق العقلي، وتجاوز حدّ الاعتدال.

وحدّ الاعتدال نسبيّ، يختلف من مجتمع إلى آخر وفقا للنسق المعياري والقيمي المقبول لدى كل مجتمع؛ فما يعدّه مجتمع من المجتمعات سلوكا متطرفا يجوز أن يكون مألوفاً لدى مجتمع آخر؛ فالاعتدال والتطرف من الكليّ المشكك الذي يتعلّق بالأعراف الاجتماعية والثقافية والسياسية المتغيرة التي يحتكم إليها المجتمع.

على أنّ حدّ الاعتدال والتطرف يتفاوت أيضا من زمن إلى آخر؛ فما كان يُعدّ تطرفا في الماضي ربما لا يكون كذلك في الوقت الحاضر، ومع ذلك حاول بعض الباحثين اقتراح تعريف لمفهوم التطرف، ولكن لم تسعفه عبارة سديدة على حدّه وضبطه؛ نحو: "التطرف اتخاذ الفرد موقفا متشدّدا يتسم بالقطيعة في استجاباته للمواقف الاجتماعية التي تهمة، والموجودة في بيئته التي يعيش فيها هنا والآن، وقد يكون التطرف إيجابيا في القبول التام، أو سلبيا في اتجاه الرفض التام، ويقع حد الاعتدال في منتصف المسافة بينهما"<sup>(2)</sup>.

وبعضهم عرّفه بأنه "تحول من مجرد فكر إلى سلوك ظاهري أو عمل سياسي، يلجأ عادة إلى استخدام العنف وسيلة إلى تحقيق المبادئ التي يؤمن بها الفكر المتطرف، أو اللجوء إلى الإرهاب النفسي أو المادي أو الفكري ضد كل ما يقف عقبة في طريق تحقيق تلك المبادئ والأفكار"<sup>(3)</sup>.

ومهما يكن من أمر، فالتطرف والتعصب هو نظام مغلق في التفكير يتميز بعدم الاستعداد لقبول أي معتقدات أو آراء مخالفة، وقد يتحوّل من مجرد فكرة إلى فعل من أفعال العنف لإلغاء الرأي المخالف، واستئصال وجوده معنويا وماديا. ولذلك يتسم بنظرة مخصصة إلى المعتقد تقوم على ما يلي:

- 1 - جابر عصفور، ضد التعصب، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2000م، ص 29-31
- 2 - انظر: طه أحمد المستكاوي، العلاقة بين التطرف والاعتدال في الاتجاهات الدينية وبعض سمات الشخصية، ص 35 رسالة ماجستر، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، 1982م.
- 3 - بيومي، محمد أحمد، ظاهرة التطرف: الأسباب والعلاج، ص 5، دار المعرفة، الإسكندرية، 1992م.

1- إن المعتقد صادق صدقا مطلقا أو أديا.

2- لا مجال لمناقشته ولا للبحث عن أدلة تؤيده أو تنفيه.

3- إدانة كل من يخالفه.

4- الاستعداد لمواجهة المخالف بالشدة والعنف.

5- فرض المعتقد على الغير بالإكراه والتسلط.

وكون التعصب خروجاً على ميزان الاعتدال والمعهود الوسط؛ معنى مقرر في كثير من كتب الأصول والفروع، وهو الذي يُعبّر عنه الإمام أبو إسحاق الشاطبي في نصّ نفيس من كتابه الموافقات بقوله: "إن المفتي البالغ ذروة الدرجة هو الذي يحمل الناس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال"<sup>(1)</sup>.

ثم يحشد دلائل كثيرة من النقل والعقل على أن مبدأ الاعتدال والتوسط مطلوب شرعاً، فقال: "والدليل على صحة هذا أنه الصراط المستقيم الذي جاءت به الشريعة؛ فإنه قد مرّ من أن مقصد الشارع من المكلف الحمل على التوسط من غير إفراط ولا تفريط.

وأيضاً؛ فإن هذا المذهب كان المفهوم من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الأكرمين، وقد ردّ صلى الله عليه وسلم التبتل، وقال لمعاذ لما أطال بالناس في الصلاة: «أفتان أنت يا معاذ»<sup>(2)</sup>، وقال: «إنّ منكم منفرين»<sup>(3)</sup>.

وأيضاً؛ فإنّ الخروج إلى الأطراف خروجٌ عن العدل، ولا تقوم به مصلحة الخلق، أما في طرف التشديد فإنه مهلكة، وأما في طرف الانحلال فكذلك"<sup>(4)</sup>.

فإذن؛ لزوم الاعتدال، ومنع الخروج إلى الأطراف، والحمل على التوسط من غير إفراط ولا تفريط، هو الصراط المستقيم الذي هو عنوان الإسلام، وأصل الدين، ومهيّج الشرع؛ إنه ميزان الاعتدال الذي يعني -منطلقاً ومنهجاً- الموازنة بين المبدأ والواقع، أو بين الواجب والضرورة، أو بين العزيمة والرخصة، كما يعني -تربوياً- تكوين جيل متجذّر في أصوله، متصالحٍ مع زمانه، يتعامل مع الغير على أساس احترام الاختلاف، وثقافة العيش المشترك.

1- الموافقات ، 276/5، تح: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط 1، 1997.

2- طرف من حديث جابر، أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب صلاة الجماعة والإمامة. باب من شك إمامه إذا طوّل، حديث رقم 705.

3- طرف من حديث أبي مسعود الأنصاري، أخرجه البخاري في الصحيح: كتاب صلاة الجماعة والإمامة. باب تخفيف الإمام في القيام وإتمام الركوع والسجود، حديث رقم 702.

4- الموافقات، 277/5.

وأودّ -بعد هذه المقدمة- أن أركّز على نقطتين:

أولاهما: بيان كيف يتسلل التعصب إلى عقائد الناس ومذاهبهم، أو كيف يُجهز التعصب على جوهر الدين؛ وهو الأخذ بقيم السّماحة واليسر وعدم الخروج إلى الأطراف؛  
والثانية: ذكر الأسس الكبرى التي تقوم عليها منظومة الاعتدال التي هي ضدّ التعصب والتطرف الفكري. وإن تحليل هاتين النقطتين وتوضيحهما هو ثمرة هذا البحث ومرامه.

## 1- مداخل التعصب ومساويه:

المسألة هنا عن كيف يتسلل التعصب الأعمى إلى عقائد الناس ومذاهبهم؟

وبديهي في الجواب أن ذلك يرجع إلى جملة من "الأسباب المركبة" المتعاقبة، لست أريد استقصاء أصولها وتتبع فروعها في هذا المقام، لأن ذلك يطول. ولكن سأحاول التنبيه على مداخل التعصب، ومعاقد جذوره، مسترشدا برأي من نعدهم وضعوا أياديهم على مكانن الداء.

من أولئك حكيم الإسلام أبو الحسن العامري (ت 381 هـ)<sup>(1)</sup>. فقد افتتح كتابه القيم "الإعلام بمناقب الإسلام" مذكرا بفائدة العقل في معرفة الحق؛ حيث يقول: "إذا كان العقل المختص بالجواهر الإنسي هو أن يعرف الحق ويعمل بما يوافق الحق، فمن الواجب أن يكون أكمل الناس أغزرهم عرفانا للحق، وأقدرهم على العمل بما يوافق الحق"<sup>(2)</sup>.

ولعمري؛ إن هذا الربط البديع بين العقل والحق لمن أنفس ما هُدي إليه الحكماء في الباب؛ فالكمال البشري لا يتحقّق ببلوغ المنتهى في الملكة العقلية من غير طلب الحق، والرياضة على العمل بما يوافقه. وعليه، فإن من يعمل خلاف الحق ويعاديه، "مغلوب على عقله" مهما تظاهر بزّي العلم والحكمة.

وإذا كانت غاية العقل الإهداء إلى معرفة الحق، وكانت سنة التفاوت بين الخلق شاملة لجوهر العقل، أنتج ذلك تفاوت العقلاء في إدراك الحق لا محالة؛ لذلك لم يقبل العامري إدانة علماء الكلام<sup>(3)</sup> ولا الفقهاء<sup>(4)</sup> فيما أخطأوا فيه؛ لمكان الغرض الذي قصدوه، وللفضائل الجلىّ المعدودة لعلمي الفقه والكلام على الملّة، رافضا مقابلة جهودهم العظيمة بالجحود والطعن.

ومن هنا يظهر إنصاف الرجل وسمو نفسه؛ فهو يقر بوقوع الخطأ من الفقهاء وعلماء الكلام، وتلك ثلثة لا يسلم منها بشر. ولكنه بالمقابل يأبى إدانتهم وتقريعهم؛ لسبق فضلهم على الأمة، ولتُبيل غايتهم.

1- انظر ترجمته في مقدمة كتابه المذكور بتحقيق أحمد عبد الحميد غراب.

2- الإعلام بمناقب الإسلام، ص 73. تح: أحمد عبد الحميد غراب، مؤسسة دارالأصالة، ط 1، الرياض: 1988م.

3- الإعلام بمناقب الإسلام، ص 112.

4- الإعلام بمناقب الإسلام، ص 117.



وبنفس روح العدل والإنصاف مع علماء الملة ومذاهبها، نظر العامري إلى غير المسلمين، فجعل الأديان جميعاً لها اعتقادات وعبادات ومعاملات ومزاج<sup>(1)</sup>، موازناً بين هذه العناصر الأربعة في الأديان الغالبة على أهل زمانه بعمق نظر، ورحابة صدر قلّ نظيرها في زماننا.

وهنا يقرّر العامري إلى أن الجدل المذموم هو السبب في اتخاذ المواقف العدائية بين الفئات المختلفة، والعداء يولّد العصبية، بمعنى أن كل فئة تتعصب لما لديها وتدافع عنه؛ قال: "والاختلاف داعية إلى المماراة، والمماراة فاتحة للتعادي، والتعادي سلّم إلى العصبية"<sup>(2)</sup>.

والغرض من تنبيه العامري على ما يسبق العصبية، الدعوة إلى البدار إلى السيطرة على الداء في أصله ومنشئه؛ لأنه متى ما بلغ الداء الغاية، فإن التعافي منه يعسر. ولذلك صرح بأن "العصبية هي الداء العضال التي تستخفّ الأحلام الراجحة، وتستأصل النعم المتأثلة"<sup>(3)</sup>. فالتعصب يُعِمُّ العقل ويطفئ نورَه، وحيث يوجد التعصب يغيب منطق الرشد والحكمة.

ويُفهم من هذا الاستدلال أنّ تعطيل وظيفة العقل الأساس، وإغفال اعتبار سنة التفاوت في مراتب الإدراك، والركون إلى التقليد، والثقة بتأويلات الزعماء من غير تثبت ولا تمييز، ذريعة إلى التورط في آفة التعصب. ولذلك يقول: "فساد الدين في ثلاثة: زلة العلماء، وميل الحكماء، وتأويل الرؤساء، ومن لم يكن معه عقل مرصوص لم ينتفع بالحديث المقصوص"<sup>(4)</sup>.

فهذا تحصيل منه، أن فساد الدين في حقيقته يرجع إلى آفة الانتحال، ومجاوزة حد الاعتدال؛ فزلة العالم انحراف عن جادة الشرع والصواب، وكذلك الميل والتأويل البعيد غير المنضبط، وتعطيل آلة النظر والفهم. والعلماء الأساة الراسخون هم من يضطلعون بردّ الأمور إلى نصابها؛ "ينفون عن الدين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين"<sup>(5)</sup>.

وإذا رأوا من أحد ميلاً نحو التعصب ردوا عليه تعصبه، ونهوا عليه غير مبالين بمنزلته، فالحق عندهم أولى من الرجال. ويحضرني في هذا المقام مثالٌ لذلك من تراثنا؛ وهو أن المحدثين كانوا يتعاملون بحذر شديد مع أقوال بعض أئمة الجرح والتعديل لما علموا تعصبهم وتحاملهم على بعض الرواة أو البلدان؛ فقد كان الإمام الجوزجاني أبو إسحاق شديداً على أهل العراق عصبيةً، حتى قال الحافظ: "وممن ينبغي أن يُتوقف في قبول قوله في الجرح من كان بينه وبين من جرحه عداوة سببها الاختلاف في الاعتقاد، فإن

1- الإعلام بمنابغ الإسلام، ص 121.

2- المصدر السابق، ص 192.

3- نفسه.

4- المصدر السابق، ص 185.

5- أخرجه ابن عبد البر في التمهيد: 1/59، عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري مرسلًا، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، 1387 هـ.

الحاذق إذا تأمل ثلب أبي إسحاق الجوزجاني لأهل الكوفة رأى العجب، وذلك لشدة انحرافه في النصب وشهرة أهلها بالتشيع، فتراه لا يتوقف في جرح من ذكره منهم بلسان ذلقة، وعبارة طلقة، حتى إنه أخذ يلين مثل الأعمش، وأبي نعيم، وعبيد الله بن موسى، وأساطين الحديث وأركان الرواية؛ فهذا إذا عارضه مثله أو أكبر منه فوثق رجلاً ضعفه قيل التوثيق<sup>(1)</sup>.

وقال الذهبي في الميزان: "كلام الأقران بعضهم في بعض لا يُعبأ به، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، ما ينجو منه إلا من عصم الله، وما علمت أن عصراً من الأعصار سلم أهله من ذلك، سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئت لسردت من ذلك كرايس، اللهم فلا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم"<sup>(2)</sup>.

ويقول الزيلعي: "ومجرد الكلام في الرجل لا يسقط حديثه، ولو اعتبرنا ذلك لذهب معظم السنة، إذ لم يسلم من كلام الناس إلا من عصمه الله، بل خرجا في الصحيح لخلق ممن تُكلم فيهم، ومنهم جعفر بن سليمان الضبعي، والحارث بن عبيد الإيادي، وأيمن بن نابل الحبشي، وخالد بن مخلد القطواني، وسويد بن سعيد الحدثاني، ويونس بن أبي إسحاق السبيعي، وغيرهم، ولكن صاحباً الصحيح، إذا أخرجاً لمن تُكلم فيه، فإنهم ينتقون من حديثه ما توبع عليه، وظهرت شواهد، وعلم أن له أصلاً، ولا يروون ما تفرد به، سيما إذا خالفه الثقات"<sup>(3)</sup>.

ثم رجع بنا القول إلى أبي الحسن العامري: لقد وضع هذا الحكيم يديه على مداخل التعصب، منطلقاً من مُسلمة أن الإسلام لما كان ناسخاً للأديان كلها، وكان ملكه قادحاً في الرياسات بأسرها؛ فغير بعيد أن يكثر عدوّه، وتزدحم الأراجيف والتخاليط عليه، وتتفنن اتجاهات الاختلاف والشقاق في مختلف مراحل تاريخه. وهنا يذكر العامري أربعة أسباب تولّد فتنة الاختلاف والتفرّق في الدين، فيقول: "إنّ عامتها تفتنّ إلى جهات أربع:

أحداها: أن يعجب المتدين بعقله، ويغترّ بذكائه، فيركّب نوعاً من المقاييس الفاسدة قبل إحكام المعرفة بمقدماته، فينتج نتيجة كاذبة، وهو يخالها صادقة، فيعتقدها ديناً، ويدعو الناس إليها جهلاً، فتعمّ البلوى به، وتغوي بمكانة الخليفة"<sup>(4)</sup>.

1- لسان الميزان، الحافظ ابن حجر: 16/1.

2- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، الإمام شمس الدين الذهبي: 111/1. تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، الطبعة: الأولى، 1963 م.

3- نصب الراية لأحاديث الهداية، جمال الدين أبو محمد الزيلعي: 341/1. تحقيق: محمد يوسف البنوري، طبعة المجلس العلمي بالهند، 1357 هـ.

4- الإعلام بمناقب الإسلام، ص 193.

ذ. عبد الحميد عشاق

لقد أشاد العامري في مقدمة الكتاب - كما أسلفنا- بشأن العقل وبين فضله، وألمع بعدد إلى أن الذكاء ورجاحة العقل مما يُحسد عليه؛ وذلك قوله: "والقُنية العقلية متى كانت نفيسة كثر الحساد عليها، وانبعثوا لإيقاع التلبيس فيها"<sup>(1)</sup>. ولكن منهج العامري المعتدل جعله ينتقد الإفراط في تمجيد العقل والاحتفاء به، حتى يصير المرء مغرورا بذكائه مُعجبا برأيه، داعيا إليه. وهذا ما ذمه الشرع وكرهه في غير ما موطن؛ منها ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اتَّمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْتَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ"<sup>(2)</sup>.

والثانية: "أن يولع الإنسان من نفسه بالإغراب والتعمق، ويستهتر... باستثارة معنى بديع لم تنتجه له خواطر الناس، وقلما يبالي تنكب الجادة، شغفا بأن يسلك طريقة يصير فيها قدوة، أو يثير نادرة يُحكّم له بإصابتها على بُعد الغور، ولطف الروية، فيوطّد به لنفسه الذكر والسمعة".

لم يكن العامري بدعا من العلماء إذ لفت الانتباه إلى هذا المعنى؛ فقد دأبوا على كراهية الإغراب والشذوذ والتعمق المتكلف، سواء في الفقه أو اللغة أو الرواية أو غيرها؛ لأن ذلك كله ينافي الانضباط والاستقرار الذي ينشده الدين ويرسخه العلماء.

فكيف إذا أضيف لهذا الطين بلّة ابتغاء الشهرة والذكر والسمعة!!؟

إن طلب العمق في الفكر، وتحقيق الفهم والاستنباط، والتنقيب عن دقيق المعاني والملاحظ ليس معيبا في ذاته؛ وإنما العيب والسوء في تجاوز حد الاعتدال إلى حد الإغراب والتكلف؛ وهذا مراد العامري وغيره.

والثالثة: "أن يكون قصد الإنسان عناد جميع ما يسمع من الأقوال الصادقة، والمذاهب الحقيقية، وأن يتبع أبدا الآراء المستزلة التي تنخدع بها طبقات العامة، إذ ليس عند الدّهماء أروج من المذهب المستضعف، والرأي المدخول".

العناد: مخالفة الحق ورده مع العلم بأنه حق<sup>(3)</sup>، وهو في باب العلم: المنازعة في المسألة العلمية، مع عدم العلم من كلامه وكلام صاحبه<sup>(4)</sup>.

1- المصدر نفسه، ص 192.

2- أخرجه الترمذي في سننه، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، الحديث: (3058)، وأبو داود في سننه، أول كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، الحديث: (4341) وغيرهما، عن أبي ثعلبة الخشني مرفوعاً.

3- دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات العلوم والفنون، عبد النبي بن عبد الرسول أحمد نكري، 384/2، دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الهند، الطبعة الأولى.

4- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، ص. 185، دار الفضيلة، القاهرة.



ذ.عبد الحميد عشاق

وقد بين الإمام الغزالي في الإحياء أن الجدل لا يكون مذموماً إلا إن كان بالباطل أو بغير علم، كالذي يدافع قبل أن يعلم الحق في أي جانب، أو يحمله على الجدل والخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره. وهذا هو اللدُّ والخصومة واللجاج، وهو مذموم جداً. وأما الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لد وإسراف... ومن غير قصد عناد ففعله ليس بحرام<sup>(1)</sup>.

والعناد إنما دُم؛ لأنه خروج عن الاعتدال والوسط، فالعرب تقول: هو يمشي وسطاً لا عنداً؛ ومنه قول الشاعر:

إذا رحلتُ فاجعلوني وسطاً      إني كبير لا أطيق العُندا

والعند: الجانب، والعاند: المائل<sup>(2)</sup>.

ووجه اعتبار العناد الفكري خارجاً عن حد الاعتدال: أن المناظر-في الأصل- لا يجادل إلا عن علم وكمال تصور؛ فإذا لم يكن كذلك فلا يأتي إلا بالتخليط والتلبيس وغمط الحق.

**والرابعة:** "أن يعتمد تزيف الدين، وتوهين أساسه؛ إما لتعصب مُلكي أو لتعصب نسبي أو لسؤس الخلاعة، أو لإيثار طرق المجانة. فهو يجتهد في إلصاق المعاييب به بأخبار مزورة، وينسبها إلى أئمة أصحاب الحديث، أو إلى أحد رؤساء العامة، فيوهم الضعفة من أهله أنَّها أساسُ الملة؛ احتيالا منه للنكاية فيما أبغضه، وأحب الانتقام منه".

فهذه هي الطرق للآفات المتواترة على الأديان والملل، وليست هي المقصورة على دين الإسلام، بل هي مشتملة على جميعها<sup>(3)</sup>.

إنها مداخل التحريف والتعصب التي تعتور جميع الأديان، وقد يستفرد أحدها بالمعتل فيكون جالبا للشر على نفسه ومحيطه، كما يمكن أن يجتمع جميعها عليه فيكون ذريعة لجلب العطب الدائم، الذي سرعان ما يعم ويستفحل، وتتطور معه حيلُ التغير والتضليل.

لقد أبان العامري عن إنصاف أصيل مع المخالف في الدين والمعتقد؛ حيث عمم هذه المداخل على جميع الديانات والملل، ولم يستثن منها معتقده الخاص.

ثم يعرج العامري على بيان حيل المخلطين في ترويج ما يصطنعونه من الأفكار الفاسدة، وما يحاولونه من أوجه الضلال على أربابها، وأنها ترجع في الجملة إلى شعب ثلاث؛ قائلا:

1- إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، 119/3، دار المعرفة، بيروت، 2004م.

2- لسان العرب، مادة (عند).

3- الإعلام بمناقب الإسلام، 193-194.

ذ. عبد الحميد عشاق

"إحداها: أن يبذل له الإقرار أولاً بالأصل، ليستدرجه بذلك إلى مكان الاغتيال، ثم يأخذ معه في تموهيات يخيّله بها بهرجة ما استند إليه، فيستزله بمكانها عما استمسك بعراه من قواعد دينه...

ثانيتهما: أن يأخذ في شرح ما أحبّ ترويجه عليه بعبارات أنيقة، وألفاظ شبيهة؛ وإشباع في الوصف، وإقناع بجودة الرصف، والتلفيق للمعاني، والتجويد للأداء؛ صنع صاحب السلعة المغشوشة عند عرضه إياها على من لا بصّر له فيها، ليحسنها في عينه، ويحببها إلى نفسه.

ثالثتهما: أن يعزو المذهب الذي يدعو إليه إلى رجل جليل القدر، مثل صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام، وحكماء الفلاسفة، أو عقلاء أهل زمانه... فيسمع هذا المغفل المريض قوله إياه فيحسن به الظن، ويرضاه إماماً لنفسه"<sup>(1)</sup>.

لم يكن العامري في حديثه عن حيل المخلّطين مشخصاً لموطن العطب فحسب، بل غاص بنا في أغوار أحوال المخلّطين وخفيّ نياتهم، وذكر دقائق لا يفتن إليها إلا حكيم حاذق.

ولا يزال أهل التخليط والانتحال يحتالون بهذه الحيل التي ذكرها حتى في عصرنا هذا؛ فترى الملحد في الدين يتظاهر بتمسكه بالقرآن وتعظيمه له وهو يطعن في السنة، وإنما قصده هدم السُنّة أولاً، ليعود بعد ذلك لهدم القرآن والدين كله. وبعضهم سلك فجاً آخر، إذ طفق يسمي الأشياء بغير اسمها مستعملاً لطف الأسماء وأنق العبارات؛ كالذي يسمي الخمر شراب الحياة، والعلاقات غير الشرعية العلاقات الحميمة... والحال أنه يريد هدم الدين، وتوهين أساسه.

## 2- أسس منظومة الاعتدال:

بعد هذا، أودّ أن أبرز في هذه التتمة الأسس الكبرى التي تقوم عليها منظومة الاعتدال بطريقة إيجابية في تناول الموضوع ومعالجة مقدّماته، عملاً بالمقولة السائرة: "وَبِضْدِهَا تَتَمَيَّزُ الْأَشْيَاءُ".

وعليه، فأتصوّر أن ميزان الاعتدال ومنهجه الذي ينبذ التعصب ويجافيه، ويُنتج معاني السّماحة، واحترام الاختلاف، والتعاون على البرّ والتقوى، وفقه العيش المشترك، ينبني على الأسس الآتية:

## الأول: الاعتراف بحق الاختلاف

وهذا الأصل في الإسلام عقيدة شرعية، وحقيقة كونية؛ تتلخص في أن الله جلّ وعلا اقتضت مشيئته أن يخلق الناس مختلفين في أديانهم وعقولهم وألسنتهم وألوانهم وصورهم وأعراقهم، فمن يظن أنه يستطيع أن يحمل الناس على نمط واحد، ومذهب واحد، وموقف واحد؛ فإنه يخالف المشيئة والحكمة وطبيعة الأشياء.

1- الإعلام بمناقب الإسلام، 194-195.

## الثاني: نفي الإكراه.

تأسيساً على الأصل التشريعي القرآني والآية الفذة، وهي قوله جلّ وعلا: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾<sup>1</sup>. وهذه الآية من كليات القرآن وأصوله؛ وتعني أن الدين يتنافى مع الإكراه جملة وتفصيلاً؛ فلا يجوز باسم الدين؛ أو باسم نصرته الدين، حمل الناس بالقهر على حكم من أحكامه أو عزيمة من عزائمه حتى لو تعلق الأمر بالإيمان، ولا يجوز لأحد أن يدّعي حق السيطرة على إيمان أحد، أو ينازعه في طريق تفكيره ونظره.

وبالبدل عن منهج الإكراه هو المعرفة والحوار والمفاوضة على أساس الإقناع الفطري، ومقارعة الحجة بالحجة، والاستدلال المسند إلى الأدلة والشواهد، إذ شأنُ العالم ودأبه وديدنه إثارة أسلوب الإقناع على أسلوب الإكراه، ومشروع الإسلام العام هو الحفاظ على النظام الاجتماعي بواسطة الإقناع الفطري الذي يتجسد في اختيار الأفضل واتباع المصلحة، والإذعان لما تلقته العقول السليمة بالقبول.

إن سرّ حرية الدين والمعتقد وأساس القول بها في جميع الأديان والشرائع هو مبدأ الإيمان نفسه، ذلك أن الأصل في الإيمان وصحته هو وجود الحرية، فلا عبرة بإيمان المكره أو المجير كما قرره القرآن الكريم في آيات كثيرة: كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اتَّقُوا مَنْ رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمَرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾<sup>2</sup>، وقوله: ﴿أَفَأَنْتُمْ تُكْفِرُونَ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾<sup>3</sup>، وقوله ﴿أَلَمْ نَكُ مَوْحِدًا وَاتَّخَذْنَا لَنَا نُكْرًا رَهُونًا﴾<sup>4</sup>.

فالإكراه باسم الله أو باسم الدين يضادّ الإيمان بالله تعالى، وهو أكبر خيانة لكونية الإيمان الديني، لأن أساس الإيمان هو توفر مبدأ الاختيار الذي يكون معه المرء على بينة ومعرفة... ولذلك قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني: "أول واجب النظر معرفة الله تعالى"، يعني أول واجب النظر والاستدلال هو ما يتعلق بمعرفة أصول الإيمان... فالإكراه والإجبار والتعصب هو البديل عن خيار المعرفة وأساليب الإقناع العقلي التي يقوم عليها الإيمان الديني.

## الثالث: مراعاة المشترك الإنساني الفطري

هذا أساس آخر من أسس فسطاط الاعتدال ومذهبه، ومعناه أن في فطر الناس أموراً كثيرة تجمعهم وتوحد بينهم؛ فالناس بمختلف مللهم وأديانهم وأعراقهم وثقافتهم ينشدون العدل والحرية والأمن والسلام والرفاه والتضامن، ويكرهون الجور والظلم والقهر والدماء والحرب والعنف والإقصاء الاجتماعي والتمييز العنصري... فهذه كلها قيم إنسانية مشتركة ينبغي إبرازها والتذكير بها والانطلاق منها والعمل وفقها بين جميع أهل الأرض؛

1- سورة البقرة، الآية: 255.

2- سورة الكهف، الآية: 29.

3- سورة يونس، الآية: 99.

4- سورة هود، الآية: 28.



#### الرابع: إخلاص الولاء للحق

إذ ينبغي أن يكون إخلاص المرء للحق، وإيمانه به أشد وأعظم من إخلاصه وولائه لأبائه وقومه وعشيرته وسائر دوائر الانتماء التي يرتبط بها الإنسان عادة:

#### الخامس: نبذ الغلو

الغلو هو مجاوزة الحد، وخروج إلى الأطراف، كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾<sup>1</sup> وقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾<sup>2</sup>.

ومن لوازمه أن يعد المرء مناقبه أو مناقب جماعته أكبر مما هي في الواقع، بعبارة أخرى: ينبغي ألا يملكنا الزهو والغرور في النظر إلى أنفسنا، وتقييم خصالنا ومناقبنا أو مناقب المذهب الذي ننتمي إليه.

والغلو هو الذريعة إلى اصطناع القداسة التي ابتليت بها الملل السابقة. والإسلام بوصفه الدين الخاتم

ما فتى يحذر أمته وأتباعه من آفتين:

#### الأولى: التظاهر بالقداسة وتكلفها؛

#### والثانية: استغلال القداسة لأغراض شخصية ومكاسب مادية.

وفي القرآن آيات كثيرة للتنديد بهاتين الآفتين نحو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْغُلَبَاءِ وَالرَّهْبَانِ لَيَكُونُونَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْهَيْكَلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، إلى قوله تعالى ﴿فَقُولُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾<sup>3</sup> وقوله سبحانه: ﴿بَلْ مِنْ أَوْفَرِ عُيُودِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ. إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْصُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلُودُونَ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾<sup>4</sup>.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾<sup>5</sup>.

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هَؤُلَاءَ أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ مِنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾<sup>6</sup>.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَيْهِمْ شَيْءٌ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذِبًا قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾<sup>7</sup>.

1- سورة النساء، الآية: 170

2- سورة المائدة، الآية: 79

3- سورة التوبة، الآيتان: 34-35

4- سورة آل عمران، الآيات 75-77

5- سورة المائدة، الآية: 20

6- سورة البقرة، الآيتان: 110-111

7- سورة البقرة، الآية: 112

فهذه الأمانى والدعاوى والشعارات لا علاقة لها بالدين الحق، ولا تمت إليه بسبب أو نسب، ولكن أصحابها يصرون على إلحاقها به، وإسنادها إليه بهتاناً وزوراً، وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن جندب: "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدث أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، وأن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان: فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك<sup>1</sup>

ووردت في السياق نفسه وصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه لسعد بن وهيب خال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أمره على جيش العراق فقال: "يا سعد بن وهيب، لا يغرنك من الله أن قيل: خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه؛ فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، وإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا بطاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء؛ الله ربههم، وهم عباده، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عند الله بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه؛ فإنه الأمر، هذه عظتي إياك، إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين<sup>2</sup>

وكتب أبو الدرداء إلى أخيه سلمان الفارسي رضي الله عنهما: أن هلم إلى الأرض المقدسة، فكتب إليه سلمان "إن الأرض لا تقدس أحداً، ولكن يقدس الإنسان عمله<sup>3</sup> والحديث في موطأ الإمام مالك.

## السادس: ترك العصبية

والعصبية من التعصب وهو -كما تقدم- رفض الرأي المخالف وإلغاؤه. ولعل من أخطر صوره وأظهر دلائله: إقصاء المخالف وتصفيه وجوده، وأصله في الكتاب حيث قال الباري جل شأنه:

﴿لَمَّا بَسَحْنَا إِلَى يَكْرَبِكُمْ لِنَقْتُلَنِي مَا أَلَّا بِبَاسِهِ يَكْرَبُ إِلَيْنَا لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّكَ إِذَا أَخَافَ اللَّهُ رَجَّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>4</sup>. بمعنى أن يتحول اختلاف الرأي وتباين طريق النظر إلى استعداد نفسي وعقلي لوضع حد لوجود الآخر.

• ومن لازم العصبية: تشديد الخناق على حرية الرأي والتفكير والإبداع والاجتهاد وما إلى ذلك من حرية الاعتقاد والدين؛ ومعاداة التنوع الثقافي والفكري.

• ومن لازمها كذلك: الجنوح إلى الأحكام القاطعة، وذلك بأن نجزم في المسائل الخلافية والاجتهادية بطريقة لا تتناسب مع الأدلة العلمية والمقدمات البرهانية، أو نعادي فرداً أو مشروعاً أو فكرة دون أن نتوفر على أدلة محكمة أو تصور واضح دقيق.

ولا شك أن كل حكم صدره بشأن قضية أو شخص أو مشروع دون معرفة ضافية أو أدلة قوية لتزكية ذلك الشخص أو مؤازرته فهو منافٍ لمسؤوليتنا الفكرية وضميرنا العلمي.

1- تقدم تخريجه.

2- تاريخ الطبري (483/3)، دار التراث، بيروت، ط 2، 1387هـ.

3- موطأ مالك: رقم 2232.

4- سورة المائدة، الآية: 30.

## علاقة المذهب المالكي بالمعتقد الأشعري

ذ. عبد القادر بيطار

كلية الآداب والعلوم الإنسانية/وجدة

من خصائص المذهب المالكي في مجال الاشتغال العقدي الإسلامي، أنه مذهب يهتم بالعمل أكثر من اهتمامه بالقضايا الكلامية النظرية، والأبحاث التجريدية العقدية التي لا تفضي بالملكف إلى عمل، فقد تأسس هذا المذهب السني الجماعي في مجال الاشتغال العقدي الإسلامي على قاعدة كلامية، هي أن الإيمان بالاستواء واجب والسؤال عنه بدعة، وهذه القاعدة الكلامية ستصبح من القواعد الذهبية في المذهب المالكي، إذ يمكن إجراؤها على سائر الصفات السمعية المتعالية التي لا يمكن إخضاعها لاعتبارات إنسانية بحال.

لقد كان الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه يعيش في بيئة إسلامية سلفية خالصة، لا زالت تشع بالأنوار المحمدية، والمعني القرآنية السامية، وما زالت تربتها الطيبة تنبت الإيمان الفطري، الذي غرسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطف ثماره صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، ومن جاء بعدهم من التابعين وأتباعهم، باتباع سنته وهديه، ولذلك لما رأى الإمام مالك بعض الأفكار الغربية تتسرب إلى المسلمين وتحاول إفساد تلك الفطرة السليمة التي نشأت على عقيدة صحيحة، في فترة هي من خير القرون، لم يقو على تقبلها ولم يقبل بتلويث تلك التربة الطيبة التي لا مكان فيها سوى للوحي المنزل المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة التي آلت إلى أهل المدينة المنورة التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما المدينة كالكير تنفي خَبَثَهَا وينصع طيِّبُهَا. (1)

لقد رفض الإمام مالك رضي الله عنه الاشتغال بالكلام البدعي جملة وتفصيلاً، لأن من أصول مذهبه الأخذ بعمل أهل المدينة، سواء تعلق الأمر بالعقيدة أو الأقوال أو الأفعال، لأنه أقوى في الاستدلال وأقوم، إذ هو بمنزلة روايتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو إلى الحديث المتواتر أقرب، خصوصاً إذا كان هذا الأمر مجمعا عليه لا يخالفهم فيه غيرهم، ولما كانت مسائل الكلام من الأمور المحدثة في الدين ولم يخض فيها علماء المدينة كبر على الإمام مالك الخوض فيها أيضاً.

1- الموطأ للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، كتاب الجامع، 886/2 صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية، بيروت.



فقد روي عن مالك رضي الله عنه أنه قال: الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه، ولا أحب الكلام إلا فيما كان تحته عمل<sup>(1)</sup>

كما رفض الإمام مالك رواية أحاديث الصفات التي يروج لها المبتدعة والمجسمة لكونها من الأسباب التي أسهمت في تعميق الخلاف بين الفرق الإسلامية، وجعلت كثيرا منها -في هذا الموضع الشائك - تبتعد عن جوهر التوحيد الإسلامي، القائم على الإثبات مع التفويض، كما هو مذهب السلف الصالح<sup>(2)</sup>.

لقد رفض الإمام مالك رحمه الله علم الكلام في بداية الأمر، لكون بناته الأوائل تكلموا حيث سكت السلف الصالح، وخاضوا في أمور ليس لهم فيها سلف. بل عمد بعضهم فيما بعد إلى الخلط بين مباحث هذا العلم ومناهج الفلسفة اليونانية، فانتهوا إلى إقرار مقالات عقدية شنيعة مبنية على أسلوب السلب البحث لينتهي بهم الأمر إلى العدم، كما هو الشأن بالنسبة للتيار الاعتزالي<sup>(3)</sup>.

وقد بلغ الأمر بالإمام مالك رحمه الله أن حذر من مجالسة القدرية وهم من جملة المبتدعة، أو أخذ الحديث عنهم، غير أنه لم يكفرهم بمآل قولهم الذي يعتقدونه ويدينون به بل هم قوم سوء<sup>(4)</sup>.

لقد أصبح التحذير من المرء والجدال في الدين باعتباره مدخلا لعلم الكلام البدعي من أساسيات عقائد أهل السنة والجماعة الذين يرون مجانية أهل البدع والأهواء.

قال ابن أبي زيد القيرواني: "... وترك المرء والجدال في الدين" وقال القاضي عبد الوهاب في شرح هذا المبدأ السني الراسخ: "اعلم أن مراده في هذا الفصل كراهة مناظرة أهل الأهواء ومجادلتهم، والندب إلى ترك ذلك، وذلك مكروه لما فيه من مخالطتهم والاعتداد بهم، وتأنيسهم إلى إظهار بدعتهم والإعلان بضلالهم، وهي غايتهم، بخلاف ما يجب من منابذتهم وتجاهلهم ومعاقبتهم على ذلك بترك السلام عليهم ومواصلتهم، ومنها أنهم يدأبون على مقابلتنا والقدرح في السلف من حيث لا نملك منعهم مما يوردون من شبه وطعون، لأن المناظرة تقتضي السماح للخصم في ذكر حجته وما يدعوا إليه من ترويج بدعته، ومنها أنه يخاف على الولدان ومن يضعف قلبه، ويقصر فهمه أن يعلق به شيء مما يسمعه منهم فربما صار أن يعتقد بدعهم وينشأ على ذلك فيعوز تلافيه ويعجز، وقد ينتقل من اعتقاد صحيح إلى شبهة يسمعها، ولذلك يقال: لا تمكن زائغ القلب من أذنك حراسة للقلب أن يطرقه من ذلك ما يخاف أن يعلق به<sup>(5)</sup>

1 - صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، جلال الدين السيوطي، ص: 120 علق عليه الدكتور علي سامي النشار، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

2 - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تأليف القاضي عياض بن موسى بن عياض السبكي المتوفى سنة 544، 44/2 تحقيق، عبد القادر الصحراري، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية الطبعة الثانية 1983م.

3- البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في مسائل المستخرجة لأبي الوليد بن رشد القرطبي الجد، 210/18 تحقيق الدكتور محمد حجي، طبعة دار الغرب الإسلامي بيروت 1986م.

4 - تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك، جلال الدين السيوطي، ص: 84.

5- شرح عقيدة ابن أبي زيد القيرواني في كتابه "الرسالة" للقاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي، ص 420، تحقيق د. أحمد محمد نور سيف، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث الإمارات العربية المتحدة الطبعة الأولى 2004م.

لقد انبثق من رفض الإمام مالك لعلم الكلام البدعي الذي كان يحيل في زمانه على آراء المبتدعة ومقالاتهم الشنيعة التي خالفوا فيها طريقة السلف الصالح في التفهم والتنزيل، مذهب كلامي سني وسطي يجعل من بين مقاصده العظيمة الدفاع عن العقائد الإيمانية والرد على المبتدعة بمنهج كلامي سني يجمع بين النقل والعقل.

وتشير كتب التراجم إلى أن الإمام مالكا رضي الله عنه ألف كتابا هو عبارة عن رسالة إلى ابن وهب في القدر، يرد فيه على القدريّة، وهذه الرسالة كما يقول عنها القاضي عياض من خيار الكتب في هذا الباب، الدال على سعة علم الإمام مالك بهذا الشأن<sup>(1)</sup> ولعل الإمام أبا عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي المصري (ت 157 هـ) ضمن جزءا يسيرا من رسالة الإمام مالك في كتابه: القدر وما ورد في ذلك من الآثار<sup>(2)</sup>

لقد ظهرت في زمان الإمام مالك بعض البدع العقديّة التي خالف فيها أصحابها الأمة بأسرها، مثل الموقف من مرتكب الكبائر من أمة الإسلام، هل هو مؤمن أو كافر؟ فقد ذهب علماء التابعين إلى أنه مؤمن لما معه من معرفة بالرسول والكتب المنزلّة من الله تعالى، ولمعرفته أن كل ما جاء من عند الله حق، ولكنه فاسق بكبيرته، وفسقه لا ينفي عنه اسم الإيمان والإسلام، مخالفين بذلك مذهب الخوارج الذين حكموا بتكفير مرتكب الكبيرة مطلقا، والمعتزلة الذين اعتبروه في منزلة بين المنزلتين، أو الحكم بين الحكمين، أي لا يكون حكمه حكم الكافر ولا حكم المؤمن، بل يفرد له حكم ثالث ... فإن صاحب الكبيرة كما يقول القاضي عبد الجبار: "له منزلة تتجاوزها هاتان المنزلتان، فليست منزلته منزلة الكافر ولا منزلة المؤمن بل منزلة بينهما."<sup>(3)</sup>

وقد وقف الإمام الأشعري في هذا الموضع يقرر أن مذهب المعتزلة في المنزلة بين المنزلتين خلاف الإجماع، وذلك أنه قبل حدوث واصل بن عطاء كانوا على مقالتين في مرتكب الكبيرة من أهل القبلة، فمن قائل يقول: إنه كافر، ومن قائل يقول: إنه مؤمن فاسق، ولم يبق أحد لا كافر ولا مؤمن، فخرق واصل بن عطاء إجماع الأمة، وقال: إن مرتكب الكبيرة لا كافر ولا مؤمن.<sup>(4)</sup>

1- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تأليف القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي المتوفى سنة 544، 90/2 تحقيق، عبد القادر الصحراري، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية الطبعة الثانية 1983م.  
2- طبع كتاب القدر وما ورد فيه من الآثار لابن وهب بتحقيق الدكتور عبد العزيز عبد الرحمن العثيم في مكة المكرمة عام 1406 هـ ثم طبع بتحقيق عمر بن سليمان الحفيان، دار العطاء للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى سنة 2001م.  
3- الفرق بين الفرق وبين الفرق النجية منهم، لأبي منصور عبد القاهر البغدادي، ص: 150 تحقيق محمد فتحي النادي، دار السلام مصر، الطبعة الأولى 2010م.  
4- مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، ص 157 للإمام محمد بن الحسن بن فورك، تحقيق أحمد السايح، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة الطبعة الأولى 2005م.



## مقاصد الكلام ووظيفة المتكلم في المذهب المالكي

من القواعد الكلية المقررة في المذهب المالكي أنه لا يصح شيء من العبادات إلا بعد الإقرار بالمعبود والتصديق به.<sup>(1)</sup> وهذه القاعدة الكلية لا تتحقق إلا عن طريق تحصيل العقائد الإيمانية وفهمها فهما صحيحا في ضوء علم التوحيد الإسلامي الذي شيده أهل السنة والجماعة.

وإذا كان كثير من العلماء لم يقبلوا بعلم الكلام في بداية الأمر، فلأنه كان يحيل على مقالات مبتدعة في الدين، ولأن أصحاب تلك المقالات كانوا يمثلون شذوذا في المنهج والاعتقاد. لقد استند جل العلماء الذين رفضوا علم الكلام على أنه من الأمور التي لم يشتغل بها السلف الصالح الذين اهتموا ببيان الأحكام الشرعية التي تشتد الحاجة إليها أكثر.

فإذا كان الإمام مالك يكره الكلام في الدين، اقتداء بأهل بلده الذين كانوا يكرهونه إلا فيما تحته عمل فإن الإمام الشافعي سار على هذا النهج السلفي في مناظراته لبشر المريسي وحفص الفرد.

فقد قال الإمام الشافعي لبشر المريسي وهو أحد أقطاب الفكر الاعتزالي (ت 217 وقيل 228هـ) أخبرني عما تدعو إليه، أكتاب ناطق، وفرض مفترض، وسنة قائمة، ووجدت عن السلف البحث فيه والسؤال ؟ قال بشر: لا، إلا أنه لا يسعنا خلافه، فقال الشافعي: أقررت بنفسك على الخطأ، فأين أنت من الكلام في الفقه والأخبار، فلما خرج قال الشافعي: لا يفلح.<sup>(2)</sup>

وأثر عنه أيضا أنه قال: حكى في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ويحملوا على الإبل ويطاف بهم في العشائر والقبائل وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام.<sup>(3)</sup>

وهذا الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول: لا يفلح صاحب كلام أبدا، ولا تكاد ترى أحدا نظري في الكلام إلا وفي قلبه دغل.<sup>(4)</sup>

هذه النصوص وغيرها تحذر من الاشتغال بعلم الكلام، وقد عمد بعض المعاصرين إلى إحياء هذه النصوص والتحمس لها وحملها على كل من يشتغل بعلم الكلام من العلماء بدون تمييز بين كلام وكلام. بل بدون فقه لتلك النصوص والسياقات التاريخية التي وردت فيها، حتى أفضى بهم الأمر إلى تبديع كبار العلماء من مختلف المذاهب السنية.

1- المقدمات الممهدة، لابن رشد 52/1 طبعة دار الغرب الإسلامي.

2- صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، جلال الدين السيوطي، ص: 30.

3- صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، جلال الدين السيوطي، ص: 31.

4- جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله، للحافظ ابن عبد البر، 192/2 حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه فواز أحمد زمرلي، مؤسسة الريان، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 2003م.



ومن التأويلات الغربية التي يستند إليها هؤلاء المعاصرون ما يذكره ابن عبد البر في تأويل قول مالك في الإجازات والشهادات، والتأويل منسوب لفقيه مالكي يسمى ابن خويز منداد المصري :

" قال في كتاب الإجازات من كتابه في الخلاف، قال مالك: لا تجوز الإجازات في شيء من كتب أهل الأهواء والبدع والتنجيم وذكر كتبنا ثم قال: كتب أهل الأهواء والبدع عند أصحابنا هي كتب أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم، وتفسخ الإجازة في ذلك.

قال: وكذلك كتب القضاء بالنجوم وعزائم الجن وما أشبه ذلك.

وقال في كتاب الشهادات: في تأويل قول مالك: "لا تجوز شهادة أهل البدع وأهل الأهواء، قال: أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام، فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع، أشعريا كان أو غير أشعري، ولا تقبل له شهادة في الإسلام أبدا، ويهجر، ويؤدب على بدعته، فإن تمادى عليها استتيب منها".(1)

هذا النص كثيرا ما يستشهد به بعض المعاصرين من متأخري الظاهرية للتشنيع على الأشاعرة وأنهم أهل أهواء وبدع. وهو استنتاج خاطير لا بد من التنبيه على تناقضاته وتهافتة وفساده.

أولا: إن صاحب هذا الكلام هو أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله الشهير بابن خويز منداد وهو معروف بشواذه عن مالك، وله اختيارات وتأويلات لم يعرج عليها حذاق المذهب ... وقد تكلم فيه أبو الوليد الباجي ولم يكن بالجيد النظر ولا بالقوي في الفقه، وكان يزعم أن مذهب مالك لا يشهد جنازة متكلم ولا يجوز شهادتهم ولا مناكحتهم ولا أمانتهم، وطعن ابن عبد البر فيه أيضا، وكان في أواخر المائة الرابعة.(2)

فحسب هذه الترجمة فإن ابن خويز منداد نسب إلى الإمام مالك أمورا على سبيل الانفراد، والرجل لم يكن قويا في الفقه كما يقول عنه القاضي عياض.(3)

ثم إن بعض الروايات عن مالك أنه منع شهادة القدري الذي يدعو إلى بدعته، وكذا الرافضي والخارجي، كما روي عنه المنع مجملا.(4)

1- جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله، للحافظ ابن عبد البر، 192/2 حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه فواز أحمد زمرلي، مؤسسة الريان، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 2003م.

2- ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي 291/5

3- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تأليف القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي المتوفى سنة 544، 90/2 تحقيق، عبد القادر الصحراوي، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية الطبعة الثانية 1983.

4- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تأليف القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي المتوفى سنة 544، 90/2 تحقيق، عبد القادر الصحراوي، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية الطبعة الثانية 1983.

ثانيا: كيف يستشهد الحافظ ابن عبد البر بكلام رجل طعن فيه العلماء وهو المحدث والحافظ الذي يعرف قيمة الخبر وطرق قبوله ؟

ثالثا: لم يشر ابن خويز منداد إلى أن كتب الأشاعرة من ضمن كتب أهل الأهواء والبدع عندما تكلم عن كتب الإجارة، في حين أشار إليها عند كلامه على شهادة أهل الأهواء والبدع. فهل هذه الفقرة الأخيرة فعلا من كلام ابن خويز منداد، أم أنها من إضافة بعض خصوم المذهب الأشعري؟

رابعا: أن مصطلح أهل الأهواء كان يقصد به في زمان الإمام مالك فرقا إسلامية معروفة، وهم على وجه التحديد، الجهمية والقدرية، والروافض والخوارج، ولم يدرج أحد من الأئمة المعترين الأشاعرة ضمن أهل الأهواء والبدع، إلا أن يكون من متأخري الظاهرية. علما أن المذهب الأشعري ظهر في القرن الرابع الهجري، أي بعد عصر مالك بحوالي مائتي سنة، فكيف يحمل كلامه على أئمة هذه المدرسة السنية قبل ظهورها ؟

خامسا: رد كثير من العلماء كلام ابن خويز منداد واعتبروه مخالفا للحق، فقد نقل الفقيه أبو القاسم بن أحمد البلوي المعروف بالبرزلي عن ابن بزيمة في شرح الإرشاد للجويني قوله: هذا النقل عن ابن خويز منداد باطل، وإن صح قوله فالحق حجة عليه، وإذا تصفحت مذاهب الأشعرية وقواعدهم ومبادئ أدلتهم وجدت ذلك مستفادا من الأدلة راجعا إليها، فمن أنكر قاعدة علم التوحيد أنكر القرآن، وذلك عين الكفر والخسران، وقد بدأ قبل العراقيين تلقها، وكيف يرجع إلى رأي بن خويز منداد ويترك أقاويل أفاضل الأمة وعلماء الملة، من الصحابة ومن بعدهم، كالأشعري والباهلي والباقلاني والمحاسبي وابن فورك والإسفراني وغيرهم من أهل السنة ...

فإن قلت هذا في محدثات الأمور ولم ينظر فيه السلف فلا ينبغي أن يخوض فيه الخلف، وربما أعقب المرء والجدال والشبهات.

قلت: بل نظر فيه السلف قطعاً، منهم عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وابن عباس حبر الأمة، وعلي رضي الله عنهم، ومن التابعين عمر بن عبد العزيز وربيعة وابن هرمز ومالك والشافعي، وألف فيه مالك رحمه الله رسالة قبل أن يولد الأشعري، وإنما نسب للأشعري لأنه بين مناهج الأولين، ولخص موارد البراهين، ولم يحدث فيه بعد السلف إلا مجرد الألقاب والاصطلاحات، وقد حدث مثل ذلك في كل فنون العلم. وقول القائل: نُهوا عن النظر فيه فباطل، وإنما نُهوا عن علم جهنم والقدرية وغيرهم من أهل البدع، وهم الذين ذمهم الشافعي وغيره من السلف من المحدثين.(1)

1- فتاوى البرزلي، جامع المسائل والأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام 214/6 للإمام أبي القاسم بن أحمد البلوي التونسي المعروف بالبرزلي، تحقيق الدكتور محمد الهيلة، دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى 2002م.

سادسا: يصر البعض على إحياء آراء ابن خويز منداد والبحث في حياته وأثاره، وإظهاره أنه من فطاحل المذهب المالكي، وهذا الإجراء كان يكون محمودا لو أن أصحاب هذا الاتجاه كان مقصودهم هو البحث العلمي المجرد، غير أن الدافع والله أعلم في إحياء آراء ابن خويز منداد هو الطعن في الأشاعرة والنيل منهم عن طريق تأويل كلام الإمام مالك تأويلا فاسدا لا يقره حتى مالك نفسه.(1)

لقد غاب عن ابن خويز منداد ومن يردد كلامه من المعاصرين أن العلماء الذين رفضوا علم الكلام رفضوه لأن أصحابه أحدثوا في الإسلام بدعا كثيرة ليس لهم فيها سلف. وأن هؤلاء معروفون بمقالاتهم الشنيعة، ومخالفاتهم الصريحة لإجماع الأمة ... لكن النظر السديد والموضوعي في مقالات الرافضين لعلم الكلام أفضى بنا إلى تقسيم علم الكلام إلى قسمين:

كلام هو عبارة عن تأييد للعقائد الإيمانية بأدلة نقلية وعقلية، ويمكن تسمية هذا القسم بالكلام السني أو الكلام المحمود. وكلام هو عبارة عن مفاهيم جديدة في مجال الاعتقاد الإسلامي، ويمكن تسمية هذا القسم بالكلام البدعي أو الكلام المذموم، وعلى هذا القسم الأخير تنزل انتقادات العلماء لعلم الكلام.

وعن القسم الأول يقول الحافظ أبو القاسم علي بن الحسين بن عساكر الدمشقي: "فأما الكلام الموافق للكتاب والسنة الموضح لحقائق الأصول عند ظهور الفتنة فهو محمود عند العلماء ومن يعلمه، وقد كان الشافعي يحسنه ويفهمه وقد تكلم مع غير واحد ممن ابتدع وأقام الحجة عليه، حتى انقطع".(2)

وقد استنتج القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (ت 494 هـ) من أثر يرويه الإمام مالك في الموطأ في كتاب الجامع أن كراهية العلماء للكلام إلا فيما تحته عمل لا ينبغي أن يحمل على إطلاقه بل ينصرف إلى معنيين:

فقد روى مالك أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنِي آدَمَ مِنْ ضَعْفِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾<sup>3</sup>، فقال

1- ابن خويز منداد حياته وأراؤه الأصولية، رسالة مقدمة لنيل الماجستير، من إعداد عبد العزيز الصبيحي، نشرتها جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية عام 1420 هـ، صدر أخيرا كتاب بعنوان: تفسير خويز منداد جمع وتوثيق وتقديم، الدكتور عبد القادر حجوي، وأصل الكتاب رسالة علمية قدم لها فضيلة الأستاذ الدكتور الشاهد البوشيخي المشرف على البحث.

2- تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر الدمشقي، طبعة دار الكتاب العربي 1979 م.

3- سورة الأعراف، الآية: 172.



عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للجنة، ويعمل أهل الجنة يعملون"، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال: خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون، فقال رجل: يا رسول الله ففيم العمل؟ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيُدخله ربه الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيُدخله ربه النار".

فقد استنتج أبو الوليد الباجي من سؤال عمر بن الخطاب عن معنى الآية الكريمة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَيِّ آدَمَ مِنْ صُلُوبِهِمْ عَزَائِفَ لَهُمْ﴾ أن الصحابة كانوا يتكلمون في أمور العقيدة ويبحثون عن حقائقها. وأن قول من قال من علماء التابعين كانوا يكرهون الكلام فيما ليس تحته عمل إنما ينصرف إلى أحد أمرين: إما أن يتوجه المنع في ذلك لمن ليس من أهل العلم ممن يُخاف أن تزل قدمه، ويتعلق قلبه بشبهة لا يقدر على التخلص منها... والوجه الثاني: أن يتوجه المنع في ذلك إلى من يتكلم في ذلك بمذاهب أهل البدع ومخالفين السنة. (1)

لقد وقف الإمام مالك في وجه المبتدعة ينكر عليهم بدعهم الكلامية وغلوههم في تقرير العقائد الإيمانية، من ذلك مسألة الاستواء التي جعلت الإمام مالكا رحمه الله يكره الكلام، فقد كان السلف الصالح لا يتكلمون في مثل هذه الأمور التي تضمنتها بعض النصوص التي هي من قبيل المتشابه، بل يؤمنون بها كما وردت ويعتقدون أن تفسيرها هو تلاوتها والسكوت عليها.

يقول عبد الله بن وهب كنا عند مالك بن أنس فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله الرحمن على العرش استوى، كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك وأخذته الرضاء ثم رفع رأسه فقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوع، وأنت رجل سوء صاحب بدعة، أخرجوه. قال فأخرج الرجل. وفي رواية أخرى من طريق يحيى بن يحيى: كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله الرحمن، على العرش استوى، فكيف استوى؟ قال: فأطرق مالك رحمه الله رأسه حتى علاه الرضاء ثم قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعا، فأمر به أن يخرج. (2)

وقد يفهم البعض من جواب الإمام مالك رحمه الله المعنى اللغوي المتبادر من لفظ الاستواء الذي يعني الاستقرار والتمكن والمماساة، غير أن هذه المعاني مستحيلة في حقه سبحانه وتعالى، لأنها

1- المنتقى شرح الموطأ للقاضي أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي 267/9 تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى 1999م.

2- الأسماء والصفات للبيهقي 306/2 تحقيق عبد الله الحاشدي مكتبة السوادي المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى 1993م.

تؤدي إلى التشبيه والتجسيم المرفوضين شرعا.

والذي ذهب إليه أهل الحق أن المراد بالاستواء أنه استواء لا كاستوائنا، وعلى هذا الأساس فهو غير معلوم لعدم دلالة القاطع عليه، وهذا هو مذهب السلف، وهو مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري في أحد قوليه.(1)

ومهما يكن من شيء فإن الاشتغال بعلم الكلام يكون بحسب الحاجة إليه، وفي حدود الرد على الشبهات والبدع، ثم لا بد أن يكون المشتغل بالكلام قد بلغ درجة عالية من الفهم لأمر العقيدة، متمكنا من علوم الشريعة، خبيرا بمقالات المتكلمين، عالما باللغة العربية ... وهناك نص أورده الحافظ بن عبد البر يحدد فيه الإمام مالك مفهوم المبتدعة وموقفه من علم الكلام المحمود، يقول ابن عبد البر:

"قد بين مالك رحمه الله أن الكلام فيما تحته عمل هو المباح عنده، وعند أهل بلده، وأخبر أن الكلام في الدين نحو القول في صفات الله وأسمائه، وضرب مثلا فقال: نحو قول جهم ... والذي قاله مالك رحمه الله عليه جماعة الفقهاء والعلماء قديما وحديثا من أهل الحديث والفتوى، وإنما خالف مالك أهل البدع المعتزلة وسائر الفرق، وأما الجماعة فعلى ما قال مالك رحمه الله إلا أن يضطر أحد إلى الكلام فلا يسعه السكوت إذا طمع برد الباطل وصرف صاحبه عن مذهبه أو خشي ضلالة عامة أو نحو هذا".(2)

لقد أدرك فقهاء المذهب المالكي خطورة الكلام، ومن ثم وضعوا شروطا صارمة لمن يشتغل بالرد على الشبه والبدع الكلامية التي يثيرها أهل الأهواء في كل عصر ومصر.

يقول القاضي عبد الوهاب في معرض بيان أهمية المناظرة التي يقصد منها رد الشبه: "فأما المناظرة المقصود منها إيضاح الحجة وإبطال الشبهة، ورد المخطئ إلى الصواب، والزائغ إلى الحق، والضال إلى صحة الاعتقاد فإن ذلك غير منهي عنه، بل مندوب إليه، ومحضوض عليه، وقد قال تعالى: ﴿وَجَاءَ لَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أَحْسَنُ﴾<sup>3</sup> وقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالْبَيِّنَاتِ أَحْسَنُ﴾<sup>4</sup>، وقال مخبرا عن قوم نوح: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَاءَ لَنَا بِالْبَيِّنَاتِ فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾<sup>(5)</sup>،<sup>(6)</sup>

1- جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله، للحافظ ابن عبد البر، 190/2 حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه فواز أحمد زمرلي، مؤسسة الريان، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 2003م.

2- جامع بيان العلم وفضله، وما ينبغي في روايته وحمله، للحافظ ابن عبد البر، 190/2 حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه فواز أحمد زمرلي، مؤسسة الريان، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 2003م.

3- سورة النحل، الآية: 125.

4- سورة العنكبوت، الآية: 46.

5- سورة هود، الآية: 32.

6- شرح عقيدة ابن أبي زيد القيرواني في كتابه "الرسالة" للقاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي، ص 422، د. أحمد محمد نور سيف،



يقول الإمام جلال الدين عبد الله بن نجم بن شاس: "وأما القيام بدفع شبه المبتدعة فلا يتعرض له إلا من طالع علوم الشريعة وحفظ الكثير منها، وفهم مقاصدها وأحكامها، وأخذ ذلك عن الأئمة وفاوضهم فيها، وراجعهم في ألفاظها وأغراضها وبلغ درجة الإمامة في هذا العلم بصحبة إمام أو أئمة أرشدوه إلى وجه الصواب، وحذروه من الخطأ والضلال حتى ثبت الحق في نفسه وفهمه، ثبوتاً قوياً به على رد شبه المخالفين، وإبطال حجج المبطلين، فيكون القيام بدفع الشبه فرض كفاية عليه، وعلى أمثاله حينئذ، فأما غيرهم فلا يجوز له التعرض لذلك، لأنه ربما ضعف عن رد تلك الشبهة وتعلق بنفسه منها ما لا يقدر على إزالتها، فيكون قد تسبب إلى هلكة وضلال، ونسأل الله العصمة".<sup>(1)</sup>

ويقول ابن الحاجب في عقيدته: "ولا يجب القيام بدفع شبه أهل الضلال إلا على من تمكن في النظر في علوم الشريعة تمكناً يقوى بها على دفعها وهو فرض كفاية"<sup>(2)</sup>

وقد ألف الإمام الأشعري رسالة بعنوان "استحسان الخوض في علم الكلام" ومضمون هذه الرسالة كما يدل عليه عنوانها هو التدليل على جواز الاشتغال بعلم الكلام الذي حكم بعض العلماء بتحريمه، دون تمييز بين المحمود منه والمذموم، وفي أحسن الحالات بتبديع المشتغل به، على الرغم من أهميته وشرف موضوعه"<sup>(3)</sup>

دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث الإمارات العربية المتحدة الطبعة الأولى 2004م.

<sup>1-</sup> عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة، جلال الدين عبد الله بن نجم بن شاس 1283/3 تحقيق د عبد الحميد لحمر، طبعة دار الغرب الإسلامي بيروت الطبعة الأولى 2003م، انظر هذا النص في الذخيرة للقرافي 223/13 تحقيق الدكتور محمد حجي، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى 1994م.

<sup>2-</sup> تحرير المطالب لما تضمنته عقيدة ابن الحاجب لأبي عبد الله محمد بن أبي الفضل البكي الكمي، ص: 306، تحقيق نزار حمادي، مؤسسة المعارف بيروت، الطبعة الأولى 2008.

<sup>3-</sup> طبعت هذه الرسالة سنة 1323هـ بحيدر آباد، ونشرها الأب مكارثي مع ترجمة إلى الإنجليزية ضمن كتابه "أبو الحسن الأشعري ومذهبه الكلامي" وقد أورد نص هذه الرسالة د. عمر النجار في مؤلفه "علم الكلام عرض وتقد" ملحق (2) الصفحة 178 كما أوردها الدكتور عبد الرحمن بدوي ضمن كتابه "مذاهب الإسلاميين"، 15/1.

وقد شكك في صحة نسبة هذه الرسالة إلى الإمام الأشعري عبد الرحمن بدوي، أنظر كتابه "مذاهب الإسلاميين 181/1 وفوقية حسين، أنظر مقدمة تحقيق كتاب الإبانة عن أصول الديانة للإمام الأشعري ص: 72. ومهما يكن من شيء فإن الآراء التي تتضمنها تلك الرسالة تعبر عن وجهة نظر الأشاعرة وموقفهم الإيجابي من الاشتغال بعلم الكلام. انظر كتاب "تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري لابن عساكر الدمشقي ص: 333. وقد رأينا بعض علماء الغرب الإسلامي ينحون هذا المنحى، انظر كتاب "مقدمات المرشد إلى علم العقائد"، ص: 80. لابن خمير السبتي/ وشرح السنوسية الكبرى، المسماة "عمدة أهل التوفيق والتسديد" للإمام السنوسي، ص: 50.



وألف عبد الله الأنصاري الهروي (ت 481هـ) كتاباً سماه «ذم الكلام» للتحذير من علم الكلام، وكذلك الإمام موفق الدين ابن قدامة المقدسي، في كتابه «تحریم النظر في كتب الكلام» وهما مطبوعان متداولان.

وكان الإمام الأشعري من أوائل من ردوا على دعاوى من ذمَّ الكلام ونهي عن الخوض فيه مطلقاً في رسالته "استحسان الخوض في علم الكلام" فقال: "إن طائفة من الناس جعلوا الجهل رأسَ مآلهم، وثقل عليهم النظر والبحث عن الدين. ومالوا إلى التخفيف والتقليد وطعنوا على من فتش عن أصول الدين، ونسبوه إلى الضلال..."

وقد نقض الإمام الأشعري دعاوى هؤلاء الرافضين من خلال تفكيك خطابهم التبديعي لينتهي بعد ذلك إلى إقرار شرعية علم الكلام لكون أصوله النظرية مأخوذة من القرآن الكريم. فقد قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾<sup>(1)</sup>، وهذا الكلام موجز منبه على الحجة بأنه واحد لا شريك له، وكلام المتكلمين في الحجاج في التوحيد بالتمانع والتغالب فإنما مرجعه إلى هذه الآية.<sup>(2)</sup>

وقد سلك الإمام الأشعري منهجاً واضحاً في الدفاع عن مشروعية الكلام، فبعد أن أشار إلى أهم المقدمات التي استند عليها خصوم الكلام والحكم على المشتغل به بالضلال والابتداع قال: الجواب عنه من ثلاثة أوجه:

أحدها: قلب السؤال عليهم، بأن يقال: النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل أيضاً أنه من بحث عن ذلك وتكلم فيها جعلوه مبتدعاً، فقد لزمكم أن تكونوا مبتدعة إذا تكلمتم في شيء لم يتكلم فيه النبي صلى الله عليه وسلم، وضللتهم من لم يضلله النبي صلى الله عليه وسلم.<sup>(3)</sup>

لقد تطور علم الكلام وأصبح مع المدرسة الأشعرية من العلوم الشرعية بل من أجلها وأشرفها لكونه يبحث في ذات الله عز وجل وصفاته وأفعاله، وذوات رسله عليهم الصلاة والسلام وأحوال الآخرة.

وعن شرف علم الكلام ومنزلته يقول الإمام سيف الدين الأمدى: "وأشرف العلوم إنما هو العلم الملقب بعلم الكلام، الباحث عن ذات واجب الوجود وصفاته، وأفعاله ومتعلقاته، إذ شرف كل علم إنما هو تابع لشرف موضوعه الباحث عن أحواله العارضة لذاته."<sup>(4)</sup>

1- سورة الأنبياء، الآية: 22.

2- رسالة استحسان الخوض في علم الكلام، للإمام الأشعري ضمن كتاب مذاهب الإسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوي 1/16

3- نفسه

4- غاية المرام في علم الكلام، للأمدى ص: 13

ويقول سعد الدين التفتزاني: "... وبالجمله فهو - علم الكلام - أشرف العلوم لكونه أساس الأحكام الشرعية ورئيس العلوم الدينية، وكون معلوماته: العقائد الإسلامية، وغايته: الفوز بالسعادة الدينية والدنيوية ... وما نقل عن بعض السلف من الطعن فيه والمنع عنه فإنما هو للمتعصب في الدين، والقاصر عن تحصيل اليقين، والقاصد إفساد عقائد المسلمين، والخائض فيما لا يفتقر إليه من غوامض المتفلسفين، وإلا فكيف يتصور المنع عما هو أصل الواجبات، وأساس المشروعات.<sup>(1)</sup>

**محاسن التصنيف العقدي في المذهب المالكي:**

يرى بعض العلماء أن من خصائص المذهب المالكي في مجال التصنيف العقدي أن أئمتهم أدرجوا مباحث العقيدة في كتاب جامع يجعلونه عادة في آخر مؤلفاتهم، ويرى هؤلاء الأئمة أن هذا من محاسن التصنيف في المذهب المالكي لأنه لا يوجد في تصانيف غيره من المذاهب، لكونه يتضمن بعض المباحث التي لا يتناسب وضعها في باب فقهي معين. ولعل هؤلاء العلماء كانوا متأثرين بالإمام مالك في التصنيف، فقد رأيناه يضمن آخر الموطأ كتاباً جامعاً يذكر فيه أموراً تتعلق بالعقيدة والأخلاق والأفعال والأقوال. وهذه الصناعة في التصنيف تنسجم مع اختيار الإمام مالك رضي الله عنه الذي كان يبحث عما تحته عمل، أي العناية بالأحكام الفقهية بعد تحصيل الأمور العقدية.

ويذكر أبو بكر بن العربي أن هذا الأسلوب في التصنيف اخترعه الإمام مالك لفائدتين: إحداها أنه خارج عن رسم التكليف المتعلق بالأحكام التي صنفها أبواباً ورتبها، والأخرى أنه رضي الله عنه لما لاحظ أن الشريعة وأنواعها ورأها منقسمة إلى أمر ونهي، وإلى عادة وعبادة وإلى معاملات وجنایات نظمها أسلاكاً، وربط كل نوع بجنسه، وشذت عنه من الشريعة معان مفردة لم يتفق نظمها في سلك واحد، لأنها متغايرة المعاني ولا أمكن أن يجعل لكل منها باب الصغره، ولا أراد هو أن يطيل القول فيما إطالة القول فيها، فجمعها أشتاتاً وسمى نظامها كتاب الجامع. فطرق للمؤلفين ما لم يكونوا قبل ذلك به عالمين في هذه الأبواب كلها.<sup>(2)</sup>

ومن العلماء الذين ساروا على هذا النهج: الإمام ابن شاس (ت 616 هـ) في كتابه "عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة" فقد أرجع المسائل التي تلحق عادة بكتاب الجامع على سبيل الحصر إلى ثلاثة أجناس: ما يتعلق بالعقيدة، وما يتعلق بالأقوال، وما يتعلق بالأفعال.<sup>(3)</sup>

<sup>1</sup> - شرح العقائد النسفية لسعد الدين التفتزاني ص: 12.

<sup>2</sup> - كتاب القبس في شرح الموطأ تأليف الإمام أبي بكر بن العربي كتاب الجامع ص: 1082 تحقيق محمد عبد الله ولد كريم، طبعة دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الأولى 1992 م.

<sup>3</sup> - عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة للإمام بن شاس 1083/1.

وقد سار على هذا النحو أيضا الإمام القرافي (ت 684 هـ) في كتابه "الذخيرة" حيث قال: "هذا كتاب يختص بمذهب مالك لا يوجد في تصانيف غيره من المذاهب، وهو من محاسن التصنيف، لأنه تقع فيه مسائل لا يناسب وضعها في ربع من أرباع الفقه، أعني العبادات والمعاملات والأقضية والجنايات فجمعها المالكية في أواخر تصانيفهم وسموها بالجامع، أي جامع لأشتات من المسائل التي لا تناسب غيره من الكتب، وهي ثلاثة أجناس: ما يتعلق بالعقيدة، وما يتعلق بالأقوال، وما يتعلق بالأفعال، وهو الأفعال والتروك بجميع الجوارح<sup>(1)</sup>."

ولكن هذا الأسلوب في التصنيف ليس مطردا في المذهب المالكي فقد ألف بعض العلماء كتباً مستقلة في العقيدة، كما فعل القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه: "الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به"، وكتابته "تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل" وابن الحاجب في عقيدته، أو تخصيص أبواب للعقيدة في أول مصنفاتهم الفقهية، كما فعل ابن أبي زيد القيرواني في رسالته... وابن عاشر في منظومته.

وصفوة القول فإن المذهب المالكي معضدا بالمذهب الأشعري قام بدور مهم في الحفاظ على جوهر التدين السني وذلك كالاتي:

• لقد قام المذهب المالكي بدور مهم في الدفاع عن عقائد أهل السنة والجماعة والوقوف في وجه المبتدعة في مختلف الأقطار الإسلامية التي كتب له فيها السيادة. وقد تحصن شمال إفريقيا ضد البدع والأهواء بالمذهب المالكي منذ دخول هذا المذهب السني إلى الآن. ونشير في هذا السياق إلى ذلك الصراع العقدي الذي وقع بشمال إفريقيا بين أئمة المذهب المالكي والإسماعيلية الفاطميين. حيث اقتنع المالكية وهم المحافظون المتمسكون بالسنة أن الفاطميين إنما يعملون على هدم الإسلام متسترين بالتشيع مثلما اتهم أهل السنة الأوائل عبد الله بن ميمون القداح الذي ما تشيع إلا لهدم الإسلام ويعيد للمجوسية عهدها وللفارسية عزها.

• لقد اتخذ المالكية مواقف واضحة ضد أهل الأهواء والبدع، فهم يقاطعونهم ولا يصلون خلفهم ويعتبرونهم مخالفين للسنة، ومخالفتهم للسنة عندهم تعني مخالفة الإسلام. وقد بلغ الأمر ببعضهم (أبو إسحاق السبائي الزاهد) أنه إذا رقى رقية كان يقول بعد الحمدلة وسورة الإخلاص والمعوذتين: وبغضي في عبيد وذريته وحبي في نبيك وأصحابه وأهل بيته أشف كل من رقيته.

أما منتهى الصمود والثبات على معتقد أهل السنة الذي كان المالكية حاملين لواءه، وهم يومئذ رمز الإسلام السني بشمال إفريقيا، فيظهر مع ابن التبان الذي أبى الدخول في المذهب

1- الذخيرة للإمام شهاب الدين القرافي 231/13.



الإسماعيلي وتحدي من دعاه لذلك: وقال له: والله لو نشررتني في اثنين ما فارقت مذهب مالك.<sup>(1)</sup>

• إن موقف المالكية من أهل الأهواء والبدع يعني فرقة إسلامية بعينها، كالجهمية والقدرية والرافضة ... أما حمل هذا المصطلح على الأشاعرة أو الماتريدية كما يفعل بعض الشيوخ المنتسبين للمدرسة السلفية فهو جهل كبير بواقع الفرق الإسلامية كما أن فيه ظلما كبيرا لهاتين المدرستين السنيتين لعل من أسبابه التعصب المذهبي والنظر الضيق.

\* لقد اعتبر أئمة العقيدة الأشعرية أن علم الكلام السني من أشرف العلوم، لكونه يتعلق بالبحث في ذات الله وصفاته وذوات رسله، ثم إن جميع العلوم محتاجة إليه، وأخيرا فإن الخطأ في علم الكلام يقود إلى الكفر أو الابتداع ومن ثم فإن صوابه من أحسن الأشياء وأشرفها.<sup>(2)</sup>

## علاقة المذهب المالكي بالمعتقد الأشعري:

لقد استطاع أئمة المذهب المالكي إقامة نظام كلامي قائم على الإثبات مع التنزيه، وبهذا المنهج القويم حافظ هؤلاء على جوهر التوحيد الإسلامي بعيدا عن مذاهب المشبهة والمبتدعة، وقد جاء المذهب الأشعري بوصفه تأسيسا للنظر الكلامي القائم على الاستدلال العقلي ليعيد بناء المذهب المالكي في جانبه العقدي بناء جديدا يجمع بين النقل والعقل.

هذا التكامل المنهجي بين المذهبين المالكي والأشعري لا يثير أي إشكال بالنسبة لمعتنقي هذين المذهبين، لكن بعض الباحثين ممن قصر نظرهم وضعفت بضاعتهم يذهبون على سبيل الشذوذ إلى أن هناك انفصالا بين مذهب الإمام مالك في الفقه والعقيدة ومذهب عامة أئمة العقيدة الأشعرية في العقيدة، فيقول على سبيل النصح: وإنني أوجه الدعوة إلى الإخوة المالكية الذين ينتسبون إلى مذهب الإمام مالك رحمه الله في الفقه، ويسلكون منهج الأشاعرة في العقيدة المخالفة لمنهج السلف والصحيح من عقيدة مالك، ويدعون أن ذلك هو اعتقاد الإمام مالك ... أقول لهم: هذا منهج الإمام مالك، وهذه عقيدته الصحيحة الثابتة الحقة فما وجه التفريق بين موافقة مالك في الفقه ومخالفته في العقيدة؟<sup>(3)</sup>

1- الصراع المذهبي في إفريقيا إلى قيام الدولة الزيدية، عبد العزيز المجذوب، الصفحة 185، دار ابن حزم بيروت، الطبعة الأولى 2008م.

2- الإشارة في علم الكلام، للإمام فخر الدين الرازي، ص 26، تحقيق هاني محمد حامد، المكتبة الأزهرية للتراث، 2009م.

3- منهج مالك رحمه الله في إثبات العقيدة، ص 545 إعداد سعود بن عبد العزيز الدجعان، تحت إشراف حماد بن محمد الأنصاري وعلي بن عبد الرحمن الحذيفي وعبد الكريم بن مراد الأثري، دار الآثار الجزائرية الطبعة الأولى 2006م.

التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، للإمام الحافظ أبي عبد الرحمن يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، (ت 463 هـ) الجزء السابع الصفحة 128 تحقيق عبد الله بن الصديق، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / المملكة المغربية، 1399هـ-1979م.

وهذا استنتاج باطل وربط ساذج، بين المذهب المالكي في جانبه الفقهي والمذهب الأشعري في جانبه العقدي، لأن مذهب مالك الفقهي أسبق من المذهب الأشعري، ولأن مذهبه في العقيدة هو نفسه مذهب السلف الصالح، وهذه الحقيقة لا تخفى على السادة الأشاعرة الذين يفرقون بين مذهب السلف ومذهب الخلف بما يمتاز به الأول من إحكام وضبط، وأن الثاني جاء نتيجة لتطور العلوم وظهور قضايا كلامية جديدة ... على الرغم من العلاقة الجوهرية التي تربط بين المذهبين من حيث تنزيه الباري سبحانه وتعالى وعدم تكفير مرتكبي المعاصي والقول في النبوة والصحابة والإمامة وسائر قضايا الاعتقاد...

وإذا كان هذا الباحث يظن ظنا أن هناك فرقا بين المذهب الفقهي المالكي والمذهب العقدي الأشعري فإن هذا يلزم أيضا أصحاب الخطاب السلفي الذين خالفوا مذهب مالك في العقيدة بل خالفوا الإمام أحمد رضي الله عنهما، فإنه لم يرد عن مالك أنه قال: إن الله تعالى يتكلم بحرف وصوت كما تقول المدرسة السلفية اليوم، وإنما قال كما قال الإمام أحمد رضي الله عنهما: القرآن كلام الله غير مخلوق، ولم يقل مالك: إن الله استوى استواء حقيقيا، كما تقوم المدرسة السلفية اليوم بل قال: الاستواء معلوم والكيف مجهول ... ولم يقل: إن الله تعالى ينزل نزولا حقيقيا كما تقول المدرسة السلفية اليوم بل وردت عنه تأويلات تنسجم مع نزعة التنزيهية، منها: أنه سبحانه وتعالى ينزل كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم يصدقون بهذا الحديث، ولا يكيفون. وقال قوم من أهل الأثر: إنه ينزل أمره وتنزل رحمته. وهذا التأويل مروى عن مالك أيضا. قال الحافظ ابن عبد البر: وقد يحتمل أن يكون ما قال مالك -رحمه الله-: على معنى أنه تنزل رحمته وقضاؤه بالعفو والاستجابة، وذلك من أمره، أي أكثر ما يكون ذلك في ذلك الوقت والله أعلم.

وإذا كان البعض يقول: إنه ينزل بذاته، فإن هذا القول ليس بشيء، عند أهل الفهم من أهل السنة، لأن هذا كيفية، وهم يفزعون منها، لأنها لا تصلح إلا فيما يحاط به عيانا. وقد جل الله وتعالى عن ذلك (1)

ومن الأمور المقررة عند الإمامين مالك وأحمد بل وسائر أئمة السلف أنهم قالوا: نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة، ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم قطعا أن الله عز وجل لا يشبه المخلوقات، وأن كل ما تمثل في الوهم فإنه خالقه ومقدره، وكانوا يحترزون من التشبيه إلى غاية أن قالوا: من حرك يده عند قوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أو أشار بأصبعه عند روايته "قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن" وجب قطع يده وقلع أصبعه. (2)

1- الملل والنحل للشهرستاني 116/1 تقديم وتعليق الدكتور صلاح الدين الهواري، مكتبة الهلال بيروت، الطبعة الأولى 1998م.

2- المصدر نفسه: 92.



وإذا كان بعض الباحثين يذهبون على سبيل التخيل أن هناك انفصالا معرفيا بين المذهب المالكي والمذهب الأشعري فإن هذا الاستنتاج لا يثبت أمام ما يقوله أئمة المذهب المالكي أنفسهم، وإنصافا للمدرسة الأشعرية أنقل هنا جواب ابن رشد الجد عن سؤال وجهه إليه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين:

ما يقول الفقيه القاضي الأجل أبو الوليد وصل الله توفيقه وتسديده، ونهج إلى كل صالحة طريقه، في الشيخ أبي الحسن الأشعري، وأبي إسحاق الأسفرايني وأبي بكر الباقلاني وأبي بكر بن فورك وأبي المعالي وأبي الوليد الباجي ونظرائهم ممن ينتحل علم الكلام، ويتكلم في أصول الديانات، ويصنف للرد على أهل الأهواء، أهم أئمة رشاد وهداية، أم هم قادة حيرة وعماية؟ وما تقول في قوم يسبونهم، وينتقصونهم، ويسبون كل من ينتمي إلى علم الأشعرية، ويكفرونهم، ويتبرؤون منهم، وينحرفون بالولاية عنهم، ويعتقدون أنهم على ضلالة، وخائضون في جهالة، فماذا يقال لهم، يصنع بهم، ويعتقد فيهم؟ أتركون على أهوائهم أم يكف عن غلوائهم؟ وهل ذلك جرحة في أديانهم، ودخل في إيمانهم؟ وهل تجوز الصلاة وراءهم أم لا؟ بين لنا مقدار الأئمة المذكورين ومحلهم من الدين، وأفصح لنا عن حال المنتقص لهم والمنحرف عنهم، وحال المتولي لهم، والمحب فيهم مجملا مفصلا، وما جورا إن شاء الله تعالى.

فأجاب ابن رشد - رحمه الله - تصفحت - عصمنا الله وإياك - سؤالك هذا، ووقفت عليه، وهؤلاء الذين سميت من العلماء أئمة خير وهدى، وممن يجب بهم الاقتداء، لأنهم قاموا بنصر الشريعة، وأبطلوا شبه أهل الزيغ والضلالة، وأوضحوا المشكلات، وبينوا ما يجب أن يدان به من المعتقدات. فهم بمعرفتهم بأصول الديانات العلماء على الحقيقة، لعلمهم بالله عز وجل، وما يجب له، وما يجوز عليه، وما ينفي عنه، إذ لا تعلم الفروع إلا بعد معرفة الأصول. فمن الواجب أن يعترف بفضائلهم، ويقر لهم بسوابقهم، فهم الذين عني رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين". فلا يعتقد أنهم على ضلالة وجهالة إلا غبي جاهل أو مبتدع زائغ عن الحق مائل، ولا يسهم وينسب إليهم خلاف ما هم عليه إلا فاسق. وقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغْيِرَ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾<sup>1</sup>. فيجب أن يبصر منهم الجاهل منهم، ويؤدب الفاسق، ويستتاب المبتدع الزائغ عن الحق، إذا كان مستسهلا ببدعة فإن تاب وإلا ضرب أبدا حتى يتوب كما فعل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بصبيغ المتهم في اعتقاده من ضربه إياه حتى قال: يا أمير المؤمنين إن كنت تريد دوائي فقد بلغت



مني موضع الداء، وإن كنت تريد قتلي فأجهز علي، فخلى سبيله، والله أسأله العصمة والتوفيق برحمته، قاله محمد بن رشد.<sup>(1)</sup>

## ما يستفاد من فتوى ابن رشد:

السائل هو أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني أمير المسلمين بمراكش، ثاني ملوك دولة المرابطين. المتوفى سنة 537 هـ. وسأله للفتية أبي الوليد بن رشد الجد يدل دلالة واضحة على أنه لم يكن مقتنعا بما كان يروج له بعض خصوم العقيدة الأشعرية من تهمة واهية، وافتراءات بينة حول هذه العقيدة السنية، بل كأنه بسؤاله لأبي الوليد بن رشد وحرصه الشديد على استصدار فتوى من العلماء المعتبرين الثقاة من أمثال أبي الوليد أراد من خلالها أن يضع حدا فاصلا لهذه التهم الباطلة التي يتعالى عنها أعلام المدرسة الأشعرية، كما أنه بسؤاله أيضا لأبي الوليد مهد لظهور العقيدة الأشعرية التي ستصبح فيما بعد العقيدة الرسمية للمغاربة.

• إن التشغيب على العقيدة الأشعرية ظهر منذ ظهور هذه العقيدة السنية الجماعية من قبل أناس قصر نظرهم، وضعفت بضاعتهم، ثم إن الطعن كان موجها بالأساس إلى كبار أئمة المذهب الأشعري، ربما لاعتقاد أصحاب هذا الأسلوب غير النبيل أن النيل من هؤلاء الأئمة الأعلام كاف لهدم المذهب الأشعري من أساسه، ولكن سقط في أيديهم، حيث أصبح المذهب الأشعري مذهبا رسميا مجمعا عليه من قبل الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة كما قال العز بن عبد السلام.

• لقد تولى كثير من العلماء الفضلاء بيان افتراءات المفترين على المدرسة الأشعرية وعلمائها، مثل ما فعله الإمام الحافظ ابن عساكر الدمشقي في كتابه: "تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري" وقد قال في مقدمة هذا الكتاب: "... واعلم يا أخي، وفقنا الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق ثقاته، أن لحوم العلماء -رحمة الله عليهم- مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، لأن الوقوعة فيهم بما هم منه براء أمره عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم ..." (2)

## • ارتكز جواب ابن رشد على العناصر الآتية:

أن أئمة العقيدة الأشعرية قاموا عبر التاريخ بحفظ الشريعة والرد على المخالفين لعقيدة أهل السنة والجماعة. في إطار رسالة العلماء التي حددها الحديث النبوي الشريف الذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين،

1- فتاوى ابن رشد ، 802/2 لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي المالكي تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور المختار بن الطاهر التليلي، طبعة دار الغرب الإسلامي. بيروت لبنان الطبعة الأولى 1987م.

2- تبين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ص 29 طبعة دار الكتب العلمية.

وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين" والذي حمله ابن رشد على أئمة العقيدة الأشعرية.

- أن مهمة الأشاعرة واشتغالهم العقدي ارتكز بالأساس على بيان أمور العقيدة بخاصة مع الرد على الشبه التي كانت تثار حول العقائد الإسلامية بعامه.
- حدد ابن رشد ثلاث مستويات للرد على من يطعن في أعلام المدرسة الأشعرية: تبدأ بتبصير الجاهل منهم بحقيقة هؤلاء الأعلام، ثم تأتي مرحلة الزجر بالنسبة للمبتدع والفاسق.
- عمد بعض الباحثين المعاصرين إلى العبث بهذه الفتوى، وقراءتها قراءة غير منصفة. فقد كتب هذا الباحث فصلاً بعنوان: "موقف علماء المغرب من علم الكلام والأشعرية"، أورد فيه نص سؤال أمير المسلمين الذي أثبتناه فوق، ولم يعرج قط على جواب ابن رشد. بل اكتفى بالقول: "وبغض النظر عن جواب أبي الوليد ابن رشد عن السؤال فإن مضمونه يشير إلى وجود اتجاه في المغرب كان أصحابه ينقمون على علماء الأشعرية خصوصاً".<sup>(1)</sup>

وتعليق الباحث على فتوى علمية بهذا الشكل في سياق الحديث عن مواقف علماء المغرب على زعمه، خلق غير علمي وغير نبيل، الهدف منه النيل من أئمة المذهب الأشعري، تمشياً مع الخط غير العلمي الذي رسمه لنفسه منذ البداية، وهو يصدر عن منهج آخر ليس هو منهج أهل السنة والجماعة الذي نهض بالدعوة له أئمة المذهب الأشعري، فالزعم أن هناك اتجاهاً في المغرب كان يعارض الأشعرية ليس صحيحاً، إذ كيف يعارض عاقل عقيدة سنية جماعية أجمع عليها العلماء الثقات، بل هي أي العقيدة الأشعرية الصياغة النهائية لعقائد أهل السنة والجماعة. وقد رأينا ابن رشد وهو واحد من كبار علماء المغرب الثقات الأثبات كيف يقدم لنا أئمة العقيدة الأشعرية ويعتبرهم المتكلمين السنيين حقيقة... فإذا كان مقصود هذا الباحث بالناقمين عوام المشبهة فهؤلاء لا يلتفت إلى كلامهم.

وصفوة الكلام فإن العلاقة بين المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية من حيث تحصيل العقائد الإيمانية علاقة وثيقة. فإذا كان المذهب المالكي في جانبه العقدي امتداداً لمذهب السلف الصالح، فإن المذهب الأشعري ما هو إلا استئناف للحجاج عن عقائد السلف التي كان الإمام مالك رضي الله عنه أحد روادها ورموزها بالحجاز والإمام الأشعري أحد المجددين على رأس المائة الثالثة.

1- جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، د. إبراهيم التهامي، الصفحة: 276، مؤسسة الرسالة ناشرون بيروت الطبعة الأولى 2005م.

## نماذج من أعلام المغرب في تقرير الوسطية ونبذ التطرف

أبو سالم العياشي أنموذجا

من خلال كتابه:

الحكم بالعدل والإنصاف الرافع للخلاف في ما وقع بين بعض فقهاء سجلماصة من الخلاف في تكفير من أقر بوحداية الله وجهل بعض ماله من الأوصاف

ذ. عبد المجيد محيب

مؤسسة دار الحديث الحسنية

بالرباط.

تروم هاته الورقات، تقديم رؤية مركزة عن ملامح الوسطية وتجليات نبذ التطرف عند علم من أعلام المغرب في القرن 11هـ وهو العلامة المغربي "أبو سالم العياشي" (ت1090هـ)، من خلال الكتاب النفيس الذي وسمه بـ "الحكم بالعدل والإنصاف الرافع للخلاف في ما وقع بين بعض فقهاء سجلماصة من الخلاف في تكفير من أقر بوحداية الله وجهل بعض ماله من الأوصاف"<sup>1</sup>، وهو كتاب أبدع فيه أبو سالم العياشي إبداعا، أهله ليكون بصنيعه هذا مدرسة مغربية فريدة في منهجها، أصيلة في بابها، متزنة في انتصافها وانتصارها لمنهج التيسير والرفق بالناس، وعدم التشديد عليهم بالزج بهم في جزئيات الأسماء والصفات، ومباحث علم الكلام الفرعية والافتراضية التي يصعب فهمها على العلماء والنبغاء من أهل التخصص، فكيف بعامة الناس وبُسطائهم

### نشأة أبي سالم العياشي والعوامل التي صنعت تميزه ونبوغه:

يمكن تلخيص أهم العوامل التي صنعت تميز أبي سالم العياشي في الآتي:

- 1- البيئة العلمية الصالحة التي وفرتها الزاوية العياشية، وصحبة أبي سالم اللصيقة لشيخوخها، خاصة أبوه محمد بن أبي بكر العياشي رحمه الله.
- 2- زيارته للزاوية الناصرية سنة 1053هـ، واحتكاكه بعلمائها وفقهائها.
- 3- رحلته الاضطرارية إلى فاس، إثر الأزمة التي عاشتها الزاوية العياشية، إذ كانت الفرصة مواتية لأبي سالم، للاحتكاك بطلبة وعلماء جامعة القرويين.
- 4- علاقاته الودية بعلماء الزاوية الدلائية والمراسلات العلمية والأدبية التي كانت بينهم، خاصة مع "أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي" و"الطيب بن محمد المسناوي" و"محمد المرابط الدلائي" ومحمد بن محمد بن أبي بكر الصغير الدلائي.

1- منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية لسنة 2015.



5- اهتمامه بالتواصل مع العلماء، وحرصه الشديد على ربط الصلات العلمية والأدبية معهم، وتصيده- بل اصطناعه- لفرص اللقاء بهم، حتى لو اقتضى ذلك مكابدة الشدائد، وتطويل مدد الرحلات وتغيير مساراتها، كما فعل رحمه الله مثلا في صحبته وزيارته لـ"أبي بكر بن يوسف السكتاني" بمراكش، وهو في طريق العودة من المشرق في رحلته الأولى؛ فأخذ عنه أبو سالم العلوم والمعارف ولقنه الذكر ومروياته في الظاهر والباطن عند أوبتهما من الحج.

6- شخصيته التواقة الطموحة، التي لا ترضى بالدون، ولا ترتاح إلا في طلب المعالي، فقد عُرف عن أبي سالم رحمه الله، تشوّفه الدائم للتميز، وحرصه الشديد على الاستفادة القصوى من كل من لاقاه من العلماء والفقهاء، لدرجة أنه فرض شخصيته القوية عليهم، فاستأثر باهتمامهم وحظي بحسن رعايتهم: ها هو الشيخ "بدر الدين الهندي" المشهور بضبطه لعلم المنطق بالمدينة المنورة، يطلب من أبي سالم تمديد مدة إقامته بالمدينة المنورة ليدرسه العلوم العقلية التي يحتاجها: "إن أقمتم معنا بالمدينة، بذلنا معك المجهود فيما قصدت من العلوم العقلية"، ونقرأ في فهرسته كيف كان يواصل الليل بالنهار، إذ يحكي عن نفسه، أنه الطالب الوحيد الذي ختم "المقدمة الجزرية" على الشيخ "الديبع اليميني"، على الرغم من أن مدة الدرس لا تتجاوز المرة الواحدة في اليوم، مما اضطر معه الشيخ "اليميني" إلى أن يخصص له حصة إضافية بين الظهرين، بل إنه تفرغ له بالكامل قبل رحيله، ليُتم عليه القرآن الكريم بقراءة ابن كثير ويجيزه في مروياته.

7- جمعه بين الشريعة والحقيقة، فقد كان متفرغا بالكلية لتكوين نفسه وتفقيها في الدين، ونلاحظ في دراستنا لسيرته أنه لم يُشغل نفسه بشيء آخر غير التعليم والتعلم، فلم ينخرط في الصراعات السياسية التي عرفها عصره، كما كان من الزاهدين في المناصب الرئاسية، كالقضاء مثلا.

8- كان للرحلات دور بارز في صقل موهبة أبي سالم، وتفتحته على معارف وعلوم لم تُتخّ لغيره من علماء عصره، وقد كانت لأبي سالم ثلاث رحلات إلى المشرق العربي، الأولى سنة 1059هـ، والثانية سنة 1064هـ، والثالثة في سنة 1072هـ، وفي هذه الأخيرة، ألقى دروسا في الفقه بالمدينة المنورة، على مذهب مالك رحمه الله، كما ألقى بها دروسا في فنون مختلفة كالتوحيد والنحو والبلاغة، وفي هذه الرحلة أيضا ألف رحلته الشهيرة "ماء الموائد" في مجلدين كبيرين.

تكمن أهمية هاته الرحلات، في كونها أتاحت لأبي سالم إمكانيات مهمة للاطلاع على معارف جديدة في مناطق مختلفة، فقد: "أخذ عن علماء مصر ومكة والمدينة المنورة وفلسطين، فضلا عن اتصالاته الوثيقة والمباشرة مع علماء وصوفية من طرابلس والإسكندرية والقدس، فلم يترك عالما إلا قصده ولا متصوفا إلا زاره، حريصا على أسانيدهم ومستعديا إجازاتهم، وآملا بركة دعائهم".

## الحاجة لهذا الكتاب اليوم: الدواعي والأسباب:

في اعتقادنا إن كتاب "الحكم بالعدل والإنصاف"، يعتبر إضافة نوعية للمكتبة الإسلامية، إذ يتميز بميزات وخصائص، تجعل من التعريف به ضرورة ملحة ومستعجلة، ويمكن إجمال هاته الخصائص في الآتي:

1- عرضه الشمولي وتصوره الكلي، فقلما تجد في الكتابات المعاصرة معالجة متكاملة لقضية التكفير، معالجة تتناولها جملة واحدة في جوانبها الفقهية والأصولية والكلامية والواقعية، وهذه الجوانب كلها، حاضرة بقوة في كتاب "الحكم بالعدل والإنصاف".

2- واقعيته، فهو يتجاوز الهموم النظرية المغرقة في التعقير، التي نلّفها في أغلب الكتب المعاصرة، لانطلاقه من أرضية واقعية حقيقية، ومعالجته لمشكل عانى ويعانى منه الناس في عصره وفي العصر التي تليه.

3- طريقتة المتميزة في عرض العقيدة، وربطها بالأخلاق، في تصور يتغنى الجمع بينهما كما كانت على العهد النبوي، حيث لا حديث عن العقيدة دون ترجمتها عمليا في سلوكات مشرقة تنبض بالحياة، ولا حديث عن الأخلاق إذا لم تُسندها عقيدة سليمة في التصور والممارسة.

4- لغته الشفافة وبيانه الرفيع، في موضوع الأصل فيه، أن تكون اللغة علمية لا تحفل بجمال الأسلوب، والمفاهيم منتقاة بعناية، بشكل لا يترك مجالا للإبداع والابتكار.

5- عرضه الموضوعي دونما إقصاء للآخر، بل إن من الملاحظات التي سجلناها على المؤلف رحمه الله، مبالغته في التماس العذر للخصوم. وبالقائنا نظرة سريعة على بعض المؤلفات في العقيدة نجدها ملأى بالسبب، بل إنها مراجع حقيقية لمن أراد إحصاء عبارات الشتم والتقريع ومحاكمة الخصوم.

6- منهج التيسير والرفق للذين سلكهما العياشي رحمه الله، في معالجته لقضية لا يزيدها تصلب المواقف إلا اشتعالا وتأزما، وهو الأمر الذي نلحظه بقوة على أرض الواقع المحلي، إذ لم تفلح المعالجات الأمنية في استئصال الفكر التكفيري، وإن خففت من حدته، فالخشية باقية من معاودة ظهوره بأشكال وتلوينات أخرى، كما نلحظه في الواقع العالمي إذ صار رواد هذا الفكر يسوغون دينيا احتجاز الأبرياء، والسطو على ممتلكاتهم، واستباحة أعراضهم، وإزهاق أرواحهم.

7- خصوصيته المغربية وتجذره في التاريخ ومعالجته الموسوعية للموضوع، حيث تجاوز السطحية التي نجدها في الرسائل الكثيرة التي دبجها أصحابها، لبيان كفر طائفة ما أو تبرئتها، أو في تلك الدراسات التي نحت منحنى خاصا بدراستها للجماعات التكفيرية، ببيان الأصول التاريخية والفكرية لتلك الجماعات، والملاحظ على أغلب هاته الدراسات هيمنة نفحة الإقصاء والبعد عن الموضوعية.



## الفكرة الأساسية للكتاب.

يسعى كتاب: "الحكم بالعدل والإنصاف الرافع للخلاف، فيما وقع بين أهل سجلماصة من الخلاف، في من أقر بوحداية الله وجهل بعض ماله من الأوصاف"، كما يبدو من عنوانه، إلى دراسة وتحليل، قضية عقدية شائكة، أدت إلى فتنة عظيمة في عصره، وهي قضية التشدد في الدين وتكفير الناس بعضهم لبعض، دون موجب شرعي تشهد له القرائن وتسندده الحجج. وقد حاول المؤلف رحمه الله إرجاع المسألة محل الخلاف، إلى أصولها في القرآن والسنة، وحشد الأدلة النقلية والعقلية على سلامة العقيدة الإسلامية وبساطتها، وبالتالي تهافت ادعاءات المتشددين والمكفرين للناس بغير حق.

يسجل أبو سالم العياشي في مؤلفه هذا أبرز الصراعات الفكرية التي عرفها عصره، فقد أحدثت دعوة "محمد بن عمر بن أبي محلي" ضجة كبيرة في سجلماصة في القرن الحادي عشر الهجري، حيث دعا العوام إلى: "ضرورة إزالة المنكرات بالعقائد الإيمانية والمعارف الدينية"، وذلك بـ: "إلزامهم التعرف على الصفات الإلهية ومعانيها ومتعلقاتها"، فـ: "من لم يعرف التوحيد على الوجه الذي ذكره" العلامة السنوسي، ومن لم يعرف النفي والإثبات في كلمة الإخلاص، فهو كافر لا يضرب له في الإسلام بنصيب"، بل لقد قام هذا الفقيه بتلقيين مذهبه في العقيدة لـ: طائفته من أصحابه صغارا وكبارا، وأمرهم بإفشائه وتعليمه في الطرقات والأسواق والأندية، وأمرهم أن يسألوا الناس عن معتقداتهم، ويباحثوهم عما أضمرت قلوبهم وأكنته سرائرهم في حق الله وفي صفاته وأسمائه، وفي حق الرسول صلى الله عليه وسلم وما يتعلق بذلك، فمن أخبر بما يوافق الذي عندهم تركوه، ومن قال خلاف ذلك كفروه، وقالوا بفسخ أنكرته وحرمة ذبيحته، وغير ذلك من الأعمال المترتبة على الكفر الصريح، ولم يعذروهم بالجهل في شيء من ذلك، ولا بالخطأ في الجواب، لما بلغ هذا الأمر إلى "أبي سالم العياشي" رحمه الله، استجاب للطلبات الملحة التي أنهضته لكتابة هذا السفر النفيس، إقامة للحجة، وصيانة للدين من التحريف.

## المضامين الكبرى للكتاب.

يمكن تقسيم مضامين الكتاب إلى ثلاثة أبواب رئيسة، خصص أبو سالم الباب الأول منها لعرض مجموعة من المقدمات والفصول التمهيدية، التي يمكن اعتبارها بمنزلة الأسس النظرية، التي تنبني عليها أطروحة الكتاب، في صحة الإقرار بوحداية الله دون الحاجة إلى التعرف التفصيلي على الأسماء والصفات ومتعلقاتهما، مع التركيز على عدم شرعية السؤال عن العقائد، وأن الأحكام الدنيوية يكفي في الحكم بصحتها الأعمال الظاهرة، ولا صلة لهذا الحكم بما يعتقد الإنسان وما يستبطنه من معتقدات وتصورات.

يتحدث العياشي في التمهيد الأول عن الدواعي التي حفزته لتأليف "الحكم بالعدل والإنصاف"، والأسباب التي قوّت عزمته على ذلك، في حين خصص التمهيدات الثلاثة الموالية



للتفصيل والحسم، في حقيقة الإيمان والكفر، معززا موقفه بإيراد مجموعة كبيرة من النصوص الداعمة لموقفه، لدرجة أنه أفرد التمهيد الرابع لسرد مجموعة من النقول عن الغزالي، في حقيقة الكفر والإيمان، من خلال الحديث عن مجموعة من القضايا، من أهمها:

- ✓ حد التكذيب والتصديق وحقيقتهما.
- ✓ قانون التأويل في العقائد وموازين إدراك اليقين فيه.
- ✓ التكفير بين الأصول والفروع.
- ✓ شروط النظر في التكفير.
- ✓ التكفير بين أدلة الشرع وأدلة المتكلمين.
- ✓ التكفير بين العقل والشرع.
- ✓ التكفير والتكفير المتبادل.
- ✓ مراتب التكفير.

ولأن التعرف على العقائد والتعريف بها، مبحث نظري معقد، فقد احتيج فيه لبيان حقيقة العلم والمعرفة والجهل (التمهيد الخامس)، مع توضيح مستفيض لشروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (التمهيد السادس)، ما دام أن المفتش عن عقائد الناس، إنما يُقَدِّم على هذا الأمر، قياما بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يفهمه ويتصوره، فكانت الضرورة مقتضية توضيح ضوابط هذا السلوك، وحدوده الشرعية التي لا يجب أن تُنتهك، مع التنبيه على أهمية الاتصاف بالشروط المرعية، في المتصدي لأمر الدعوة إلى الله تعالى (التمهيد السابع) من رفق وحلم، ومراعاة لمقتضيات الواقع وفقهه، واعتبار المتغيرات الظروف والأحوال.

أما الباب الثاني، وهو واسطة عقد الكتاب وجوهره، فإنه يتكون من مطالب أربعة، خُصِّصت كلها لمداخلة مجموعة من القضايا غاية في الأهمية، وقد قدمها العياشي بشكل رُوِّي فيه التسلسل المنطقي بين المطالب، واحترُم فيه الترابط المعنوي بين الأفكار، التي تتقوى تدريجيا، مع تنامي المطارحات النظرية العميقة، والمساجلات الكلامية البديعة، وتتكامل في المقصد والغاية، التي أعمل العياشي جهده لبيانها، خلال المطالب الأربعة، التي افتتحت ببيان حكم الكشف عن عقائد العوام والبحث عنها (المطلب الأول)، من خلال استعراضٍ شافٍ لأدلة تحريم السؤال عن العقائد من القرآن والسنة وأقوال العلماء، ثم تعزز هذا المطلب بمداخلة الفكرة المحورية لعنوان الكتاب، المتعلقة بحكم الجهل ببعض صفات الله تعالى من غير جحود، مع التصديق والانقياد للإسلام (المطلب الثاني).

ورغبة منه في إزالة كل لبس يرتبط بهذا الموضوع، أفرد العياشي (المطلب الثالث) لتفنيد ومناقشة الفكرة التي ترى أن الغالب على العوام الكفر، وبالتالي تحكم بكفرهم حتى يظهر العكس،

وبعد أن بين أبو سالم خطأ هذا الموقف، وأن الأصل فيه الحكم بإيمان العوام حتى يظهر العكس، وبالتالي فصحة الأحكام الدنيوية مرتبطة بالتصرفات الظاهرة والمواقف البادية للعيان (المطلب الرابع)، أما السرائر فأمرها موكل إلى بارئها ومُنشئها سبحانه.

واستكمالا للأبواب السابقة، جاء (الباب الثالث) من الكتاب على شكل فصول وملحقات ختامية، ليتم الصورة ويجلي موقف أبي سالم، من مجموعة من القضايا ذات الصلة بموضوع الكتاب، بدءا بالتذكير بمجموعة من الوصايا الجامعة على لسان كل من الشيخ "الغزالي" رحمه الله (الفصل الأول)، والشعراني رضي الله عنه (الفصل الرابع)، أما (الفصل الثاني) من هذا الباب، فقد جاء تلميحا لما ورد في التمهيد الأول من الباب الأول، حول منهج تأليف كتاب "الحكم بالعدل والإنصاف" وسببه، مع الكشف عن منهجية المؤلف في تعليم العقائد (الفصل الثالث) وذكر المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في تصنيف وتبويب هذا السفر، الذي خُتم بـ (فصل خامس)، انتخب فيه العياشي رحمه الله أربعين حديثا نبويا شريفا: "في الاكتفاء في حصول أصل الإيمان بالشهادتين، والانقياد للإسلام مع الأعمال الظاهرة، دون بحث عن تفصيل العقائد، وفي إناطة أحكام الدين بقول "لا إله إلا الله" أو بظاهر الإسلام.

## تجليات الوسطية ونبذ التطرف في الكتاب.

من نافلة القول، الإشارة إلى أن تلخيصا كالذي أنا بصده، غير قادر على استعراض وبيان كل النتائج العلمية التي توصلت إليها الدراسة، لذلك سأكتفي بالإشارة إلى بعضها، على أن الرجوع إلى متن التحقيق والدراسة، يبقى ضروريا لكل من يروم التعرف أكثر على قضية التكفير والكيفيات العلمية والعملية لمواجهتها.

### أولا: موقف أبي سالم العياشي من التشدد في الدين وتبعية عقائد الناس.

يفاجأ القارئ لكتاب "الحكم بالعدل والإنصاف" بالإصرار الغريب الذي يلقي فيه أبا سالم العياشي رحمه الله بحجة عن النصوص، ملتصقا بالمخارج جميعها للقول بعدم التكفير، والبحث المستميت عن النصوص والأقوال التي تحارب التشدد، وتنصر اللين والرفق، وهو يتمثل في كل ذلك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي يرويه عنه ابن عباس رضي الله عنه، قال: "إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين".

إن أبا سالم يصدر في كتابه هذا عن نفسية من يود أن لو هدى الله العباد جميعا: "ويفرح كلما وجد نصا أو كلاما إمام، يدل على عدم كفرهم، ويلتمس لهم أحسن المعاذر، ويعتمد قول من يقول من الأئمة بعدم التكفير لأنه أيسر وأبعد من الإثم، وما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما"، ومن تمام اليسر تقديم الرفق على كل شيء، والدوران معه حيث



دار، فالرفق ما كان في شيء إلا زانه وما فقد من شيء إلا شانه؛ إنه في التعليم معالجة للأذى ودفع له بلطف؛ لذلك كان هو منهج الأنبياء الذين ما كانت: "دعوتهم وأصل إرشادهم إلا باللطف والرفق والقول اللين والمخاطبة التي لا تنبوعها الطباع، ولا يتجاوزون مرتبة من الرفق إلى ما دونها إلا عند عدم إفادتها بعد استعمالها مرارا".

من جهة أخرى، يتنبه أبو سالم إلى إمكانية وقوع التباس لمن يقرأ كتاب "الحكم بالعدل والإنصاف"، لما يجد فيه من شدة في الخطاب وإغلاظ في القول، وصلت إلى حد التحريض وإعلان الجهاد في حق المكفرين، ولا يخفى ما في ذلك من تناقض صريح مع كلامه عن الرفق، ودعوته المُلحَاحَة للتيسير على الناس والتخفيف عنهم. لذلك يسارع أبو سالم إلى إزالة هذا اللبس، فيقول: "إني بحمد الله لم أدع طريقا تيسر لي سلوكه من الرفق إلا سلكته، ولم يتعرض لي فحش وإقذاع في الخطاب إلا ملت عنه وتركته على قدر طاقتي ووسعي ومبلغ علمي في ذلك ومقتضى طبعي، وما يوجد في الكلام مما يثقل على سمع المخاطب بلا قصد المواجهة لخلوه عن التأدب في المراجعة، فذلك شيء ساق إليه سَوْقُ الحجاج وإيراد البراهين على إبطال قول الخصم في ميادين المناظرة، على إظهار الحق لا على سبيل اللجاج".

يفهم من كلام العياشي، رحمه الله، أن عهده مع الرفق لم يتغير، حتى في أشد اللحظات غضبا وثورة، بل إن إعلانه للحرب على المكفرين رفق في حد ذاته، أي رفق بالأمة وبالناس الذين يتلظون بنار التكفير وشرورها، وهو رفق أيضا بالمكفرين، عساهم يؤوبون إلى الصواب، ويعودون إلى الرشد، والعود أحمد وأسلم.

إن مراهنه أبي سالم على الرفق دائمة، لا تقف في طريقها عقبات ولا منعرجات، ومن ثمة فإنه يعتبر كتاب "الحكم بالعدل والإنصاف"، دعوة دائمة ومفتوحة للرفق واللطف، وتصديّ معلن ضد المتشددین والغالين في الدين، يقول رحمه الله: "وإني لأرجو بفضل الله أن تكون هذه الرسالة موعظة من الله تعالى على لسان فقير من عباده ممن دعا بلطف ورفق إلى حقٍّ من تعلُّم ما يجب عليه في حق الله تعالى وفي حق رسله عليهم الصلاة والسلام، وللداعي أيضا أن يتلطف ما استطاع، ويدعو برفق وتواضع، ويخاطب الناس بما يفهمون، ويعامل كل أحد على قدر عقله، ولا يكلف العوام بعقائد الأكابر، وفي مثل هذا سمعت كثيرا شيخنا يقول: "ليس بعاقل من يريد أن يحمل على القط جملَ الجمل"، فكيف يُحمل العامة على فهم دقائق متعلقات الصفات، وكيف يلزمون بالجواب عن أسئلة عويصة لم يتقدم لهم قط سماعها؟".

## ثانيا: أدلة سلامة عقائد العامة عند أبي سالم العياشي.

يرى أبو سالم العياشي، أن عقائد عامة المسلمين صحيحة، ويقدم بين يدي حكمه هذا مجموعة من الأدلة المسنودة بحجاج علمي وازن، وهاته الأدلة هي كالاتي:



- صعوبة وجود من يبني إيمانه من العوام على التقليد من غير دليل.
- حكم الأشعري بسلامة معتقد العوام قبل وفاته رحمه الله.
- شهادة الواقع والتجربة والمعينة.
- الأصل سلامة بواطن العوام، والدليل لسان الحال لا لسان المقال.
- معرفة الله وتمييزه، ضرورة عقلية حتى عند العوام.
- العوام جاهلون بالعقائد، غير جاحدين لها.
- عدم قدرة العوام على الإبانة عما في وجدانهم أكثر من عدم قدرة الصوفية على ذلك، فلم محاسبتهم إذن.
- عدم وجود مصدر خارجي يؤدي إلى انحراف عقيدة عوام المغرب في القرن الحادي عشر الهجري.

### ثالثاً: مخاطر التكفير وصفات المكفرين عند أبي سالم العياشي.

إيماننا من أبي سالم العياشي، بخطورة الموضوع الذي يتناوله بالدراسة والتحليل، عمل التفصيل في كل الجزئيات المرتبطة به، ومن هاته الجزئيات، بيان مخاطر التكفير وتعرية نفسيات المكفرين:

#### أ- مخاطر التكفير

ونجملها مع أبي سالم في:

- ✓ إثارة الفتن وتفرقة جماعة المسلمين.
- ✓ التشويش على المسلمين وإثارة الشرور بينهم.
- ✓ الخطأ في الحكم بالتكفير أرجح من الصواب فيه.
- ✓ إثارة الأحقاد والبغضاء بين الناس.
- ✓ الاشتغال بتكفير الناس علامة لخدلان الله، وتنكيس للقلب وإفراغ له من خشية الله.

#### ب - صفات المكفرين

وهي عند أبي سالم كالآتي:

الصفات المرتبطة بالجانب العلمي:

## دعوة الحق

➤ الجهل وعدم فقه الدين والحرفية في التعامل مع نصوصه.

➤ التعامل.

➤ المجازفة والتعسف وعدم الاحتياط في الدين.

الصفات المرتبطة بالجانب النفسي:

➤ الاستبداد بالإيمان وحب الرئاسة.

➤ الرغبة في تنقيص الناس والشهوة في تكفيرهم.

➤ التعصب والمبالغة واتباع الهوى وحفظ النفس.

الصفات المرتبطة بالجانب المنهجي:

➤ التنكب عن منهج الدعاة إلى الله تعالى.

➤ الإخلال بشروط الحسبة والتجسس على الناس وتتبع عوراتهم.

➤ التشدد والجهل بأنجع طرق تلقين العقائد وتعليمها.

➤ خلط الأولويات.

➤ هيمنة التوهم وتعميمه "أو" عدم الفصل بين الذات والموضوع".

الصفات المرتبطة بالجانب الوظيفي:

➤ ترك الواجب الشرعي في تنبيه العوام ووعظهم قبل المسارعة إلى تكفيرهم.

➤ مخالفة المنهج النبوي في تعليم الإيمان وتلقيه.

الصفات المرتبطة بالجانب العقدي:

➤ التنطع في الدين واستسهال أمر التكفير.

➤ الفتانون.

➤ معصية الله.

➤ الخوارج الجدد.

### رابعاً: قواعد التكفير عند أبي سالم العياشي.

كان كل همّ أبي سالم العياشي رحمه الله في الكتاب، أن يتوصل إلى تحديد مجموعة من القواعد الضابطة لقضية التكفير، لأنها وحدها الكافية في منع الانزلاقات المؤدية إلى التشدد، وهاته القواعد هي كالآتي:

- ✓ التكفير حكم شرعي.
- ✓ الاختلاف في العقائد واسع، فلا موجب للتضييق.
- ✓ ليس كل ما خالف فيه المعتزلة أهل السنة باطل.
- ✓ الاختلاف المشهور بين أهل السنة في العقائد غير مؤثر.
- ✓ لا يجوز الإنكار على من قال بقول إمام مشهور من أئمة السنة.
- ✓ من كفر مسلماً مع معرفته بحاله فهو كافر.
- ✓ لا يكفر بإنكار متواتر ليس من أصل الدين.
- ✓ الخطأ في التأويل لا يوجب التكفير.
- ✓ لا تكفير في المختلف فيه.
- ✓ لا تكفير في الفروع أصلاً.
- ✓ الاحتراز من التكفير واجب.
- ✓ الأصل ترك الناس على ظاهر تعبدهم دون تفتيش عن السرائر.
- ✓ ترك الحكم بالتكفير لأهله وللمن لهم إذن خاص بذلك.
- ✓ لا تكفير إلا بعدم التصديق.
- ✓ لا تكفير لغير المكذب وإن جهل، أو توقف، أو تردد.
- ✓ لا تكفير إلا بإنكار المعلوم من الدين بالضرورة.
- ✓ لا حكم بالتكفير إلا على من أقر على نفسه بالكفر.

إن المطلع على الحجج التي ساقها العياشي على لسانه أو على لسان غيره من العلماء، تبين حقيقة مهمة بذل العياشي جهده في تحقيقها، وهي المتعلقة بتوسيع كل مخرج، أو قول، أو تبرير، أو رأي، يقول بعدم التكفير، وبالمقابل الاجتهاد في تضييق كل ما يؤدي إلى القول بتكفير المسلمين.

إننا أمام جهد علمي مميز، يحاصر كل التأويلات والآراء التي تراقب عقائد الناس وتتجسس على تصوراتهم المرتبطة بذات الله تعالى، وبالغيب وبكل القضايا المدروسة تحت عنوان التوحيد في كتب المتكلمين بالأصالة، وفي كتب غيرهم بالتبعية، للوصول إلى تقرير القواعد التسعة التي بينها أعلاه، والتي من شأنها لو طبقت وفعلت في واقع الناس وحياتهم، أن تحقن دماء كثيرة، تزهق هنا وهناك بحكم تكفيري طائش، لا يلقي بالا لضوابط الشرع، ولا يقيم لنفس الإنسان حرمة ولا اعتباراً.

## خامساً: أساليب الاستدلال على المسائل العلمية في الكتاب.

وجب التنبيه إلى أن أبا سالم العياشي، لم يتوصل إلى استخلاص القواعد السابقة، إلا بعد مجهود علمي عميق، يكشف عن نباهته وخبرته، وقد اجتهدت من خلال الدراسة العميقة لمتن



"الحكم بالعدل والإنصاف"، أن أبين الأساليب العلمية التي استعملها أبو سالم للاستدلال على المسائل العلمية، والطرق التي وظفها في مواجهة خصومه، وهاته الأساليب هي اختصارا كالاتي:

- ✓ تدقيق المسائل العلمية ودراستها بتأن وروية.
- ✓ غريبة الأقوال وانتخالها وعدم التسليم بها دون تمحيص.
- ✓ محاصرة المكفرين بترسانة من الشروط لا تتوفر فيهم.
- ✓ كشف المغالطات المنهجية للمكفرين.
- ✓ الإحالة على المنهاج النبوي ومنهج السلف وعلماء الأمة في العقائد.
- ✓ توظيف الأدلة الأصولية وإعمالها في الإقناع والمحااجة.
- ✓ توظيف القواعد الفقهية ومعرفة ما يترتب عليها من أحكام.
- ✓ الاهتمام ببيان دلالة المفاهيم والمصطلحات.
- ✓ التعميم واستقصاء عادات الناس وما اشتهر عندهم.
- ✓ المقارنات والمقاربات الذكية التي لا يمكن لمن اقترحت عليه إلا أن ينصاع لمضمونها.
- ✓ العرض الشيق للأفكار وربط السابق باللاحق.
- ✓ التكرار المقصود والبيان المتعدد بقصد الإقناع والبلاغ.

### سادسا: مكونات المنهج التربوي في تعليم العقائد عند أبي سالم العياشي.

اهتم أبو سالم العياشي كثيرا بضرورة الانتباه إلى مسألة يغفلها كثير من المهتمين بقضايا التشدد والتكفير، وهي أن من أهم طرق معالجة هاته الآفة واستئصالها، الانتباه إلى الكيفيات التي نعلم بها أبناءنا العقائد منذ الصغر، ويقترح أبو سالم في هذا الصدد، مجموعة من المعالم التربوية، نختصرها كالاتي:

- ✓ تنوع الطرائق والأساليب التعليمية.
- ✓ التدرج.
- ✓ التعليم بصغار العلم قبل كباره.
- ✓ بناء الفروع على الأصول.
- ✓ توظيف الحكايات في التعليم واستثمارها في بناء المعارف وشرحها.
- ✓ مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين.
- ✓ المزاوجة بين الترغيب والترهيب.

هاهنا وقفة لا بد منها، وهي المتعلقة بضرورة الربط بين العقيدة والأخلاق، إذ لا معنى لسلامة عقيدة فردٍ بذية الأخلاق، جافٍ العواطف، يابسٍ المشاعر، يفقه جزئيات العقائد، لكنه عند الخصام يفجّر، وعند الغضب يفور، وفي الشدائد لا يلوي على شيء، إنما هو كسائر الناس، يثور

لأتفه الأسباب، وقيم الدنيا لأبسط حدث. لذلك نعود لنؤكد من جهتنا، أنه أضحي لازماً ربط العقيدة بالأخلاق، في مناهجنا التعليمية، مع التنصيص على الحفاظ على هذا الربط في كل المراجع والكتب والأدبيات التي تتناول مواضيع العقيدة، مهما كانت درجتها، وكيفما كانت طريقة معالجتها وتناولها لموضوع العقيدة؛ فما نتلظى به اليوم من نار التكفير المتفشية بين ظهرانينا، وسيادة مظاهر الجفاء والفظاظة في سلوك شباب، لا يعرف من العقيدة إلا تقصير الثياب، ومضغ السواك، ومحاكمة الناس، وممارسة الرقابة والوصاية على تصرفاتهم ومواقفهم وأقوالهم؛ إن كل تلك السلوكات المنحرفة عن جادة السنة والمخالفة لروح الشرع ومقاصده، راجعة في نظرنا إلى هذا الفصام النكد بين العقيدة والأخلاق، والفصل القسري بين مكونين أراد الله أن يكونا متلازمين، والتفرقة بين أصلين أراد الخالق أن يكونا متحدين؛ فتدخلت أفهام قاصرة وتصورات فاسدة، فحورت المسار، ولوت النصوص، فَتَعَرَّجَنَ التدين في النفوس، وضمرت جذوته في السلوك والمعاملات، فكانت النتيجة ما نراه من جمود في الانفعالات، وتكلس في المشاعر، التي أراد الله أن تكون دائمة التوهج، دائمة النبضان، وهذا لن يتحقق إلا بالأوبة الحميدة إلى ربط العقيدة بالأخلاق، ربطاً يتماهيان فيه، ويكمل الواحد منهما الآخر؛ فحيثما وجدنا عقيدة سليمة، وجدنا سلوكاً قويمًا ومعاملات فاضلة، مع رقة في المشاعر، ورهافة في الحس، وحيثما وجدنا البذاء والفظاظة، قلنا: اربطوا ثلم العقيدة وخرومها، فمن هاتيك الثلم، وهذه الخروم، أتى السَّيْل.

أختم مقالي هذه بذكر توصية تتساق في مقاصد أبي سالم ومقاصدي من اختيار "الحكم بالعدل والإنصاف" لتقديمه بين ظهرانيناكم في هذا العدد المبارك، وتعكس نموذجاً سلوكياً للعقيدة التي يدعو إليها رحمه الله؛ وهي دعوة الناس، كل الناس، العام منهم والخاص، للتأمل في قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعْتَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرَبِّكُمْ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾، حتى يبقى الرجاء في الله ممدوداً، والوفاء لنبيه موصولاً، فقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم في هاته الآية: "بالتبري من أعمالهم إن عصوا ولم يأمره بالتبري منهم، ولو تبرأ منهم لهلكوا هلاك الأبد. وقد ذكر الأئمة رضي الله تعالى عنهم أقوالاً كثيرة في أرجى آية في القرآن الكريم، ولم أر منهم من ذكر هذه الآية، وهي عندي أرجى آية؛ لأن الله تعالى لم يأذن لنبيه أن يتبرأ ممن عصاه ولو بلغ في العصيان ما عسى أن يبلغ، وذلك دليل على أن الوصلة بينه وبين الله باقية والنسبة صحيحة، وأي رجاء في الله وفي رسوله أقوى من هذا؟". لا رجاء أقوى، إلا رجاءنا الصادق في أن يعصمنا الله وبلدنا من فتنة التكفير وشرورها، ويقبل منا هذا العمل الذي نقدمه عربونا لتوحيدنا لله، ودليل صدق على تنزيها له عن كل النقائص، جل الله و"لا إله إلا الله، محمد رسول الله".

## المدرسة الأشعرية: عقيدة الإسلام عند القساوسة:

ريموند لول نموذجاً

نيقولاس روزير نبوت

عبد الله بن الخباز الميورقي المالقي

جامعة مالقة مملكة إسبانيا

### نفوذ الإسلام في اليهودية والمسيحية:

يعتقد الكثير في الغرب، وكذلك في الشرق، وأقصد بهما الغرب الحضاري والشرق الحضاري، أن التوالي الزماني في الوحي عبر العصور والأنبياء يأتي بأقدمية الأفكار والعقائد المتواجدة في الديانات المتبقية من ذلك الوحي بما فيه الدين الإسلامي. وعلى ذلك فإن هناك من يعتقد أن العقائد والطقوس اليهودية أقدم من الطقوس المسيحية، وأن عقائد المسيحية وطقوسها أقدم من شعائر الإسلام وعقائده. وليس الأمر هكذا: أولاً لما شرح القرآن الكريم، وهو الوحي الأخير غير المبدل ولا المحرف، بوعده والتزام من الله يحفظ الدين الإسلامي مما أَلَمَّ بالديانتين السابقتين من تبديل وتحريف، إذ يقول في محكم التنزيل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾<sup>1</sup>. وفي هذه الآية لا يعني الذكر الوحي أو القرآن المحتوي له، بل كذلك التذكير بما في الوحي السابق وذكر ما حصل بذلك الوحي الأول بمختلف الأزمنة والأمكنة والرسل قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - وبما تعرض له من بدع وتغييرات على أيدي عقول البشر وأهوائهم. وثانياً بما شهد له التاريخ من عدم التغير من العقائد والشعائر، بما في ذلك نصوص القرآن الإسلامية منذ أكثر من أربعة عشر قرناً. ولقد أخبرنا القرآن في الوقت نفسه كذلك أن الإسلام جاء لتصحيح العقائد والشعائر التي تأثرت بالميل النفسية عند أتباع الديانات السابقة للإسلام أي لنسخ ما أنزل قبل الوحي الإسلامي الذي جعله الله مهيمناً على ما سواه، كما أشار إلى ذلك في التنزيل بقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُعِظِمًا عَلَيْهِ﴾<sup>2</sup>. والوحي الإسلامي هو القرآن والسنة النبوية. ومعنى ذلك أن عقائد الإسلام وشرائعه هي المرجع الوحيد لتقييم ما تبقى من الوحي السابق سواء أكان الأمر في العقيدة أم في العبادة أم في العرف. فما اتفق مع الإسلام قدّر صحيحاً، وما اختلف عنه رُدَّ إلى أصحابه. هذا ما كنا نعرفه من

1- سورة الحجر، الآية: 9.

2- سورة المائدة، الآية: 50.



قراءة آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في الموضوع، ولكن الذي ما كنا نعرف وكشفه لنا التاريخ، وعلى وجه الخصوص، دراسة التاريخ، أن هيمنة القرآن والإسلام لم تكن على ما قبله من الديانات والأفكار الدينية والتصورات الروحانية فحسب، كما ورد في القرآن الكريم: «أمر أنخذلوا من دونه آلهة فلهاثوا زهناكم هذا كرم من معي وكرم من قبله بل أكثرهم لا يعلمون الحق ففهم معرضون»<sup>1</sup>، ولكن أيضا لما جاء بعده سواء كان في اليهودية أم المسيحية أم ديانات وأنظمة فكرية دينية أو غير دينية طرأت على الإنسانية بعد ظهور الإسلام وأمكنهم الظروف المحيطة بها الاطلاع على معتقدات وتصورات الإسلام والاستلها من، ولو أنكروا ذلك، ففي هذا الصدد قال المحتسب المرباطي في إشبيلية ابن عبدون (محمد بن أحمد التجيبي) في النصف الأول للقرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي:

"يجب ألا يباع من اليهود ولا من النصارى كتاب علم إلا ما كان من شريعتهم، فإنهم يترجمون كتب العلوم وينسبونها إلى أهلهم وأساقفتهم وهي من تواليف المسلمين" في القضاء والحسبة"

ولذلك فإن اليهودية والمسيحية اللتين نجدهما الآن بين أيدينا ليستا اليهودية والمسيحية اللتين كانتا قبل بعثة محمد كما ليستا اليهودية والمسيحية اللتين كانتا في نزول الوحي على موسى وعلى عيسى عليهما السلام. ومن ضمن ما أثر به الإسلام على هاتين الديانتين هو المعتقدات ووصفها وترتيبها على الغرار الإسلامي، وقد تعلمنا هذا من علماء الإسلام وعلى رأسهم أبو الحسن الأشعري. فالقسيسون بين النصارى هم العلماء المتعبدون منهم، وليسوا مجرد الخوريين وأطلق عليهم اسم القسيس أو القس لأنهم بحثوا عن أدلة معتقدات دينهم واتبعوها للوصول إلى كنه المعرفة فيها على حسب قدراتهم. وليس القسيسون أو القساوسة من يؤمنون النصارى في القداس أو من يخدمونهم في الكنائس، فإن هؤلاء هم الخوريون أو الخوارنة وكلا اللفظين جمع خوري ومنهم القسيس ومنهم دون ذلك.

ولا تقتصر هيمنة القرآن الكريم على الكتب المنزلة قبله في تنقيحها من التحريف والتبديل بل لتسع التدبر والتأمل في أسباب هذا التبديل وذلك التحريف والاتعاظ بهما والعمل على استنتاجات دينك التدبر والتأمل فيكرر الله هذا البعد من الوحي الإسلامي الذي هو بعثة محمد صلى الله عليه وسلم برمتها في سورة القمر حين ينبه بقوله عز وجل: «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ»<sup>2</sup>. وعلاوة على ذلك فإن معرفة تاريخ ما سبق الإسلام من الأمم وما طلع منها بعده، وخصوصا ما كان من أمر

1- سورة الأنبياء، الآية: 24.

2- سورة القمر، الآية: 32.

الدين فيها، مسؤولية كل من حمل الرسالة المحمدية من مسلم و مسلمة، حاكما كان أو محكوما، يقول الله جل شأنه في هذا المقام: ﴿وَأَنَّهُ لَئِكَرْلَا وَلَقَوْمًا وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾<sup>1</sup>. وهذه المسؤولية لا تقف في حدود الأمة الإسلامية وحضارتها بل تنتقل إلى ما وراءهما. فالقران والدين الإسلامي مرجع للإنسانية كلها وليس للمسلمين فحسب. وما استنبط المسلمون من وحيم بعد تأمله وتدبره هو حصاد للناس كافة وعلى ذلك يقول رب العزة: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا لَئِكَرْلَا لَعَالَمِينَ﴾<sup>2</sup>، وكذلك ﴿إِن هُوَ إِلَّا لَئِكَرْلَا لَعَالَمِينَ﴾<sup>3</sup>.

## القساوسة والأشعري:

اطلع النصارى على عقيدة الإسلام في وقت تقوت فيه الدول المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية وشمال البحر المتوسط على الدول الإسلامية في الأندلس وجنوب البحر المتوسط في القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري. وذلك ضمن حركة التبشير الرامية إلى تنصير المسلمين المتبقين في الأندلس وفي الممالك المسيحية في إيبيريا والمتواجدين في شمال إفريقيا. فحاول القساوسة معرفة العقيدة الإسلامية لبيان الفرق بينها وبين العقيدة المسيحية للاستفادة من المشترك بينهما وإيجاد طريقة لتجاوز الفوارق بقصد إقناع المسلمين بأفضلية الدين المسيحي على الإسلامي بزعمهم. وقد انبثقت تلك الفكرة عند القساوسة بعد التأثر بالفلسفة الإسلامية التي فرضت على من تثقف منهم الاحتجاج بالأدلة العقلية لقبول العقيدة المسيحية. فإن المسيحية دين معتمد على العاطفة والجوانب الروحانية للدين والإنسان أكثر مما هو متمسك بالأحكام الشرعية التي، بطبيعة الحال، هي قائمة على الفهم والإدراك أكثر مما هي على الوجدان. واكتشفوا أن الدين الإسلامي، على عكس ما كان عليه الدين المسيحي في تلك الأيام وحتى القرن السادس عشر الميلادي/ العاشر الهجري، وإلى ما بعد الثورة الفرنسية في عام 1789م، كانت عقيدة منظمة ومدعمة بالأدلة العقلية التي هي عينها أساس الإيمان بالإسلام، فالإسلام دين تكليف ولا يجوز التكليف إلا لعقل يزن ويقيس كل شيء بعقله، ومن لا عقل له فهو غير مكلف. ومن هذا فهو غير مسؤول عن سيرته وأعماله. فإذا كان المكلف ذا عقل بالضرورة فلا بد من براهين عقلية تقنعه لاعتناق الدين الصحيح وهو الإسلام. وحينما بحث القساوسة عن العقيدة الإسلامية وجدوها معقولة مستندة إلى الأدلة الشرعية ومنظمة على طراز مسائل الفلسفة الإسلامية وغير الإسلامية كما عرفها القساوسة إثر تأثير الفلسفة الإسلامية فيهم أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد. وأهم من نظم ذلك التنظيم وأقامه عالم جليل هو أبو الحسن الأشعري (260-324 هـ/ 874-936 م) شيخ الإسلام في العقيدة منذ زمانه إلى اليوم.

1- سورة الزخرف، الآية: 43.

2- سورة القلم، الآية: 52.

3- سورة التكوين، الآية: 27.



وحين عزم القساوسة على تنصير المسلمين لأغراض سياسية وليست دينية ولا روحانية واطلعوا على عقيدتهم بغية الرد على مقوماتها وإظهار فسادها، وجدوا أن هذه العقيدة هي العقيدة التي دونها الإمام الأشعري وشاعت بين المسلمين واتخذتها الأمة عقيدة رسمية على اعتدالها وإنصافها للمخلوق، لكن القساوسة لم يعلموا أن الأشعري هو واضع العقيدة الإسلامية على الشكل الذي عرفوها فإنهم علموا فقط أنها عقيدة الإسلام والمسلمين واستعدوا للرد عليها. وذلك في نهاية المطاف، اعتراف ضمني وفعلي وخارجي بأن عقيدة الإسلام هي العقيدة الأشعرية. وقد برز في الاطلاع عليها والكتابة عنها لدحضها عند النصارى والمسلمين القسيس الميورقي ريموند لول الذي كرس حياته لتنصير المسلمين بالخطاب والأدلة العقلية المعتمدة على عقيدة الإسلام التي تعلمها وهي عقيدة الأشعري.

إن القساوسة في العربية هم العلماء من النصارى، وبهذا المعنى وبلطف قسيسين ورد ذكرهم في القرآن الكريم: ﴿عَلِمَ بَأَنَّ مَنَظْمَ قَسِيْمِيْنَ وَرَقِيْلًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُوْنَ﴾<sup>(1)</sup> وهو الموضوع الوحيد الذي ذكر فيه القرآن النصارى بهذا اللفظ وعلى هذه الصفة.

ولقد مثل الأشعري العامل الثاني في تكوين العقيدة المسيحية على أسس عقلانية بعد أفكار الفلاسفة المسلمين فنحن هنا نرى بعد ما استفاد من العقيدة الأشعرية قسيس مسيحي من جزيرة ميورقة الذي كرس حياته في الرهبانية لتنصير المسلمين أخذاً ببعض نقاط عقيدة الإسلام.

ودراسة قساوسة العصر الوسيط الأوربي عقيدة الأشعري بصفتها العقيدة الإسلامية الوحيدة دليل على تبني الأمة هذه العقيدة بسبب كونها عقيدة أهل السنة والجماعة المستنبطة من عقيدة السلف الصالح والتي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يقول: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة والباقون هلكى قيل: ومن الناجية؟ قال: أهل السنة والجماعة. قيل: وما السنة والجماعة؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي»<sup>(2)</sup>.

وتسمية الأشعرية المسلمين جميعاً، على اختلاف مذاهبهم وفرقهم الإسلامية دليل على قوة إدراك عظمة الإسلام والروح الكبيرة الموجودة لدى الأشعري، كما هو واضح في عنوان كتابه المشهور مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين الذي يرمز إلى أن كل من نطق بالشهادتين وعمل عليهما مسلم ولو اختلفوا في الأمور الجانبية أو الثانوية. وهذا الاعتقاد يوضح توازن ووسطية الإسلام في جميع أحكامه.

1- سورة المائدة، الآية: 84

2- رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد.



يقول الإمام تاج الدين السبكي بهذا الصدد في طبقات الشافعية الكبرى: «اعلم أن أبا الحسن لم يبدع رأياً ولم ينشئ مذهباً، وإنما هو مقرر لمذاهب السلف مناضل عما كانت عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقد على طريق السلف نطاقاً وتمسكاً به، وأقام الحجج والبراهين عليه فصار المقتدى به في ذلك، السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعرياً»<sup>1</sup>.

ومن أهم ما جاء به أبو الحسن الأشعري هو رسم حدود العقل في تقدير مسائل الدين فإنه بالرغم من أن التكليف قائم به فإن الشريعة قائمة بالعقل وبما يفوقه ولا يدركه من النفع والضرر في الطبيعة وما وراءها من البعد الروحي للإنسان. وجميل أن علمه عبارة عن نضج عقلية وعقيدة المعتزلة وإرجاعها إلى صواب وسطية الإسلام في الأمور كلها. وعلى ذلك يقول ناشر كتاب مقالات الإسلاميين (أسطفان فيلد وأولريش هارمان): «ومن هذا القبيل [أي من تهذيب مؤلفات من سبقهم] كتب الشيخ أبي الحسن على بن إسماعيل الأشعري مع شهرته وعظم مكانته في تاريخ علم الكلام إذ كان هو مؤسس كلام أهل السنة وأول من استعمل طريقة المتكلمين من البحث والمناظرة والاستدلال العقلي لنصرة مذهب أهل الحديث»<sup>2</sup>.

ومن محاسن الأشعري في تناوله قضايا الإسلام، عبارة لطيفة يستخدمها وهي السمع للإشارة إلى القرآن والوحي بخلاف المعقول الناتج عن مجرد إعمال العقل بإطلاق عنانه دون هداية ولا رشد<sup>3</sup>.

ومن نتائج تدبره الدقيق في مسائل الإسلام تحسين حسن الظن بالله، وأن عدله ليس كعدل الإنسان القائم على المنافع والمضارب على حبه للإنسان خلقه المفضل، وعلى ذلك يتجاوز عن ذنوب البشر ولو بلغت السماء العليا. ومن أجل ذلك يجزي الله المظلوم حتى ينقذ الظالم من العذاب بمغفرته وسماحة المظلوم. وهذه فكرة رائعة يطمئن القلب والعقل إليها فإنها عين العدالة المطلقة: «وأصل التكليف لم يكن واجبا على الله تعالى، إذ لم يرجع إليه نفع ولا اندفع به عن ضرر. وهو قادر على مجازاة العبيد ثوابا وعقابا وقادر على الإفضال عليهم ابتداء، تكرما وتفضلا. والثواب والنعيم واللطف كله منه فضل والعقاب والعذاب كله عدل: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾»<sup>4 5</sup>.

1- طبقات الشافعية الكبرى: ج 3، ص 365.

2- مقالات الإسلاميين مقدمة الناشر.

3- الملل والنحل: ص 65 و 66 و 67.

4- سورة الأنبياء، الآية: 23.

5- الملل والنحل: ص 66.

وحيثما أدرك الأشعري أن الوسطية هي ميزان الإسلام لشؤون الإنسان ونظم مسائل الإيمان مستندا إليها، فقد منح المسلمين طريقة فعالة لتطوير فكرهم ضمن إطار الشريعة ومقاصدها وذلك على اختلاف عقولهم ودرجة نضجها، حاقنا لهم الكثير من الدماء التي أريقَت قبله في الإسلام، بسبب انعدام الفهم الصحيح المتزن لجوهر الإسلام وأهدافه أو الاجتهاد الخاطئ، وموفرا عليهم العديد من الكوارث التي أصابت الديانات الأخرى مثل المسيحية التي عرفت قرونا طويلة من الحروب الدينية التي انتهت فقط بتبني أفكار وقيم الثورة الفرنسية عام 1789م التي اتسمت بصبغة علمانية، والتي في الحقيقة تبنت الكثير من المبادئ الإسلامية في المعاملة الاجتماعية والسياسية بعلم من الأوروبيين أو بغير علم منهم. وهذه المبادئ الإسلامية التي استوعبتها الثورة الفرنسية؛ لأنها وليدة فكرة التنوير هي التي رسخها الإمام الأشعري بفهمه الواسع لقضية الاختلاف داخل جماعة دينية معينة، وهم المسلمون عندما رحَّب ودقق صفة المؤمن في الإسلام بأوسع حدود ممكنة ليس تحكما منه من نفسه وميوله، بل واعيا تمام الوعي بفساحة الإسلام وعقيدته في علاجهما لفؤاد الإنسان وعقله بالتسامح أو بالأحرى رحابة الصدر وتنزيل الخلاف في الموضع الأقرب بين الخصمين وتفسير موقف الآخر بحسن الظن عن نيته وفرض النظرة إلى المخالف على أنه الخصم وليس العدو وأن الاختلاف والاعتراض لا يفسد كينونة المسلم مسلما ومؤمنا مهما ما خرق من حرمت، اللهم إلا إذا أنكر مسألة جوهرية من مسائل العقيدة، فباستثناء هذه الحالة وفي سائر الحالات الأخرى من تعدي حدود الله فإن المسلم المرتكب الجريمة لا ينخلع من الإسلام إيماناً ولكن يقام عليه الحد والتعزير الملائم لجريمته فهو محكوم بالجريمة لا محكوم بفساد إيمانه ولو كان في ارتكاب الجريمة على تنوعها نقص في إيمانه.

## الأسكولانية: مزيج من الفلسفة الإغريقية والكلام الإسلامي:

قبل حركة التنوير الفكري التي نشأت في فرنسا في القرن الثامن عشر وتسببت في اندلاع الثورة الفرنسية في عام 1789م فإن المؤسسة المسيطرة على الفكر الغربي وعلى الروح الغربية في الوقت نفسه، وهي الكنيسة الكاثوليكية، اجتهدت جهادا كبيرا في تجنب النصارى من تأثير عقائد وأنماط تفكير أخرى منذ أن تأسست في القرن الرابع الميلادي على يد الإمبراطور كوستانتينوس الأكبر الذي اعتمد سياسة تنصير دولتها انتهت بفرض النصرانية دينا رسميا للدولة الرومانية، والذي هو أكبر وأظلم على مواطني تلك الدولة شاءوا أم أبوا؛ وهو الأمر الذي أدى إلى مطاردة جميع من لا يمثل للأمر سواء كان من منطلق ديني أو من منطلق فكري وأدت الحالة إلى أن اضطهدت الكنيسة الكاثوليكية كل من اعتبرته معارضا لسلطانها بمجرد الامتناع من قبول عقيدتها. ولما ظهر الإسلام وأثبت وجوده الاجتماعي والسياسي فضلا عن العقائدي والحضاري قامت الكنيسة لمحاولة دحضه



بما استطاعت من الوسائل لكنها انتهت إلى أن أقوى وأفتك وسيلة تمكنها من معارضة الإسلام هي التأليف عنه لإظهار عيوبه المزعومة أمام النصارى لترهيبهم عن اعتناقه، وعلى ذلك يقول الراهب بطرس المبجل (م 1092/ت 1156م)، رئيس دير كلوني في فرنسا والذي جاء إلى طليطلة عامي 1142 و1143م للإشراف على ترجمة القرآن والأحاديث النبوية ونصوص إسلامية أخرى من العربية إلى اللاتينية لذلك الغرض:

«سواء كنا نسمي الهدي المحمدي (أي الإسلام) بتسمية مشينة مثل هرطقة، أو نسميه تسمية أخرى، فإن علينا العمل ضده، وأقصد بذلك التأليف. ولكن اللاتينيين، وعلى وجه الخصوص المحدثين منهم، حينما اندثرت ثقافتهم القديمة لا يعلمون إلا لغة مسقط رأسهم، حسب تعبير أولئك اليهود الذين كانوا يتعجبون من الحواريين المتحدثين بشتى اللغات، بإلهام وتقدير من الله. ولهذا، فلم يقدروا (أي النصارى اللاتينيون) على معرفة ذلك الضلال وبعده ولا على سد الطريق أمامه. ولقد التهب قلبي واضطربت نار في تأملي. وقد أخذ مني الغضب لما رأيت اللاتينيين يجهلون علة ذلك الغي وأن جهلهم يحرمهم من مقاومته. ولم يكن هناك أحد رد عليه؛ لأنه لم يكن هناك من كان يعلم. ولذلك بحثت عن متخصصين في اللغة العربية التي ساعدت على التياث أكثر من نصف البشرية بذلك السم. وبعد مناشدات عديدة وصرف المال الكثير عليهم أقنعتهم بترجمة سيرة وتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم، وحتى شريعته التي تسمى القرآن. ولضمان الوفاء في الترجمة وضبطها على أكمل صورة ولتجنب أي خطأ يلبس علينا الفهم الصحيح له، لقد أضفت مترجما مسلما إلى المترجمين النصارى. فأسماء النصارى هي: روبرت دي كتون، وهرمان الدالماسي، وبترس الطليطولي. وأما المسلم فاسمه محمد. ولقد ألف هذا الفريق سفرا ضخما تم إصداره للقراء اللاتينيين من بعد الاطلاع المحقق على ما في مكتبات العرب المسلمين. ولقد أنجز ذلك العمل عام رحلتي إلى إسبانيا، والذي أجريت فيه مقابلة مع السيد ألفونسو (هو الملك ألفونسو السابع لقشتالة)، إمبراطور منصور لدير إسبانيا كلها، أي في سنة 1142 للميلاد»<sup>1</sup>.

وقبل ظهور الإسلام دينا وحضارة لم يكن للكنيسة الكاثوليكية حاجة إلى تنظيم العقائد لعامة النصارى؛ لأن سيطرتها عليهم كانت شاملة جميع أمورهم، ولم يكن لهم مرجع إلا قساوسة الكنيسة وأساقفتها، وما كان الرهبان يفوقون عامة النصارى في العلم بدينهم إلا في حالتهم قساوسة، وما كانت تلك حالة الأكثرية منهم بل الأقلية منهم المتمثل في رؤساء الأديرة ومن في حكمهم. لكن الاحتكاك بالإسلام والمجتمعات الإسلامية جعلت الكنيسة الكاثوليكية، أو بالأحرى الأذكىاء فيها،

<sup>1</sup> - لي غوف، 2006: ص33.



تفطن إلى أهمية وجود كتب تجمع أصول عقيدتها لشرحها للنصارى بغية التثقيف أولاً ولغيرهم ثانياً رهبة في التنصير. ووصل إلى هذه الفكرة من حذق من النصارى نظراً إلى ما وجده من كتب العقيدة عند المسلمين، وعلى وجه الخصوص مسلمي الأندلس، والتي تمثل نظاماً متكاملًا لقضايا العقيدة الإسلامية. وقد انتهت إلى ذلك الكنيسة الكاثوليكية الغربية وليست الكنيسة أو الكنائس الشرقية فإنها لا تنظر إلى الإسلام على أنه خصم لها في الدين وإنما تعتبره نمط حضارة من الممكن لها اتخاذ إطاراً صحيحاً للطريقة المسيحية؛ بالرغم من أن، في الآونة الأخيرة ومنذ الاستعمار الأوروبي على أغلبية الدول الإسلامية والمجتمعات المسلمة والنفوذ الغربي عليها بعد الاستقلال غيرت هذه النظرة الأولى لبعض الكنائس المسيحية الشرقية، وعلى رأسها الأقباط في مصر، إلى الإسلام واستبدلت النظرة الغربية للإسلام بالنظرة الأولى عندها إليه. وهذه الكتب للعقيدة المسيحية لم تظهر بشكلها المنظم إلا في مطلع القرن الخامس عشر الميلادي/ العاشر الهجري، ولم تظهر فكرتها إلا اعتباراً من القرن الثالث عشر الميلادي/ السابع الهجري انطلاقاً من رغبة التبشير بين المسلمين المتبقين في أراضي الأندلس المحتلة حديثاً على أيدي الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية، وفي الوقت نفسه، احتذاء بما وجدوا من كتب العقيدة عند المسلمين، وفي عقول المسلمين الذين التقوا بهم من أجل التبشير أو التعلم منهم عقائد الإسلام وشعائره.

وفي هذه الأثناء برز الراهب الميورقي ريموند لول (1233-1316م) الذي كرس حياته، بعد التوبة ودخول طريق الدين المسيحي، لتنصير المسلمين وقد اقتنع بأنه لن يتم ذلك إلا عبر شرح صحيح للعقيدة المسيحية لدى المسلمين باستخدام المفاهيم الإسلامية التي توافق العقيدة المسيحية. وللوصول إلى هذا الهدف لا بد من تعلم العربية لقراءة الكتب المناسبة والتأليف فيها ومناقشة المسلمين فيها. فسعى إلى ذلك وحث الآخرين عليه، لكن النتائج لم تبلغ المراد فلم يحدث تنصير المسلمين بل تنصيرهم قهراً بعد بسط السلطان عليهم في أيام سقوط الأندلس وما جاء بعدها. وعلى عكس ذلك فإن الذي حصل فعلاً هو أن ريموند لول عثر على أهمية العقيدة الإسلامية في الكتب التي قرأها، والمسلمين الذين كان يستفسرهم عن الأمور، فطبق ما تحصل لديه على العقائد المسيحية ونظمها به. وكانت العقيدة الإسلامية التي تلقاها ريموند لول من المسلمين، علماء وعوام، العقيدة الأشعرية التي كانت قد استقرت في قلوب المسلمين وأذهانهم منذ أزيد من ثلاثمائة سنة.

وعليناً ألا ننسى أن المعتزلة، ومن ضمنهم الأشعري قبل الانحلال عن الاعتزال وبعده، هم الأولون في الإسلام الذين نظموا مسائل العقيدة على منوال أصول الفقه التي دَوَّنها الشافعي ومن سار على غراره مثل الأشعري بنفسه. وقد ألف المعتزلة بين النقل والعقل في تناول رسالة الإسلام

ومضامينها الروحانية والتشريعية. وهذا نفسه هو الذي عمله الأشعري لكن باستخدام العقل لمباشرة النصوص المنقولة عن الوحي وليس بترجيح العقل عليها دائما مثلما فعله المعتزلة في معظم أعمالهم. وذلك بعينه هو الذي لم تعرفه الديانة المسيحية في تاريخها قبل جوار الإسلام فإن العقيدة المسيحية قبل لقاء الإسلام وتحديه اعتمدت، مازالت إلى حد الآن، على مخاطبة الوجدان والعواطف قبل محادثة العقل وإعماله في قضايا الدين وترجع دائما إلى السلطة السياسية والاجتماعية والاقتصادية للقضاء على الخصوم وتثبيت سيطرتها على شعوب المحكومة بعقيدتها.

وعندما خبرت الكنيسة الكاثوليكية الإسلام عرفت حاجتها إلى دعم عقيدتها بالبراهين العقلية والأدلة الشرعية المستنبطة من نصوصها الدينية في الإنجيل وقسم العهد الجديد في الكتاب المقدس التي كانت تؤدي دورا ثانويا في الحياة الدينية المسيحية وفي تشريعها قبل ظهور الإسلام، فإن التشريع في النصرانية كان أهم المجامع الأسقفية التي كانت تهمل قوانينها وتشريعاتها من مصادر شتى غير مسيحية مثل القانون الروماني والقانون الجرمانى وقوانين وأعراف وتقاليده أخرى لا تمت بصلة إلى المسيحية ورسالة المسيح، عليه السلام. فاهتمام المسيحية بنصوصها كمصدر للتشريع في أمور الدين والدنيا وفي البعد الروحاني في العلاقة بين الخالق وخلقه لم يرد فيها إلا بعد معرفة الإسلام ومنطلقاته ولو بصفة سطحية. وأدى تلمذ الكنيسة الكاثوليكية على الإسلام إلى إنشاء «المدرسية» أو السكولانية، وهي طريقة التعلم عند الحضارة الغربية التي ظهرت اعتبارا من القرن الحادي عشر الميلادي/السادس الهجري حتى القرن الثامن عشر الميلادي/الثاني عشر الهجري بالرغم من أن قوة السكولانية وحكرتها على الفكر الغربي عامة والكنائسي خاصة ضعفت، بسبب الإصلاح البروتستانتي، منذ القرن الخامس عشر الميلادي/العاشر الهجري. في وصف خورخي غراثيا السكولانية أو الطريقة السكولانية لمعاشرة العلم بأنها «هي الطريقة العادية في تعليم علوم مختلفة وتعلمها، وعلى الأخص الفلسفة واللاهوت بالمدارس الوسيطة بعد القرن الثاني عشر»<sup>1</sup>. ومن الممكن وصف طريقة السكولانية في التعلم والتعليم على أنها «حينما استخدمت العقل، أي الفلسفة، في الحقائق الموحى بها (يقصد المعتقدات المسيحية) تستهدف التقصي لمضامين الإيمان، من أجل تقريب معجزة الوحي (أي العقائد المسيحية) إلى عقل الإنسان الذي يفكر بغية تقديم شامل منظم وهيكل للوحي المنزل ودحض اعتراض العقل على مضمون الوحي. ففي مسار تطور تدريجي، اتخذت طريقة السكولانية شكلا ظاهرا بمعنى أنها انتظمت في نظام معين»<sup>2</sup>. وهناك تعريف أوجز ولربما أبلغ للسكولانية بأن

1- قاموس القرون الوسطى: المجلد الثاني، ص 56.

2- مارتين غرابمان: 1909-1911، ص 52.



«السكولانية هي، أساساً، طريقة استسبار في اللاهوت والفلسفة تميل إلى تعقل وتنظيم الحقائق الموحى بها (أي المعتقدات النصرانية) استناداً إلى المفاهيم الفلسفية (بمعنى العقلية)»<sup>1</sup>.

وبالرغم من تنمية السكولانية كطريقة لفهم وتطبيق النصوص النصرانية عبر العقل فإن الكنيسة الكاثوليكية لم تقبل الكثير من استنتاجاتها وطرق تعليمها وتعلمها وقد استمر هذا التعنت لها في الكنيسة وفي بعض المسائل إلى حد الآن: «فلننجر كتب أرسطو فيما وراء الطبيعة وفي الفلسفة الطبيعية وخلصتها وتعاليم الأستاذ دافيد دي دنانث [1160-1217م] والزنديق أمالريك (1160-1225م) والعربي الإسباني (ابن رشد)»<sup>2</sup>. ومن هذا فإن الكنيسة ومن في حكمها في سلم التعليم في الغرب منع الطريقة السكولانية في تناول المواضيع الحرجة في الدين المسيحي: إنا قررنا ونهينا جميع الأساتذة وجميع من في كليتنا عن طرح أو نقاش أي مسألة لاهوتية محضة مثل الثالث وتجسد الإله وما شابههما»<sup>3</sup>.

لكن القساوسة في أوروبا لم يعرفوا أول ما عرفوا في القرون الوسطى الأوروبية العقيدة الإسلامية التي هي العقيدة الأشعرية، في كتب الأشعر بل في نقاشهم مع المسلمين الذين كانوا قد بقوا في أراضي الأندلس المحتلة من قبل الممالك المسيحية الإيبيرية، وبالإضافة إلى ذلك فقد عرف بعض القساوسة العقيدة الإسلامية من خلال قراءة كتب الإمام الغزالي، ظناً منهم -أي القساوسة- أن هناك روابط متينة بين العقيدة الإسلامية والفلسفة اليونانية؛ لأنهم تلقوا الفلسفة اليونانية عبر ترجمات لاتينية من نصوص عربية تحتوي على مؤلفات الفلاسفة اليونانيين، وعلى رأسهم أرسطو وأفلاطون. وأكثر من ذلك فإن القساوسة، وهم رجال العلم والفكر الوحيدون في أوروبا وفي الحضارة الغربية حتى القرن الخامس عشر الميلادي/ العاشر الهجري، لم يفهموا نصوص أرسطو إلا بشرح وتفسير الفقيه والفيلسوف الأندلسي المعروف بابن رشد الحفيد، صاحب بداية المجتهد ونهاية المقتصد.

## 1. ريموند لول، العربي المسيحي: نموذج لتتلمذ القساوسة على الكلام الأشعري

ولد ريموند لول في مدينة ميورقة عام 1233م إثر استيلاء نصارى مملكة أراجون على جزيرة ميورقة كبرى جزر البليار. ويبدو أنه كان ينتمي إلى عائلة نبيلة من المقربين إلى ملك أراجون، جاوما الأول الغازي، وعاش حياة متسمة بالفتوة والفروسية حتى حدث تحول جذري في حياته وذلك في عام

1- مقالة "السكولانية" في قاموس اللاهوت الكاثوليكي: 1930-1959.

2- لوائح كلية الفنون في باريس عام 1271 م، في فايخرس 1995، ص 141.

3- لوائح كلية الفنون عام 1339م، في فايخرس 1995، ص 148.



1262م، وتاب إلى الله ونذر خدمته وخدمة الدين المسيحي: «وفيما بعد أخذ يحدث نفسه فيما هو أحب الأعمال إلى الله، ورأى أن ليس هناك أعظم عمل من تكريس حياته، وبذل نفسه في حب المسيح وشرفه وذلك بتحويل المسلمين إلى عبادته وعبوديته؛ لأن المسلمين كثرة ويحيطون بالنصارى من كل جانب»<sup>1</sup>.

ولم يجد أفضل سبيل للوصول إلى ذلك الغرض إلا تأليف كتاب يوضح فيه فضل النصرانية على الإسلام وإظهار فساد العقيدة الإسلامية: «وأثناء تدبره هذه الأمور في ذهنه الكئيب وبدون أن يعرف كيف حدث ذلك فإنما الله يعلم كيف تحدث هذه الحوادث إذ برأى عقلاني جارف أخذ نفذ قلبه وهو أنه بنفسه ومع الزمان سيؤلف كتابا بحيث يكون أحسن كتاب في العالم، في الرد على ضلال الكافرين (يقصد المسلمين)»<sup>2</sup>.

ومن أجل تأليف ذلك الكتاب تعلم لول اللاتينية وعلم اللاهوت والفلسفة والعربية إبان تسع سنوات وأول كتاب كتبه في نيل غرضه عام 1272م هو خلاصة عن كتاب مقاصد الفلاسفة لأبي حامد الغزالي باللغة الكتالانية وسمى ذلك الكتاب منطق الغزالي لكن مقاصد الفلاسفة لا يتضمن أفكار الغزالي وإنما يحتوي على مقترحات أهم الفلاسفة اليونانيين والمسلمين ولا نجد فيه أثرا من العقيدة الإسلامية لكن نجدها في كتب أخرى ألفها ريموند لول من بعد. ومن تصفح جميع مؤلفات ريموند لول الرامية إلى إقناع المسلمين بفضل المسيحية على الإسلام انطلاقا من توضيح بطلان عقيدة المسلمين نجد أنه لم يرد كتب علماء المسلمين في القضية بل علم ما يضعه في كتبه من عقائد وأخبار ملة الإسلام مما سمعه من المسلمين في عدة لقاءات معهم وعلى وجه الخصوص، المسلمين الذين ما زالوا متواجدين في جزيرة ميورقة بعد نزاعها من حكم الإسلام: «وبما يخص مصادر معلوماته عن الإسلام وما ينسبه إليه، تجدر الإشارة إلى أنه لا بد من نهل أحد المصادر الإسلامية، وعلى الغالب فإن هذه المصادر كانت شعبية. لكن من الممكن أن بين المسلمين المدجنين الذين عرفهم لول منهم مثقفون شيئا ما وقد احتفظوا بنصوص إسلامية باقية من إرث المسلمين الذين قطنوا الجزيرة قبيل الاستيلاء عليها»<sup>3</sup> وقد اختار لول من المعلومات عن الإسلام التي زوده بها المسلمون في ميورقة ما يجعله قادرا على شرح أهم العقائد المسيحية لهم من أجل التبشير بين المسلمين سوءا كانوا من مسلمي الممالك الإيبيرية أو مسلمي سائر البلدان. وليس الغرض عند معرفة حقيقة الإسلام

1- سيرة المعلم ريموند لول أو السيرة المعاصرة، 2013: ص 43.

2- سيرة المعلم ريموند لول أو السيرة المعاصرة، 2013: ص 43.

3- بالو، 1981: ص 368-369.

في عقيدته: «ما يستنتج مما سبق من الأبواب أن عزم ريموند لول لم يكن على دراسة علمية للإسلام ولكن مرمى جميع ما كتبه عن الإسلام هو أساسا مرمى تبشيري. ولذلك فلا يركز في أغلب الأحيان إلا على تلك المسائل التي لا توافق العقيدة المسيحية واللاهوت الكاثوليكي»<sup>1</sup>.

وهذه المعلومات المختارة لمناظرة المسلمين في محاولة تنصيرهم اصطبغت صبغة عقلانية أو بالأحرى صبغة كلامية فإن لول فهم أن المسلمين لم يقنعوا بالمسيحية ولم يعتنقوها بمجرد نداءهم إليها بالروحانيات والأسرار المقدسة والمفاهيم الغامضة التي في حاجة إلى قبولها بإيمان وجداني لا عقلاني مثلما يحدث عند المسيحيين الأصليين. وذلك لأن العقيدة الإسلامية في أيام ريموند لول كانت عقيدة الأشعري التي قد تعلمها وعلمها جمهور المسلمين من عامة وخاصة. وعقيدة الأشعري هي عقيدة أهل السنة والجماعة المرتبة والمفسرة على منهاج الكلام الذي أنشأه المعتزلة، لكنه موقف وسط بين العقل والنقل في أعمال العقل على نصوص دون إطلاق عنانه فيها. وهذا المنهاج الكلامي هو الذي اضطر ريموند لول إلى اتخاذه لتقديم العقيدة المسيحية للمسلمين في قالب مقبول ومفهوم عندهم: «إن هذا البعد العقلاني والنظري في إسلام مسلمي ميورقة يبرز واضحا في عروض المسلم الذي يرد في الكتاب الرابع المسمى من عقائد المسلمين الوارد في مؤلف كتاب الكافر والعلماء الثلاثة الذي ألفه ريموند لول بما حفظه عن قرب من أقوال المسلمين وأرائهم في جزيرة ميورقة. وبسبب ذلك فإن حججها نظرية البتة وقائمة على صفات الله الذاتية غير المخلوقة وعلى ما على الإنسان معرفته وقبوله في الله للاعتراف له عز وجل بأعظم مقام في الذات وفي الصفات وفي الأفعال، بالمعنى الوارد في القديس أسلم وفي ابن سينا»<sup>2</sup>.

ومن هؤلاء المسلمين تعلم أن الأدلة العقلية هي حاسمة في مناظرة المسلمين في دينهم وهذا عائد إلى انتشار العقيدة الأشعرية بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية ودرجاتهم العلمية، ومما يؤكد ذلك أن أول ما يحكي لول عن نفسه في محاولة مناظرة أهل تونس في دينهم: وقد دعا شيئا فشيئا أعلم من كان في شريعة محمد -عليه السلام- وقد ذكر لهم، من ضمن ما أخبرهم به، أنه يلم بجميع أصول شريعة النصارى، وجاء من أجل الاستماع إلى أصول شريعتهم ومناظرتهم فيها، وإن وجد أن أدلتهم أقوى من أدلة النصارى اعتنق الإسلام. وبمرور الأيام ازداد عدد الحاضرين والعالمين أكثر علما بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم عارضين له حجج شريعتهم بغرض إسلامه، وقد رد بسهولة عليها بالعقل وقال لهم: "ينبغي لكل عالم اعتنق الدين الذي ينسب إلى الله، الذي هو إله

1- بالو، 1981: ص 368.

2- بالو، 1981: ص 31.



الذي يؤمن به جميع العلماء في العالم، أكبر قدر من الخير والعلم والبر والحق والعظمة والكمال وصفات أخرى مماثلة، وتكون هذه الأمور كلها في أتم مساواة واتفاق. ولذلك يكون الدين الأكثر ثناء هو الذي يصل بين الله، وهو السبب الأول، وأفعاله أتم موافقة وملاءمة»<sup>1</sup>.

ونجد في هذا النص كيف يصف لول الدين الأمثل بأنه الدين الذي يفسر وجود الله وأفعاله وصفات ذاته بالعقل وبالبراهين العقلية التي تشرح بأحسن طريقة التوافق بين ما يدركه البشر من فضائل وبين ما هو موجود عند الله منها على أتم حالة. وذلك من التأثير بمسائل الكلام السني الذي تمثله عقيدة الأشعري. ونرى كذلك كيف أن لول النصراني مهتم أكثر بالبرهان على كمال الله في ذاته وفي صفاته أكثر مما هو مهتم بكشف كمال الله في خلقه كما هو الغالب في الإسلام ولو تعلق الأمر بوجود الله وصفاته.

وكلما التقى لول بالمسلمين للمناظرة طلبوا منه الإتيان بأدلة ضرورية أي أدلة عقلية منطقية لا بمعتقدات مسيحية مبنية على أسرار روحانية كما هي الحالة في الديانة المسيحية وقد تكرر هذا الطلب في حديث إلى مفتي بجاية عندما زار لول المدينة في عام 1307م للتبشير بين المسلمين بوسيلة المناظرة الكلامية حسب مفهومه لها وتعلمه من معتقدات وأصول الإسلام التي هي كلام وعقيدة الأشعري: «من هناك (من ليون في فرنسا، مقر البابا آنذاك) رجع ريموند إلى ميورقة، ومن هناك أبحر إلى بلد من بلاد المسلمين اسمه بجاية. وفي ساحة المدينة الرئيسة وقف ريموند وصعد بهذا القول: "إن شريعة النصراني هي صحيحة ومقدسة ومقبولة عند الله وشريعة المسلمين زائفة وخاطئة وأنا مستعد للبرهان على ذلك". وإبان خطبته باللغة العربية ودعوته إلى دين المسيح قد التف جمهور الكافرين الحاضرين حوله ووقع الكثير منهم عليه بأيدي مجرمة بنية رجمه. وقد أرسل مفتي المدينة إليه وهو في تلك الورطة، وأمر بجلبه للمثول بين يديه. وحينما مثل ريموند أمامه، قال له المفتي: "كيف ورطت نفسك تلك الورطة في طعن حقيقة شريعة محمد صلى الله عليه وسلم؟ ألا تدري أن من يدعى ذلك يعرض نفسه للإعدام؟". وأجابه ريموند: "خادم المسيح بالحق الذي يعلم حقيقة العقيدة الكاثوليكية لا ينبغي له خشية الموت الجسدي إذا كان في إمكانه الفوز بنعمة الحياة الروحانية لأنفس الكافرين". وأجابه المفتي قائلا: "إذا كنت تعتقد حقيقة دين المسيح وفساد دين محمد صلى الله عليه وسلم، فلتأت بأدلة ضرورية للبرهان على ذلك". وكان هذا الطلب؛ لأن المفتي كان فيلسوفا»<sup>2</sup>.

1- سيرة المعلم ريموند لول أو السيرة المعاصرة، 2013: ص 75.

2- سيرة المعلم ريموند لول أو السيرة المعاصرة، 2013: ص 43.



ووصف لول مفتي بجاية بالفيلسوف إشارة إلى أنه كان عالماً بالعقيدة وبالكلام ومعنى ذلك أنه كان عالماً بعقيدة الأشعري والكلام السني. ففي تصور القساوسة الأوروبيين في القرون الوسطى الأوروبية لا فرق بين الكلام والفلسفة عند المسلمين فإنهم ينظرون إلى الإسلام إلى أنه هرطقة عقلانية على غرار الفلسفة اليونانية التي هي نفسها مجموعة من العقائد الفاسدة المنبثقة من الوثنية الإغريقية والرومانية أو المصاحبة لها. والتميز الوحيد بين الإسلام والفلسفة أن الإسلام هو عبارة عن انحراف عقائدي للمسيحية والفلسفة هي الجانب التكفيري للوثنية أو وثنية المثقفين. وعلى ذلك فإن في تحكيم مفتي بجاية العقل والمنطق بينه وبين ريموند لول في مناقشة ادعاءاته على الإسلام والمسيحية مؤشراً إلى أنه لول كان يعلم أن المناظرة مع المسلمين يستدعي معرفة البراهين المستنبطة من أعمال العقل في النصوص وذلك أصل الكلام في الإسلام وخصوصاً الكلام الذي أسسه الأشعري، والذي انتقل إلى المسيحية عبر ترجمة الفلسفة الإغريقية من العربية إلى اللاتينية مع تفسير الغزالي لمقاصد الفلاسفة (الذي هو عنوان مؤلفه الشهير) وشرح ابن رشد لأرسطو فكلاهما، أي الغزالي وابن رشد ينطلقان من الكلام الذي نصبه الأشعري في فهم وتفسير عقائد الإسلام. وبسبب هذا الوضع التاريخي في حضارة أوروبا والديانة المسيحية تجاه الفلسفة الإغريقية والإسلام، فإن القساوسة كانوا يواجهون الإسلام بنفس الطرق والمناهج التي استخدموها في مواجهتهم الفلسفة اليونانية، وكل ذلك بفضل نقل تلك الفلسفة إلى العربية وحفظها في حضارة الإسلام، ونقلها عبر الترجمات اللاتينية إلى أوروبا في القرون الوسطى. وهذا النقل للفلسفة الإغريقية إلى أوروبا وجب على الكنيسة الكاثوليكية استيعاب أساليب الفلسفة ومفاهيمها للدفاع عن نفسها واستخدامها فيما بعد للتبشير بين المسلمين وقتما رجحت قوة الدول الأوروبية السياسية سلطان المسلمين في حوض البحر الأبيض المتوسط في القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري، أي قرن ريموند لول. وكان ذلك الاستيعاب للفلسفة الإغريقية بوسيلة الكلام الأشعري بدون أن تعلمه الكنيسة ولا قساوسها. وهذا الأمر هو الذي جعل الكنيسة والقساوسة يظنون أن الإسلام نوع من الفلسفة أو الفلسفة نوع من الإسلام. وحصل ذلك اعتباراً من القرن الثاني عشر الميلادي/السادس الهجري الذي شهد ترجمة كتب الفلسفة الإغريقية والإسلامية وحتى الرد عليها كما حدث مع تهاافت الفلاسفة للغزالي، في مدينة طليطلة في الأندلس المحتلة.

وقد اعترض ريموند لول على تفسير ابن رشد لأرسطو؛ لأنه رأى فيه تأثيراً سلبياً على المعتقدات المسيحية وعلى الديانة المسيحية عينا بسبب ما قاله ابن رشد من اتفاق بين الفلسفة والشريعة بفضل الكلام الأشعري، وهو الموضوع الذي تناوله في كتابه المشهور "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال": «وعندما رأى أن مؤلفات ترجمان أرسطو، أي ابن رشد، تسببت في ضلال الكثير عن استقامة الحق وخصوصاً عن العقيدة الكاثوليكية؛ لأنهم كانوا يقولون إن فهم العقيدة النصرانية أمر مستحيل، ومن الجائز قبولها إيماناً، وقد ترسخت هذه الأفكار في جماعات النصراني، قام ريموند بدحض هذه المفاهيم بفضل البرهان والعلم موضحاً تناقض هذه الأفكار بطرق شتى، لأنه إذا استحال إدراك العقيدة الكاثوليكية بالفهم استحال كونها حقيقة. وقد ألف عدة كتب في هذا الشأن»<sup>1</sup>.

### العقيدة الإسلامية عند ريموند لول: استمداد من الكلام الأشعري

وقبل ترجمة الفلسفة الإغريقية من العربية إلى اللاتينية والاطلاع عليها وعلى تفاسير الفلاسفة المسلمين وعلماء الإسلام لها من منطلق الكلام الأشعري كانت، وما زالت إلى الآن وإلى حد كبير، يضاف إلى ذلك أن المعتقدات المسيحية كانت تدين لآراء الأساقفة في المجامع الكنائسية المتكونة في مختلف المناطق، وبعض الدول، وهذا الأمر ينسحب على العصور التي نشأت فيها تلك المجامع. وهذا دليل على الدور الحاسم الذي كان للكلام الأشعري أي العقيدة الأشعرية في تطوير الفكر المسيحي في فهمه وتنظيمه وصيانتها لعقائده بوسيلة البراهين العقلية التي تعلمها من المسلمين؛ لأن الفلاسفة الإغريق كما دلل عليه الإمام الغزالي لا يؤمنون بالله على المنوال الذي يؤمن به الإسلام والمسيحية، فاستخدام وسائل الفلسفة الإغريقية لدعم العقيدة المسيحية مستلهم من المسلمين وكلامهم بالرغم من أن ذلك الاستلهم تم على شروط المسيحية، وليس على شروط الإسلام. فانتقى القساوسة ما يناسبهم من الكلام وتركوا ما كان يخالف أغراضهم ومعتقداتهم. وفوق قرارات المجامع الكنائسية هناك رأي البابا الذي له الحل والعقد في جميع أمور الديانة المسيحية الكاثوليكية، وكانت آنذاك ديانة أغلبية الأوروبيين الساحقة وخاصة الأوروبيين الغربيين.

وعلى منوال ما جاء الكلام في الإسلام عن صفات الله، فإن لول يقول في كتاب نقاط العقيدة إن لله صفات خمسة لا بد منها، وعلى المسيحي الإيمان بها وهي<sup>2</sup>:

1- سيرة المعلم ريموند لول أو السيرة المعاصرة، 2013: ص 103.

2- كتاب نقاط العقيدة، 1996: ص 23-25.

(أ) أنه فعال للخير (وفقط للخير ولا للشر مثلما هو في الإسلام)

(ب) وأنه عظيم على أتم حالة

(ت) وأنه صمد أزلا وأبدا

(ث) وأنه قادر على أقصى درجة

(ج) وأنه بر إلى أبعد الحدود

وفي كتاب ما على أحد الإيمان به في الله يسرد ريموند لول صفات الله التي على كل مسيحي تصديقها وقبولها وهي ستة عشرة كلها مشترك بالإسلام إلا واحدة من هذه الصفات، وهي الثالث، وهي مرفوضة رفضا قاطعا في عقيدة الإسلام (1996، ص 85-97):

(أ) أن الله ذات ولا عرض

(ب) وأنه وحيد (بالمفهوم النصراني أنه فيه ثلاثة أقانيم: الأب والابن

والروح القدس)

(ت) وأن له وجود

(ث) وأنه جميل

(ج) وأنه حر لا يخضع لشيء

(ح) وأنه بر

(خ) وأنه عظيم

(د) وأنه صمد

(ذ) وأنه قدير

(ر) وأنه عليم

(ز) وأن له إرادة

(س) وأنه صالح

(ش) وأنه الحق

(ص) وأنه جليل

(ض) وأنه خالق

وفي نهاية الكتاب يتحدث ريموند لول عن صفتين أخريين لله وهما العدل والرحمة. ويقول في رحمة الله انطلاقا من مفهومها الإسلامي في الآية 53 في سورة الزمر ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم﴾:



«يجب الإيمان بأن الله رحمان، وأن رحمته أعظم من أي خطيئة، ولو جمعت كل الخطايا. وهذه العظمة في الرحمة دليل على الجمال والحرية والقدرة والبر والفضل. وكل هذه الفضائل متماثلة في الرحمة على أجمل وجه بسبب عظمة الله، فإن الرحمة بدون عظمة لا يمنع التقاء القبح بالجمال، والعبودية بالحرية، والفسق بالبر وهلم جرا. وعلى ذلك فينبغي لمن أثموا ذنوبا كثيرة أن لا يقنطوا من رحمة الله العظيمة»<sup>1</sup>.

وفي الكتاب نفسه وفي الموقف عينه، وهو خاتمة الكتاب، يبرز لول دور العقل في إكمال الإيمان بالله الذي هو نعمة أو فضل يؤتيه الله من يشاء ليس عن طريق العقل بل عن طريق الوجدان والفؤاد في أول وهلة وأساسا في المسيحية: «لقد ذكرنا ما على أحد الإيمان به في الله، ولكن كل هذه الأمور التي يؤتيها الله بفضل نعمة الإيمان من الممكن للعقل إلقاء بصيص من الضوء عليها، وذلك للموافقة الكبرى التي بين الإيمان والعلم، وهي موافقة كبرى قد ألمع إليها أحد الأنبياء في الكتاب المقدس بقوله: "إن لم تؤمنوا فلن تفهموا"، مشيرا إلى أن الإيمان هو سبب الفهم»<sup>2</sup>.

وهكذا جمع لول بين العلم القائم على العقل والوحي القائم على النبوة والرسالة، بمعنى أن الوحي متفق مع العلم، والعلم يوافق الوحي كما هو الأمر في الإسلام، ولم يكن من المعتاد في المسيحية قبل التتلمذ على الإسلام في أعمال العقل في الرسالة ونصوصها المنقولة.

وفي كتاب الكافر والعلماء الثلاثة، عرض لول أهم نقاط العقيدة في كل من اليهودية والمسيحية والإسلام على شكل حوار ومباحثة بين كافر مزعوم وثلاثة علماء في الأديان الثلاثة: يهودي ونصراني ومسلم. وفيما يتعلق بالإسلام فإن لول يوجز عقيدة الإسلام في اثنتي عشرة مسألة هي:

- (أ) وجود الله وحيدا
- (ب) أن الله خالق
- (ت) أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم
- (ث) أن القرآن كلام الله
- (ج) أن الإنسان مسؤول في القبر
- (ح) أن كل شيء فانٍ إلا الله
- (خ) البعث بعد الموت
- (د) أن محمدا له شفاعاة يوم القيامة
- (ذ) الحساب يوم القيامة
- (ر) وزن الأعمال يوم القيامة
- (ز) الصراط بين الجنة والنار
- (س) الجنة والنار

1- كتاب ما على أحد الإيمان به في الله، 1996: ص 104.

2- كتاب ما على أحد الإيمان به في الله، 1996: ص 104.

ونستنتج من عرض لول لنقاط العقيدة عند المسلمين حسب تصوره لها وعلمه بها أن الفرق الوحيد بين العقيدة المسيحية وعقيدة الإسلام قائم على ثلاثة أمور:

(أ) الثالث

(ب) طبيعة المسيح عليه السلام

(ت) رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

فالإسلام يؤمن بوحداية الله دون شرط أو قيد وبأن المسيح -عليه السلام- بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وأنه نبي عظيم ميزه الله بمعجزة ولادته ومعجزات أخرى ذكرها القرآن، وبأن محمداً -عليه الصلاة والسلام- رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين، وصاحب الرسالة الخاتمة المهيمنة على الرسائل السابقة بما في ذلك رسالة المسيح عليه السلام، وما تبقى منها عند النصارى. والاختلافات الثلاثة في العقيدة بين الإسلام والديانة المسيحية هي أساسية، ولكن هناك اختلافات جانبية منحدره من هذه الاختلافات الثلاثة الرئيسية، وبعض هذه الاختلافات الجانبية مذكورة في النقاط الاثنتي عشرة المنسوبة إلى الإسلام في كتاب الكافر والعلماء الثلاثة للول هي:

(أ) القرآن كلام الله

(ب) الإنسان مسؤول في القبر

(ت) لمحمد شفاعة يوم القيامة

(ث) وزن الأعمال يوم القيامة

(ج) الصراط

وكل هذا الترتيب والروابط بين العقائد المسيحية والإسلامية أخذه ريموند لول من الكلام السني أي كلام الأشعري ومن لف لفيفه مثل الإمام الغزالي، وقد اطلع على ذلك الكلام عبر محاوره المسلمين في جزيرة ميورقة، ومن بينهم العبد الذي اشتراه ليتعلم منه العربية، بالإضافة إلى اهتمامه ببعض الأمور الخاصة بالدين الإسلامي، «وإثر وصوله إلى هناك (ميورقة) هاجر الحياة الرغيدة التي عاشها إلى ذلك الحين ولبس هنداما من أبذل ملابس عثر عليه. وهكذا تعلم في تلك المدينة (مدينة ميورقة) شيئا من النحو (في اللغة اللاتينية) واشترى أيضا هناك مسلما تعلم منه اللغة العربية» سيرة المعلم ريموند لول أو السيرة المعاصرة، 2013: ص 49.

وقد لاح لنا في هذا المبحث فضل الإمام الأشعري حينما انتشرت أفكاره ليس فقط بين المسلمين، ولكن كذلك بين النصارى ولو بصورة مختلفة عما حدث في الإسلام. وذلك يجعلنا نعرف مدى نفوذ الإسلام في الديانات الأخرى ولو سبق وحياها وحي القرآن، وذلك مصداقا لقول الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَنُورِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾<sup>1</sup>.

1 سورة التوبة، الآية: 33.

## من تجليات البراعة المغربية في نظم العقيدة الأشعرية

ذ.عبد العلي بلامين

باحث بالرابطة المحمدية للعلماء.

لقد انكب العلماء- قديماً وحديثاً- على تقريب العقيدة الإسلامية وتيسير فهمها وعقد القلوب عليها، ومن أبرز من أقامهم الله سبحانه وتعالى في هذا المقام وشرفهم به السادة الأشاعرة؛ فسلكوا في سبيل ذلك مسالك منهجية متنوعة؛ جميعها تنهل من عين الشريعة، تنشُد الإبداع لا الابتداع، وتحث العقلاء على الاتِّباع، ليتأتى للناس تعقُّل الأحكام العقدية وعقد قلوبهم عليها، واكتساب اللَّقَاحات الوقائية ضدَّ مختلف الانحرافات الفكرية المتطرفة، منتهجين نهج الإمام المجتهد المُجدِّد أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت324هـ).

وانتساب جمهور علماء الشريعة إلى الإمام الأشعري في العقيدة لم يكن تشيِّياً أو تبعية عمياء، وإنما عن دراية وتمحيص لكتاباته وآرائه ومواقفه التي اتسمت بالوسطية والاعتدال في سياق تاريخي عصيب ظهرت فيه اتجاهات عقدية خطيرة؛ يمكن حصرها إجمالاً في اتجاه مُغرق في أعمال العقل إلى درجة إهمال النص، وآخر مُغال في العمل بظاهر النص إلى درجة إقصاء العقل.

وهذه الوسطية التي اتسمت بها العقيدة الأشعرية أهلتها لتكون أحد الثوابت الدينية للأمة المغربية، وفي سبيل ترسيخها دأب علماء المغرب على تقريب مضامين هذه العقيدة سالكين مسالك تقريبية متنوعة، وقد برعوا في استثمار هذه المسالك وتطويرها بحسب مستوى المتلقي المعرفي ومدى قدرته على الفهم والاستيعاب؛ فمن علماء المغرب من سلك مسلك الإيضاح لمعاني الاصطلاح العقدي، ومنهم من سلك مسلك التحقيق والتدقيق في مسائل عقدية أشكلت على أهل وقتهم وشغلت بالهم، ومنهم من سلك مسلك الجدل بقصد الإفهام والإفحام منافع عن أصول الدين..

أما مسلك نظم العقد الأشعري التقريبي فقد حظي بعناية خاصة من قبل علماء المغرب، لما يحققه من منافع عظيمة في تيسير حفظ الأحكام العقدية، وتسهيل استحضار مسائلها وأدلتها؛ لأنَّ من طبع الإنسان السويَّ استعذاب اتِّساق الكلام المنظوم وترنيمته، لذلك أُقحمت المنظومات العقدية في المنظومة التعليمية بالمغرب منذ ما يقرب من عشرة قرون، وحظي كثير منها بعناية خاصة من قبل العلماء شرحاً وبياناً.



ولم يقتصر علماء المغرب على وضع منظومات عقدية تقليدية بمثابة متون عقدية، بل طوّروا مسلك النّظم بجعله مُستجيباً لمُستجدّات الواقع؛ فنظّموا ما تعجز عن بسطه كثير من المطوّلات العقدية من عرض المسائل مع أدلتها اليقينية، وعرض دقيق المسائل ومناقشة مقالات المخالفين فيها، ونظّموا الكتابات المنثورة التي يصعب حفظها واستحضار مسائلها بأدلتها ونُكتها، ونظّموا أجوبة الأسئلة الواردة عليهم.

ومما يؤسف له أن هذه الجهود المغربية الكبيرة في نظم عقد الأشعري لم تحظ بعناية تليق بمقامها من قبل الباحثين والدارسين، وهو مما حفزني على تجلية التميّز المغربي منهجيا ومعرفيا في هذا الصنف من الكتابات من خلال هذا المقال، وذلك بعرض نماذج من أهم ما أنتجته قرائح المتكلمين المغاربة، موضّحاً خصائص كل نظم وما يتميز به عن الآخر.

## 1- نظم "التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد" لأبي الحجاج يوسف بن موسى الضّرير (ت520هـ)

### أ- التعريف بأبي الحجاج الضّرير مؤلف التنبيه والإرشاد:

هو أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلي المتكلم النحوي، الملقب بالضرير<sup>1</sup>، أصله من سَرْقُسطَة وسكن مراكش<sup>2</sup>، قال القاضي عياض: "كان من المشتغلين بعلم الكلام على مذهب الأشعرية ونظّر أهل السُنّة، عارفاً بالنحو والأدب..."<sup>3</sup>، وقال ابن بشكوال: "كان من أهل التبحر والتقدم في علم التوحيد والاعتقادات"<sup>4</sup>.

من أبرز شيوخه: أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي المعروف بالمرادي (ت489هـ)، وهو أول من أدخل علم المعتقدات بالمغرب الأقصى، ولما مات خلفه تلميذه أبو الحجاج في علوم الاعتقادات<sup>5</sup>. ومن شيوخه كذلك أبو مروان بن سراج (ت489هـ)، وأبو علي الجياني (ت498هـ)<sup>6</sup>، وعن المرادي كان أكثر أخذه<sup>7</sup>. ومن أبرز تلامذة أبي الحجاج الضّرير القاضي عياض، قال رحمه الله في الغنية: "قرأت عليه أرجوزته الصغرى التي ألّف في الاعتقادات، (...) وأجازني أرجوزته الكبرى..."<sup>8</sup>. توفي -رحمه الله- بمراكش سنة عشرين وخمسمائة (520هـ)<sup>9</sup>.

1- الغنية، للقاضي عياض، تحقيق ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط.1: (1402هـ-1982م)، ص.226.

2- انظر: التشوف، لابن الزيات، تحقيق: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب، الرباط، المملكة المغربية، ط.2: (1417هـ-1997م)، ص.105؛ وأزهار الرياض، للشهاب المقرئ، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط.: (1358هـ-1939م)، ج.3، ص.161.

3- المصدر نفسه.

4- الصلة، لابن بشكوال، مكتبة الخانجي، ط.2: (1374هـ-1955م)، ص.644.

5- انظر: التشوف، لابن الزيات، صص. (106-105).

6- انظر المصدر نفسه، ص.105.

7- انظر الغنية، ص.226.

8- الغنية، ص.226.

9 التشوف، لابن الزيات، ص.105.

ذ.عبد العلي بلامين

وتذكر المصادر أن لأبي الحجاج تصانيف حسنا وأراجيز مفيدة، ومما ورد من ذلك مُصرّحاً به أرجوزته الصغرى في العقيدة، وأرجوزته الكبرى<sup>1</sup> التي نُشرت موسومة بـ "التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد"<sup>2</sup>.

## ب- نظم التنبيه والإرشاد في علم الاعتقاد:

هذا النظم من صنف الألفيات العلمية، يقع في أربعة وسبعين وثلاثمائة وألف (1374) بيت، ويمكن اعتباره أقدم نظم عقديّ تقريبيّ على مذهب الإمام أبي الحسن الأشعري وصل إلينا، وأهمّ وأفيد ما نُظم مُستوعباً جميع مباحث العقيدة المشهورة، مع براعة في نظم أدلة المسائل، وطرائق الحجاج، وإتقان في تقسيم أبوابه؛ إذ جعل أبو الحجاج الضير نظمته هذا في تسعة وتسعين (99) باباً تيمناً بعدد أسماء الله الحسنى، قال رحمه الله:

أبوابه كعدد الأسماء للملك العليّ ذي الآلاء<sup>3</sup>

وقد نظمته أبو الحجاج الضير بأيسر الطرق التي يتأتى بها التعقل والحفظ، قال -رحمه الله:-

مُضمّن علم أصول الدين بأقرب الطُّرق في التّبيين  
نَظَمْتُهُ لِلْحِفْظِ وَالتَّفْهِيمِ رجاء رضوان الإله الأكرم<sup>4</sup>

واللافت في نظم "التنبيه والإرشاد" تركيز الضير فيه على إيراد البراهين اليقينية التي يتأتى بها الإيمان الجازم بالأحكام العقدية، ويبدو ذلك جلياً في مضامين الأبواب التمهيدية لنظمته؛ إذ أسفر في ثناياها عن أهمية الأدلة اليقينية في إثبات العقائد السُنَّية مُبيناً أن إيراد البراهين العقلية منهج رباني يحفز العقل الإنساني على التدبر والنظر لتأمين القلب من الشك في المعتقد الحق، قال -رحمه الله:-

|                                      |                            |
|--------------------------------------|----------------------------|
| معرفة الإله والرسول                  | فخير ما يُطلَب بالدليل     |
| والحظّ عند الملك القيوم              | لأنّها تُشَرَّفُ بالمعلُوم |
| وبالتفكّر والاستبصار                 | وأمر الله بالاعتبار        |
| وإنما يمتاز بالبرهان                 | والميز للحق من الأديان     |
| وأتبع الأهواء فيما يحكم              | وذم من قال بما لا يعلم     |
| يهدي إلى الحق وفصلاً قاطعاً          | وجعل البرهان نوراً ساطعاً  |
| لدى اختلاف الجمع والتنازع            | ودلّ في التوحيد بالتمأنع   |
| بالابتداء إذ هما سيّان               | ودلّ في إعادة الإنسان      |
| بقوله: تُسَقَى بماء واحد             | وردّ قول الطبيعيّ الجاحد   |
| واتفقت أسبابها في الحكم <sup>5</sup> | فإنّها مُخْتَلِفَات الطعم  |

1- انظر: الغنية، ص. 226. والصلة، ص. 644. وأزهار الرياض، ج. 3، ص. 161.

2- نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالملكة المغربية، ط. 1: (1435هـ-2014م)، بتحقيق الأساتذة: سمير قوبيع، ومحمد العمراني، ونور الدين شعبي.

3- التنبيه والإرشاد، لأبي الحجاج يوسف الضير، ص. 47.

4- التنبيه والإرشاد، ص. 46.

5- التنبيه والإرشاد، ص. (48-49).

وجملة الأبواب التمهيدية التي مهّد بها نظمه الفاخر هي:

- باب في ذكر الجدال.
- باب في حدّ العلم.
- باب في أقسام العلوم.
- باب في معنى العقل ومحلّه.
- باب في أحكام العلوم.
- باب في أضداد العلوم.
- باب في أقسام المعلومات.
- باب في أقسام المعدومات.
- باب في أقسام المُحدّثات.
- باب في أحكام المُحدّثات.
- باب في معنى الدليل وأقسامه.
- باب في معنى النظر وأحكامه.
- باب في طرق الاستدلال.

وقد برع أبو الحجاج في نظم معتقد أهل السنة مع أدلته العقلية والنقلية اليقينية، مُجَلِّياً تعاضدها في غير مبحث عقديّ. قال رحمه الله في إثبات قِدَم الباري تعالى:

وفاعل الخَلْقِ قديمٌ لم يَزَلْ      فلم يَكُنْ عن قَاعِلٍ عزَّ وجل  
لأنه يُفْضِي إلى التَّسْلُسِ      لحادِثَاتٍ غَيْرِ ذِي أَوَّلٍ  
وَهَذِهِ إِحَالَةٌ شَنْعَاءُ      حُدُوثٌ مَا لَيْسَ لَهُ ابْتِدَاءُ  
ولو يَكُونُ لِحُدُوثٍ أَهْلًا      لم يَكُنْ خَالِقاً لِشَيْءٍ أَصْلًا<sup>1</sup>

وقال -رحمه الله- في إثبات صفات المعاني الواجبة في حقه تعالى:

وَلَمْ يَزَلْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ      العِلْمِ والقُدْرَةِ والحَيَاةِ  
وَالسَّمْعِ والبَصَرِ والإِزَادَةِ      يُنْفِذُهَا فِي كُلِّ مَا أَرَادَهُ  
وَقَوْلُهُ الْقَدِيمِ مِنْ صِفَاتِهِ      وَكُلُّهَا قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ  
تَقْضِي بِهَا أدْلَةً سَمْعِيَّةً      وَحُجَّةً ثَابِتَةً عَقْلِيَّةً<sup>2</sup>

هذا وقد عدّ بعضُ الباحثين مُؤَلَّفَ "التنبيه والإرشاد" نظماً لـ "كتاب الإرشاد" إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد" لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني<sup>3</sup>، لكن المتأمل في ثناياه، السَّابِرُ أغواره، يُلْفِي

1 التنبيه والإرشاد، ص. 95.

2 التنبيه والإرشاد، ص. 103.

3- انظر: فهرس الكتب المخطوطة في العقيدة الأشعرية، خالد زهري وعبد المجيد بوكاري، منشورات الخزنة الحسنية بالرباط، المملكة المغربية، ط. 1: (1432هـ-2011م)، ج. 2، ص. 519.



ناظمه الضَّرِيرَ متفَرِّداً ببحث مسائل من اختياراته، لم يتعرَّض لها الجوينيُّ في إرشاده، مع عدم إنكار ما يبدو فيه من تأثر بالكتاب المذكور الذي عَرَفَ شهرة واسعة زمان المؤلف. ومن رام الاستزادة من هذا الموضوع فليطلع على دراسة أستاذنا فضيلة الدكتور إدريس الفاسي الفهري الموسومة بـ "أثر الإمام الجويني في الفكر الأشعري بالمغرب من خلال نظم أبي الحجاج يوسف بن موسى الضرير"<sup>1</sup>.

2- علم التوحيد في منظومة "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين"، لأبي محمد عبد الواحد ابن عاشر (ت1040هـ)

أ- التعريف بناظم المرشد المعين<sup>2</sup>:

هو أبو محمد عبد الواحد بن أحمد بن علي ابن عاشر الأنصاري نسباً، الأندلسي أصلاً، الفاسي منشأً وداراً، عرف بابن عاشر الفاسي، العلامة الحجة المشارك، شيخ الجماعة بفاس ونواحيها. وُلِدَ سنة تسعين وتسعمائة (990هـ).

من شيوخه: أبو العباس أحمد بن عثمان اللمطي، والأستاذ أبو العباس الكفيف، وأبو العباس ابن القاضي المكناسي (ت1025هـ)، وابن أبي النعيم الغساني (ت1032هـ)، وأبو عبد الله القصار (ت1012هـ).

ومن تلامذته: سيدي عبد القادر الفاسي (ت1091هـ)، والقاضي محمد بنسودة (ت1076هـ)، وأبو عبد الله ميارة (ت1072هـ).

مرض فمات -رحمه الله- سنة أربعين وألف (ت1040هـ) وهو ابن خمسين سنة. من مؤلفاته: المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، وجواهر الدرر على مختصر خليل.

ب- نبذة عن توحيد المرشد المعين:

اشتمل نظم العلامة ابن عاشر الموسوم بـ "المرشد المعين على الضروري من علوم الدين" على ما يجب على المكلف تعلمه ولا يَسَعُهُ تركه من العقائد والفقه والتصوف، ويقع في سبعة عشر وثلاث مائة (317) بيت، وهو من أشهر المتون المُقَرَّبة لَعُرَى الدين الثلاث.

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنييد السالك

ويقع قسم العقيدة من هذه المنظومة في واحد وأربعين (41) بيتاً جمعت مباحث أصول الدين الثلاثة من إلهيات ونبوات وسمعيات، مع براعة في نظم البراهين والحجج على مسائلها بما يتلاءم مع المبتدئين في طلب علم العقيدة.

لَوْلَمْ يَجِبْ وَصَفُ الْغَيْ لَهْ افْتَقَرْ      لَوْلَمْ يَكُنْ بِوَاحِدٍ لَمَّا قَدَرْ  
لَوْلَمْ يَكُنْ حَيًّا مُرِيداً عَالِماً      وَقَادِراً لَمَّا رَأَيْتَ عَالِماً<sup>3</sup>

1- وهي عبارة عن مداخلة شارك بها فضيلة الدكتور في ندوة: "الفكر الأشعري بالمغرب والمنهجية الجوينية" التي انعقدت يومي 19-20 مارس 2014، بتطوان.

2- انظر ترجمته في: نشر المثاني، للقادري، ضمن موسوعة أعلام المغرب، تنسيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، ط.2: (1428هـ-2008م)، ج. 2، ص. 402؛ وسلوة الأنفاس، للكتاني، تحقيق: عبد الله الكامل الكتاني، وحمزة الكتاني، ومحمد الكتاني، دار الثقافة، الدار البيضاء- المملكة المغربية، ط.1: (1424هـ-2004م)، ج. 2، ص. 310.

3- المرشد المعين، لابن عاشر، دار الفضيلة، القاهرة، ط. (1425هـ-2005م)، ص. 14.

وقد اشتهر قسم التوحيد هذا شهرة المتن المتضمن له، فخصّه كثير من العلماء بعناية كبيرة، فمنهم من أفرد قسم التوحيد منه بالشرح كالعلامة أبي عبد الله محمد بن قاسم جسوس (ت1182هـ) وغيره، ومنهم من تعرّض لذلك عند شرحه المتن كاملاً كالشيخ أبي عبد الله محمد ميارة الفاسي (ت1072هـ) وغيره.

3- نظم "مراصد المعتمد في مقاصد المعتقد"، ونظم "تلقيح الأذهان بتنقيح البرهان على مقاصد المعتقد من مراصد المعتمد"، لأبي عبد الله محمد العربي الفاسي الفهري (ت1052هـ).

أ- التعرف بسيدي محمد العربي الفاسي ناظم "المراصد" و"تلقيح الأذهان":<sup>1</sup>

هو أبو عبد الله وأبو حامد سيدي محمد العربي ابن الشيخ أبي المحاسن سيدي يوسف الفاسي الفهري، شيخ الإسلام، نادرة الزمان حفظاً وفهماً وإتقاناً.

وُلد بحومة العيون بفاس سنة ثمان وثمانين وتسعمائة (988هـ).

من شيوخه: والده المتقدم ذكره الشيخ أبو المحاسن، وعمه العارف، وشقيقه أبو العباس، وأبو زكريا يحيى السراج.

ومن تلامذته: بنوه الأربعة: أبو نصر عبد الوهاب، وأبو الحجاج يوسف، وأبو فارس عبد العزيز، وأبو محمد عبد السلام، وابن أخيه: سيدي عبد القادر الفاسي.

توفي -رحمه الله- سنة اثنتين وخمسين وألف (1052هـ).

من مؤلفاته: نظم مراصد المعتمد في مقاصد المعتقد، ومنظومة تلقيح الأذهان بتنقيح البرهان، والطلالع المشرق من أفق المنطق، ومنظومة حاذى بها مقدمة ابن آجروم، ومنظومتان في ألقاب الحديث.

ب- نظم "مراصد المعتمد في مقاصد المعتقد"

هو نظم يقع في ستة وأربعين وستمائة بيت، مستوعب جميع مباحث العقيدة المشهورة؛ إذ قدّم نظمه بسابقة تعرض فيها للعلم وأقسامه، والحكم العقلي وأقسامه، والحكم بقسميه عند الأصوليين، ثم انتقل فيها للحديث عن أول واجب على المكلف لا النظر للخلاف الواقع في ذلك بين المتكلمين. ثم نصب أربعة مراصد رئيسة ضمنها قواعد العقائد؛ فأفرد المرصد الأول لما يرجع إلى ذاته تعالى من الصفات، وخصّ المرصد الثاني لباقي صفاته تعالى، وجعل المرصد الثالث لأفعاله جل وعلا، وأفرد المرصد الرابع الأخير للرسالة وما أخبرت به (النبوات والسمعيات).

وختم نظمه بلاحقة مكّلة تعرض فيها لبيان حقيقة جملة من المسائل المهمة المتصلة بالعقيدة؛ كأشراط الساعة، والروح، والموت، والشهيد، والأجل، والصغائر والكبائر، والإيمان والكفر، والسنة والبدعة، والتوبة، والولي، والصحابة.

1- انظر ترجمته في: نشر المثاني، للقادري، ج. 2، ص. 10؛ وسلوة الأنفاس، ج. 2، صص. (352-354).



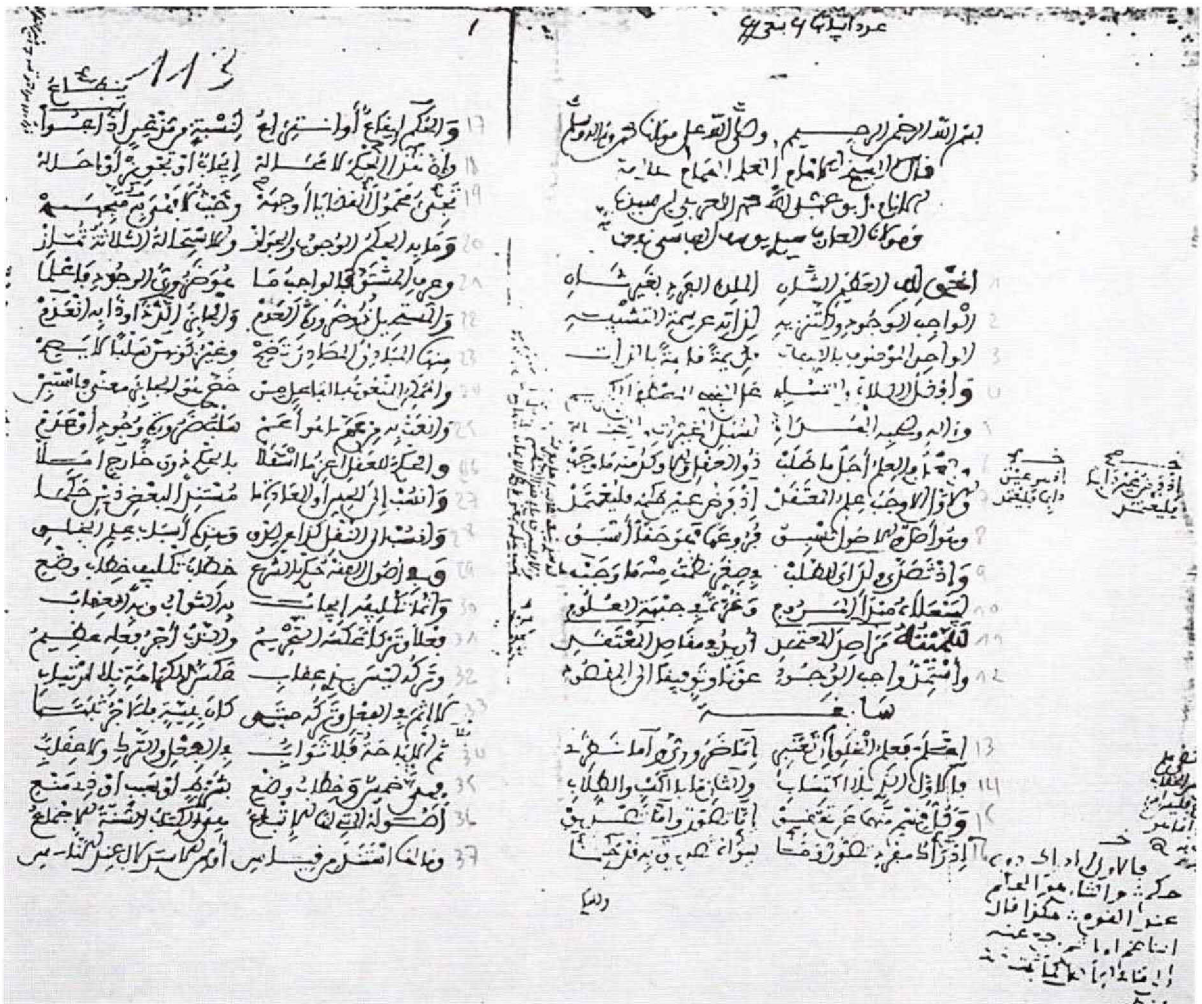
ذ.عبد العلي بلامين

وقد حاول العلامة العربي الفاسي في سياق بيان ما تقرر من عقائد أهل السنة، التنبيه على مواطن الخلاف في الفرعية منها، معتمداً بمقالات كبار المتكلمين؛ كالقاضي الباقلاني، والإمام الغزالي، والإمام المقترح، والإمام العنصر الإيجي.. قاصداً في كل ذلك التقريب دون إيجاز مخل أو تطويل ممل؛ قال رحمه الله:

قصدت فيه البسط والتسهيل ومع ذا لم أقصد التّطويلاً<sup>1</sup>

ومن أجل الالتزام بقصده المذكور أحجم ناظم المراسد عن ذكر مقالات المخالفين في الأصول، وقد أفصح عن ذلك بقوله:

وصننته عني التعرض لما له لذهاب الضلالة انتيماً<sup>2</sup>



(نسخة من مخطوط: مراسد المعتمد)

1- مراسد المعتمد، نسخة مخطوطة خاصة، (ل. 17).  
2- مراسد المعتمد، نسخة مخطوطة خاصة، (ل. 17).



ج- "تلقيح الأذهان بتنقيح البرهان على مقاصد المعتقد من مراصد المعتقد"

أرشد العلامة سيدي العربي الفاسي في آخر نظمه السابق: "مراصد المعتقد" من رام الاستزادة من الأدلة والبراهين اليقينية المتعلقة بمسائله إلى الاطلاع على نظمه الذي أفرد في ذلك وسمّاه بـ "تلقيح الأذهان بتنقيح البرهان على مقاصد المعتقد من مراصد المعتقد" أشار -رحمه الله- إلى ذلك بقوله:

وَمَنْ يُرِدْ حِفْظَ الْأَدِلَّةِ فِيهِ "تلقيح الأذهان" لَنَا قَدَرٌ يَفِي<sup>1</sup>

وقد برع العلامة العربي الفاسي في نظم أدلة مسائل العقيدة وفق منهج رصين، وجعل نظمه هذا قائما على ثلاثة محاور رئيسة أوردها منظومة:

المحور الأول: طالعة التأصيل والتمهيد في الكلام في النظر والتقليد.<sup>2</sup>

المحور الثاني: جامعة التحصيل، للإجمال والتفصيل في تنزيل البراهين، على قواعد أصول الدين.<sup>3</sup>

المحور الثالث: تابعة التكميل والاعتذار بذكر موجبات العلم ووجه الاختصار.<sup>4</sup>

وقد تجلت فيه براعة العلامة العربي الفاسي في نظم أدلة مسائل العقيدة وفق منهج رصين موازن بين العقل والنقل. قال -رحمه الله- في إثبات رؤية الباري جل وعلا سمعاً:

فكُونُهَا واقِعَةٌ في الآخِرَةِ      الآيُّ والأَخْبَارُ فيها ظَاهِرَةٌ

كَمِثْلِ آيَةٍ وُجُوهٌ يَوْمئِذٍ      نَاطِرَةٌ وَمَنْ يُؤَوِّلُهَا انْتَبِذْ

وكحديثٍ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ      وقد رواهُ عِدَّةٌ قَدَرًا عَظُمُ<sup>5</sup>

ثم قال -رحمه الله- في إثبات القدم عقلاً:

ومطلبُ القِدَمِ كَشْفًا اكْتَفَى      برهَانُهُ بأنه لو انْتَقَى

لثَبَتَ الحُدُوثُ ثُمَّ يَفْتَقِرْ      مُحَدِّثٌ وهو أيضاً مُفْتَقِرُ<sup>6</sup>

وختم سيدي العربي الفاسي نظمه هذا بأبيات رفيعة في بيان مذاهب أهل السنة المعتبرة في العقيدة ومسالكتهم في الاستدلال، مؤكداً على أن أئمة هذه المذاهب مجمعون على الأصول العقيدية الثابتة وليس الاختلاف بينهم إلا في طرائق الإثبات وبعض الفروع العقيدية، ومحذراً من خطر بث الفرقة والنزاع وإقصاء المخالف بتبديعه وتكفيره. قال -رحمه الله-:

1 مراصد المعتقد ، نسخة مخطوطة خاصة (ل 17) ..

2- تلقيح الأذهان، نسخة مخطوطة خاصة، (ل 2).

3- المصدر نفسه، (ل 3).

4- تلقيح الأذهان، نسخة مخطوطة خاصة، (ل 14).

5- تلقيح الأذهان، نسخة مخطوطة خاصة، (ل 5).

6- المصدر نفسه.

اعْلَمْ بِأَنَّ عِلْمَاءَ السُّنَّةِ  
ما بينهم فيه خِلافٌ يُعْرَفُ  
وهم طوائِفُ بالاستِقراءِ  
أولُها طائِفَةُ النُّظَّارِ  
وَقُطْبُهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ الْأَشْعَرِيُّ  
وَهُوَ إِمَامٌ عُلَمَاءُ السُّنَّةِ  
فَهُوَ الَّذِي قَدْ نَهَجَ الطَّرِيقَا  
وَالسُّنَّةُ اعْتَرَتْ بِهِ عَلَى الْفِرَقِ  
على اعتقادٍ واحدٍ مُسْتَنَّةٍ  
لكن في طُرُقِ الوُصُولِ اختلفوا  
ثلاثٌ إنْ عُدَّتْ بلا امْتِراءِ  
مُسْتَعْمِلِي الْعُقُولِ والأفكارِ  
الثابتُ الرَّأْيُ السَّديدُ النَّظَرِ  
وهُوَ مَنْ اللَّهُ عَلِمَهَا مِنْهُ  
والْحَقُّ قَدْ أَوْضَحَ والتَّحْقِيقَا  
وأضَحَّتِ البدْعَةُ مِنْهُ فِي فِرَقٍ<sup>1</sup>

ثم قال:

وهكذا جاء الإمام المرتضى  
حتى غدت أتباعه جماعه  
بالحنفيَّةِ تُلَقَّبُ لِمَا  
المأثريُّ الحُسامُ المُنتَضَى  
تُعزَّى إليه وتُرى اتِّباعه  
لها لِذَاكَ فِي فُرُوعِهَا انْتِمَاً<sup>2</sup>

ثم قال-رحمه الله:-

ثَانِيَةُ الطَّوائِفِ الْمَذْكُورَةِ  
وَحَبْدَا أَهْلُ الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ  
وَهُمْ أَدَلَّتْهُمْ السَّمَاعُ  
أَهْلُ الْحَدِيثِ الْعِلْيَةِ الْمَشْكُورَةِ  
وَسَالِكُوا طَرِيقَةَ الْعَدْلِ السَّوِيِّ  
الذِّكْرُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ<sup>3</sup>

ثم قال رحمه الله:

ثَالِثَةُ الطَّوائِفِ الصُّوفِيَّةِ  
وَهُمْ أَدَلَّتْهُمْ الْوُجُودَانُ  
السَّادَةُ الْمُخْصُوصَةُ الصَّفِيَّةِ  
وَالْكَشْفُ وَالْإِلَهَامُ وَالْعِيَانُ<sup>4</sup>

ومن أهم ما اعتضد الناظم به في تنقيح البرهان على مقاصده المتقدمة شرح الحاجبية للبكي، وشرح النسفية لسعد الدين التفتازاني، والاقتصاد لحجة الإسلام الغزالي.

1 تلقيح الأذهان، نسخة مخطوطة خاصة، (ل.14).

2 المصدر نفسه.

3 المصدر نفسه.

4 المصدر نفسه.



(نسخة من مخطوط: تلقيح الأذهان)

ما يميز هذه الأنظام المغربية المختارة أن كل واحد منها متميز عن الآخر بخصيصه؛ فنظم أبي الحجاج الضرير الموسوم بـ "التنبيه والإرشاد" أعمق وأوسع من مراصد أبي عبد الله العربي الفاسي، مستوعب المنفعة عن أصول الدين والرد على المخالفين بالحجج القطعية. ومراصد أبي حامد لوحده أدق وأبين من توحيد المرشد المعين لابن عاشر، واجتماع المراصد مع التلقيح مغي للباحث المقتصد عن كل ما نظم في العقيدة، حافز المجتهد على النظر في كتابات كبار المتكلمين، ومذلل له عقبات تعقُّله مواقفهم وطرائق استدلالهم. ونظم توحيد المرشد المعين جمع بين الاقتصاد في النظم والاقتصار على ذكر ما ينفي الأمية العقدية عن الناس مع الاعتناء بالدليل والبرهان بقدر ما تتحملة أذهان المبتدئين والمقتصدين، وإلى ذلك أشار العلامة ابن عاشر بقوله:

وبعدُ فالعون من الله المجيد في نظم أبيات للأُمِّي تفيد<sup>1</sup>

وبذلك تأتي الإسفار عن جانب مهم من براعة المغاربة في تقريب العقد الأشعري، لعله يزيل الغشاوة ويبيدي الوجهة، فيشجذ همم الباحثين للاعتناء بما كتبه علماؤنا الأجلاء والاعتزاز به والمنفعة عنه.

1 المرشد المعين، ص. 7.



## الاتجاه الوسطي في المذهب الأشعري

ذ.عبد العالي ملوك

باحث - مكناس

لقد توالى مصنفات العلماء في العقيدة الإسلامية، فأثروها بالشرح والتحليل، والتمثيل والتعليل جيلا بعد جيل، حتى استقرت في زماننا على أبدع مثال، وذكروا من فضائلها ما يشهد به المنصفون ويقرّون به دون مرأى، وذلك بعض ما أخذ الله عليهم من الميثاق حين علمهم ما لم يكونوا يعلمون، حتى يبينوا للناس ولا يكتُمون حديثا.

وقد علق بذهني من كلامهم قول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في "بدائع الفوائد": "وأهل السُّنَّة وسط في النحل، كما أنَّ أهل الإسلام وسط في الملل، توقد مصابيح معارفهم من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولولم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء"<sup>1</sup>، وقول الإمام علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه -: "إنَّ دين الله بين الغالي والمقصر، فعليكم بالنمرقة الوسطى؛ فإنَّ بها يلحق المقصر، وإليها يرجع الغالي".

وقد ظل العلماء والمصنفون ينقلون هذه الكلمات الجوامع، لا لأنهم كانوا يجهلون منها أمرا مشهودا لا ينكره الدارسون، بل لكونها وعت إشارات دالة تتسع لمعان كثيرة ومقاصد مستحسنة، ظلت على مر الزمان منارات هادية وآية للسائلين، حتى قال فيها ثعلب اللغوي: "ما رُوي في التوسُّط أحسن من قول أمير المؤمنين علي".

وقد وقفت على بعض ما كتبه الكاتبون في العقيدة الإسلامية وخصائصها وفضائلها، لكنني ما وجدت لأحاديثهم ما يحفزني للاهتمام بهذا الموضوع، لأنَّ جل كتاباتهم تميل كل الميل أو بعضه إلى إحدى النزغتين اللتين لا يبالي الشيطان بأيهما ظفر: طرف الإفراط والغلو، أو طرف التفريط والتقصير، وقد سرى ذلك على جل أبواب العقيدة، ومن ذلك مسائل الشفاعة، والقدر، والوعد والوعيد، والأسماء والصفات، والتأويل، والصحابة، والأحكام، والكرامات، والخوف والرجاء، والتوكل، وغيرها.

ولما وقفت على عقيدة الأشاعرة في هذه المسائل وأضرارها، وجدتها على خطى عقيدة أهل السنة والجماعة؛ التي كانت هي العقيدة المتبعة عند الأئمة الأربعة: أبي حنيفة، ومالك والشافعي

1- بدائع الفوائد، لابن القيم، 1/180.

ذ.عبد العالي ملوك

وابن حنبل، وسائر الفقهاء المعتبرين والأئمة المهدين، قائمة على جوهر التوحيد، وإقرار مذهب السلف، من خلال التوسط بين التنزيه المطلق والإثبات المفصل، مع نخل أصولهم وتنقيحها لتخرج من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين.

غير أن بسط كل ما قيل في الموضوع عناء كبير يتطلب الواسع من الصفحات، وسبيلنا في هذا البحث الموجز أن نختار من كل باب خير ما نريد دون استقصاء، وذلك بتحديد المفاهيم المحورية للبحث أولا، وهي الاتجاه، والوسطية، والمذهب، والأشعري، ثم بيان موجهاته الأساسية ثانيا، ثم تفصيل بعض مظاهر الوسطية في المذهب الأشعري ثالثا.

### 1- المفاهيم المحورية في البحث:

أما الاتجاه، فأقصد به ذلك المنحى العام، والأفكار البارزة التي تغلب على الشخص، وتكون راجحة على غيرها، حتى يشتهر بها، وتصير سمة ملازمة لأعماله، وشاملة لتصوره وآرائه، بحيث تكون محكومة بإطار نظري محدد، وفكرة عامة كلية، تعكس نوع الثقافة التي يؤمن بها، والمصادر التي يستقي منها.

وأما الوسطية: فمن الوسط، وهو ما يكون بين طرفين، كما يراد به الاعتدال والبعد عن الغلو، وقد ورد هذا اللفظ ومشتقاته في القرآن الكريم في عدة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾<sup>1</sup>، وقوله في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِصْغَارُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُضْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَإِذَا كَفَرْتُمْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِمَا كَفَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ حَلَفْتُ وَمَا أَهْلِكُمْ بِمَا كَفَرُوا إِلَّا أَنْ يُبَيِّنَ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾<sup>2</sup>، وقوله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾<sup>3</sup>، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾<sup>4</sup>، وهكذا نجد لهذا اللفظ دلالات متقاربة، منها: العدالة، والاعتدال، والتوسط بين أمرين، والخيار الأجود.

فالوسطية بهذا المعنى تعني -على حد تعبير الشاطبي- الطريق الوسط الأعدل، الأخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة ولا انحلال.<sup>5</sup>

1 - سورة البقرة، الآية: 236.

2 - سورة المائدة، الآية: 91.

3 - سورة القلم، الآية: 28.

4 - سورة البقرة، الآية: 142.

5 - الموافقات، 2: 163.

ذ.عبد العالي ملوك

وهذا خلاف ما اشتهر عند فلاسفة اليونان من أمثال أرسطو، حيث اعتبروا الفضيلة وسطا بين رذيلتين، لأن ذلك سينتهي بنا إلى مقياس للأخلاق شبيه بمقاييس الهندسة والحساب، بعيدا عن تقدير العوامل النفسية والقيم الروحية، بل المقصود الاستقامة وعدم العوج وموافقة الفطرة.<sup>1</sup>

وأما المذهب، فأصله من ذهب في الأرض ذهابا وذهوبا ومذهبا: أي مضى، وذهب مذهب فلان قصد قصده وطريقته، وذهب في الدين مذهبا: رأى فيه رأيا.<sup>2</sup>

وفي الاصطلاح: مجموعة من المبادئ والآراء الدينية أو الفلسفية أو العلمية أو الفقهية المنسوبة إلى أحد المفكرين أو إحدى المدارس.<sup>3</sup>

أما في سياق موضوعنا، فالمراد به المذهب العقدي، أي الآراء التي تبناها الإمام أبو الحسن الأشعري وسائر التابعين لمذهبه في مجال العقائد الإسلامية، كالأسماء والصفات، والقدر، والشفاعة، والإمامة، والتأويل، والصحابة، والأحكام، والكرامات، والخوف والرجاء، والتوكل، وغيرها.

وأما الأشعري، فنسبة إلى صاحب المذهب، إمام المتكلمين، أبي موسى علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أمير البصرة بلال بن أبي بردة بن صاحب رسول الله، أبي موسى عبد الله بن قيس بن حضار، الأشعري، اليماني، البصري، ولد بالبصرة سنة ستين ومائتين للهجرة، وقيل سنة سبعين، وتوفي ببغداد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

تخرج على المعتزلة في علم الكلام، وتتلذذ على شيخهم في عصره: أبي علي الجبائي، وكان - لفصاحته - يتولى الجدل نائبا عن شيخه، ولكنه وجد من نفسه ما يبعده عن المعتزلة في تفكيرهم، مع أنه تغذى من موائدهم، ونال من ثمرات تفكيرهم، ثم وجد ميلا إلى آراء الفقهاء والمحدثين، مع أنه لم يغش مجالسهم ولم يدرس العقائد على طريقته.

عكف الأشعري في بيته مدة وازن فيها بين أدلة الفريقين، وانقذ له رأي بعد الموازنة، فخرج إلى الناس، وارتقى المنبر يوم الجمعة بالمسجد الجامع بالبصرة؛ وقال: "أيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي: أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله تعالى لا يرى بالأبصار، وأن أفعال الشر أنا أفعالها، وأنا تائب مقلع متصد للرد على المعتزلة مخرج لفضائحهم، معاشر الناس، إنما تغيبت عنكم هذه المدة لأنني نظرت فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي شيء على شيء، فاستهديت الله تعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته كتبي هذه، وانخلعت

1 - انظر مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها لعلال الفاسي، ص 79.

2 - المصباح المنير، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي، ط2/2000م، المكتبة العصرية، ص 111.

3 - المعجم الفلسفي، لجميل صليبا، 361/2.



ذ.عبد العالي ملوك

من جميع ما كنت أعتقد كما انخلعت من ثوبي هذا" وانخلع من ثوب كان عليه، ودفع للناس ما كتبه على طريقة الجماعة من الفقهاء والمحدثين، وقد ضمن آراءه في مصنفاته العديدة، ومنها: الإبانة عن أصول الديانة، ومقالات الإسلاميين، واللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، وغيرها.

وكان للأشعري أنصار كثيرون قووا الآراء التي انتهى إليها، ومن أبرزهم الإمام أبو بكر الباقلاني، والإمام الغزالي، والإمام البيضاوي، والشريف الجرجاني، وابن فورك، وغيرهم.<sup>1</sup>

وبهذا يكون مرادي بموضوع "المنحى الوسطي في المذهب الأشعري": الاتجاه الذي غلب على متكلمي الأشاعرة، والسمة التي تميزت بها مواقفهم وآراؤهم، واشتهروا بها في مصنفاتهم ومناظراتهم، والتي تتسم بالوسطية والاعتدال واليسر في فهم قضايا العقيدة الإسلامية وبيانها ودراستها.

## 2- موجبات أساسية في البحث

ومن المناسب، قبل تفصيل مظاهر هذه الوسطية، أن أشير إلى بعض ما يتعلق بمصادر الفكر الأشعري، وبنيته، ومستويات تحمله وأدائه، باعتبارها مدخلا ضروريا لفهم هذا المنحى الذي أشرنا إليه.

أ- أما استمداد الفكر الأشعري، فيقوم أساسا-بعد النقل عن القرآن الكريم، ورسول رب العالمين، والسلف المتقدمين، والصحابة والتابعين- على ما وصلنا من مصنفات الإمام الأشعري نفسه، وعلى رأسها "الإبانة عن أصول الديانة"، و"رسالة إلى أهل الثغر"، و"مقالات الإسلاميين"، و"اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع"، ثم على أعمال تلامذته وأتباعه من بعده، وفي مقدمتهم: الإمام أبو بكر الباقلاني، والإمام الجويني، والإمام الغزالي، والشريف الجرجاني، والإمام البيضاوي، والإمام أبو إسحاق الإسفراييني، والإمام أبو بكر بن فورك.

ب- وأما بنية الفكر الأشعري والمنحى الوسطي الذي تميز به، فليست مستمدة فقط من ردة فعل على غلوسائر الفرق إلى أحد طرفي الإفراط أو التفريط، بل هي - بالدرجة الأولى- قناعة راسخة ترتكز على منظومة عقيدة متكاملة، لها قواعدها، وضوابطها، ومبادئها، وأدلتها، وبراهينها، ومنطقها.

ج- وأما مستويات النظر إلى العقيدة، فيكون على درجات أربع:

أحدها: الفهم، وذلك بتصور العقيدة على حقيقتها كما ورد بها الوحي.

وثانيها: التصديق بحقيقتها، سواء في نسبتها إلى مصدرها، أو في قيمتها الذاتية مطابقة للواقع، وتأدية إلى الخير والصالح.

1 - انظر سير أعلام النبلاء، لشمس الدين الذهبي، 89-85/15، وتاريخ المذاهب الإسلامية، لمحمد أبي زهرة، ص 151-163.

ذ.عبد العالي ملوك

وثالثها: صيرورتها مرجعا موجهها للفكر في كل ما يتجه إليه البحث، وما ينتهي إليه من النتائج.

ورابعها: صيرورتها دافعة للإرادة كي تنطلق في سبيل الفعل والإنجاز.<sup>1</sup>

والتأمل لتقريرات الأشاعرة في مختلف قضايا العقيدة، يجدها آخذة بحظ وافر مما ذكرنا، مما أكسبها قوة واستمرارية وانتشارا في سائر أقطار المسلمين.

### 3- مظاهر الوسطية في المذهب الأشعري (قضايا ونماذج)

#### أ. التوفيق بين العقل والنقل

تُعد مشكلة العلاقة بين العقل والنقل من المشكلات الهامة في تاريخ الفكر الإسلامي، لا سيما في مجال العقيدة الإسلامية، حيث طرح الإشكال الآتي: هل يجوز عرض العقيدة الإسلامية والدفاع عنها بالحجج العقلية والبراهين النظرية، أم تكفي في ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية؛ وما هو المقدم في الاستدلال: الشرع أم العقل؟ وقد برزت في هذا الإطار ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول: يُقرر أصحابه أن العقل يتقدم على الشرع، وهو اتجاه المعتزلة، حيث يرون أن العقل يُحسن ويقبح قبل الشرع وتجب معرفة الله تعالى بالعقل، والمعارف كلها معقولة بالعقل واجبة بنظر العقل.

فالعقل هو وحده القادر على التمييز بين ما هو حسن وما هو قبيح، ولعل مبادئ المعتزلة هذه مستمدة من الفلسفة اليونانية، وهذا ما ألمع إليه أحد أئمتهم المشهورين، وهو الأديب واللغوي أبو عثمان الجاحظ، حيث قال: "والعالم عندنا هو الذي يجمعهما [الدين والفلسفة]، والمصيب هو الذي يجمع تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقها من الأعمال".<sup>2</sup>

وبناءً عليه فإن العقل عند ترتيب الأدلة عندهم مقدم على الكتاب والسنة والإجماع، ذلك أن أول الأدلة: دلالة العقل، لأن به يميز بين الحسن والقبيح، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع، وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم، فظن أن الأدلة هي الكتاب والسنة والإجماع فقط، أو ظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر، وليس كذلك، لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل، ولأن به يعرف أن الكتاب حجة، وكذلك السنة والإجماع، فهو الأصل في هذا الباب، وإن كنا نقول: إن الكتاب هو الأصل من حيث إن فيه التنبيه على ما في العقول، كما أن فيه الأدلة على الأحكام، وبالعقل يميز بين أحكام الأفعال وأحكام الفاعلين، ولولاه لما عرفنا من يؤخذ بما يتركه، ومن يحمد ومن يذم، ولذلك نزول المؤاخذة عن لا عقل له..<sup>3</sup>

1- دور الإصلاح العقدي في النهضة الإسلامية، لعبد المجيد النجار، مجلة إسلامية المعرفة، ع1، السنة الأولى.

2- كتاب الحيوان، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، ج2، ص134.

3- فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، للقاضي عبد الجبار، تحقيق فؤاد سيد، تونس 1973م، ص127.



ذ. عبد العالي ملوك

وهكذا يبدو هذا التقديم ليس تقديم تشريف، وإنما هو تقديم ترتيب، فالخارج من منزله يسعى إلى المسجد، عبر الطريق، فالمرور بالطريق قبل المسجد لا يعني تفضيل الأول وتشريفه على الثاني، وإنما هو الترتيب المنطقي للأمور.

الاتجاه الثاني: يرى أصحاب هذا الاتجاه تقرير سلطة النص وحده، ولا يجعلون للعقل مدخلاً فيما جاء به الشرع ويمثل هذا الاتجاه الظاهرية، وعلى رأسهم ابن حزم؛ الذي كان حريصاً على الأخذ بظاهر النص، وفي هذا يقول في كتاب "الفصل في الملل والنحل": "إن كلام الله تعالى واجب أن يُحمل على ظاهره، ولا يحال عن ظاهره البتة إلا أن يأتي نص أو إجماع أو ضرورة حس على أن شيئاً منه ليس على ظاهره، وأنه نقل عن ظاهره إلى معنى آخر".<sup>1</sup>

ولا يعني هذا إلغاء العقل ووظيفة تماماً، كيف وقد نوه به القرآن وذم تعطيله وجعله شرطاً لفهم آياته في الآفاق والأنفس؟ ولكن العقل المذموم عندهم هو العقل كما يصوره الفلاسفة اليونان ومن نحا نحوهم من فلاسفة الإسلام، وهو الذي عرفه الكندي بأنه "جوهر بسيط مدرك للأشياء بحقائقها"، أو الذي أشار إليه الماوردي بقوله: "سمى كثير من العلماء العقل أم الأصول".<sup>2</sup>

الاتجاه الثالث: يتوسط أصحابه بين الفريقين السابقين، فيجعل الشرع متقدماً على العقل، ولكنه مع ذلك يجعل للعقل مدخلاً في فهم الشرع، وهو اتجاه الأشاعرة، حيث سلكوا في الاستدلال على العقائد مسلكي العقل والنقل، وذلك بإثبات ما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف مما يتعلق بصفات الله عز وجل ورسله والرسالات، والملائكة، واليوم الآخر، والحساب والثواب والعقاب، مستدلين بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية على صدق ما جاء به القرآن ونطقت به السنة عقلاً بعد أن وجب التصديق بها نقلاً، لكنهم لا يتخذون العقل حاكماً على النصوص، بل يعتبرون النص أصلاً والعقل تابعاً وخادماً لظواهر النصوص ومؤيداً لها.

وقد صرح الأشاعرة بهذا المنحى في مصنفاتهم، لا سيما في مقدماتها؛ التي أفردوها للحديث عن حقيقة النظر ومشروعيته، وحجيته وأقسامه وشروطه والطرق الموصلة إليه، وفي مقدمتهم إمام المذهب، حيث قال في كتاب "الإبانة": "فإن قال قائل: قد أنكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولكم الذي به تقولون، وديانتكم التي بها تدينون؟ قيل له: قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا عز وجل، وسنة نبينا عليه السلام، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتمدون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل - نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته - قائلون، ولما خالف

1 - الفصل في الملل والأهواء والنحل، لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم، تحقيق محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة، ط2/1996م، دار الجيل، بيروت، ص 300.

2 - أدب القاضي: 225/1.



ذ. عبد العالي ملوك

قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل، الذي أبان الله به الحق، ورفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به المبتدعين وزيج الزائغين وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم وخليل معظم مفخم<sup>1</sup>.

وعلى ضوء هذه الرؤية، سلك الأشعري سبيل الجمع بين العقل والنقل في الرد على أهل الزيغ والبدع، مستعينا بقضايا فلسفية، ومسائل عقلية خاض فيها الفلاسفة وتداولها المناطقة، ومن ذلك قوله في مسألة الصفات: "فإن قال قائل: لم قلت إن صانع الأشياء واحد؟ قيل له: لأن الإثنين لا يجري تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على إحكام، ولا بد أن يلحقهما العجز أو واحدا منهما، لأن أحدهما إذا أراد أن يحيي إنسانا وأراد الآخر أن يميته، لم يخل أن يتم مرادهما جميعا، أو لا يتم مرادهما، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر، ويستحيل أن يتم مرادهما جميعا، لأنه يستحيل أن يكون الجسم حيا ميتا في حال واحدة، وإن لم يتم مرادهما جميعا وجب عجزهما، والعاجز لا يكون إلها ولا قديما، وإن تم مراد أحدهما دون الآخر وجب عجز من لم يتم مراده منهما، والعاجز لا يكون إلها ولا قديما، فدل ما قلناه على أن صانع الأشياء واحد، وقد قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾<sup>2</sup>، فهذا معنى احتجاجنا آنفا<sup>3</sup>.

وممن تابعه على ذلك، الإمام الغزالي، حيث أشار إلى ضرورة التوفيق بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول، إذ لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، معتبرا المعرض عن أحدهما في عداد الأغبياء، فقال رحمه الله في مقدمة كتاب "الاقتصاد في الاعتقاد": "الحمد لله الذي اجتنب من صفوة عباد عصابة الحق وأهل السنة، وخصهم من بين سائر الفرق بمزايا اللطف والمنة، وأفاض عليهم من نور هدايته ما كشف به عن حقائق الدين، وأنطق ألسنتهم بحجته التي قمع بها ضلال الملحدين، وصفى سرائرهم من وساوس الشياطين، وطهر ضمائرهم عن نزغات الزائغين، وعمر أفئدتهم بأنوار اليقين حتى اهتدوا بها إلى أسرار ما أنزله على لسان نبيه وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين، واطلعوا على طريق التلفيق بين مقتضيات الشرائع وموجبات العقول؛ وتحققوا أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول، وعرفوا أن من ظن من الحشوية وجوب الجمود على التقليد، واتباع الظواهر ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر، وإن من تغلغل من الفلاسفة وغلاة المعتزلة في تصرف العقل حتى صادموه به قواطع الشرع، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر، فميل أولئك إلى التفریط وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط، بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد، والاعتماد على الصراط المستقيم؛ فكلما طرفي قصد الأمور ذميم.

1 - الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري، ص 14-15.

2 - سورة الأنبياء، الآية: 22.

3 - كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، لأبي الحسن الأشعري، ص 20-21.

ذ.عبد العالي ملوك

وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر، أو لا يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر صلى الله عليه وسلم، وبرهان العقل هو الذي عرف به صدقه فيما أخبر، وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر؟ فليت شعري كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العي والحصر؟ أو لا يعلم أن العقل قاصر وأن مجاله ضيق منحصر؟ ههنا قد خاب على القطع والبتات وتعثّر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات، فمثال العقل البصر السليم عن الآفات والادواء، ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء، فأخلق بأن تكون طالب الاهتداء، المستغني بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء، فالمعرض عن العقل مكتملاً بنور القرآن، مثاله المعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان، فالعقل مع الشرع نور على نور، والملاحظ بالعين العور لأحدهما على الخصوص متدل بحبل غرور. وسيتضح لك أيها المتشوف إلى الاطلاع على قواعد عقائد أهل السنة، المقترح تحقيقها بقواطع الأدلة، أنه لم يستأثر بالتوفيق للجمع بين الشرع والتحقيق فريق سوى هذا الفريق، فاشكر الله تعالى على اقتفائك لآثارهم وانخراطك في سلك نظامهم وعيارهم واختلاطك بفرقتهم؛ فعساك أن تحشروا يوم القيامة في زمريهم، نسأل الله تعالى أن يصفى أسرارنا عن كدورات الضلال، ويغمرها بنور الحقيقة، وأن يخرس ألسنتنا عن النطق بالباطل، وينطقها بالحق والحكمة، وإنه الكريم الفاضل المنة الواسع الرحمة".<sup>1</sup>

ومما ساعد الأشعري والأشاعرة عموماً على الاستعانة بمقتضيات العقول في الاستدلال على صدق المنقول؛ العوامل الآتية:

1- أن الأشعري تخرج من مدرسة المعتزلة، وتغذى من مبادئهم الفكرية ومواردهم العقديّة القائمة على الاستدلال المنطقي والنظر الفلسفي، فاختار مناهجهم في الدفاع لعقائد القرآن، ولم يسلك طرقهم في فهم النصوص.

2- أن الأشاعرة تصدوا للرد على المعتزلة ومهاجمتهم، فكان لا بد أن يلحنوا بمثل حججهم، حتى يتفوقوا عليهم ويفحموهم ويقطعوا شبهاتهم.

3- أنهم تصدوا للرد على الفلاسفة، والقرامطة، والباطنية وغيرهم، وكثير من هؤلاء لا تفحمة إلا الأقيسة المنطقية، ومنهم من لا يقطعها إلا دليل العقل.<sup>2</sup>

1- الاقتصاد في الاعتقاد، لأبي حامد الغزالي، ص 4-3.

2- انظر تاريخ المذاهب الإسلامية، ص 158.



## ب. الوسطية في الإمامة

ما المقصود بالإمامة؟ وما هي تجليات وسطية المدرسة الأشعرية فيما يتعلق بها؟

يراد بالإمامة في اللغة: السبق والتقدم، وما يؤتم به، ولم يرد في القرآن بهذه الصيغة، وإنما ورد بلفظ إمام وأئمة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنَّمَا جَعَلْتُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ غَيْرِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الضَّالِّينَ﴾<sup>1</sup>، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا غَابِرِينَ﴾<sup>2</sup>.

أما في الاصطلاح، فقد عرفت بتعريفات مختلفة، منها قول الماوردي بأنها: "موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"<sup>3</sup>، وقول عضد الدين الإيجي: "قال قوم: الإمامة رئاسة عامة في أمور الدين والدنيا، ونقض بالنبوة، والأولى أن يقال: هي خلافة الرسول في إقامة الدين، بحيث يجب اتباعه على كافة الأمة"<sup>4</sup>.

وتستعمل الإمامة بإزاء الخلافة في أدبيات السياسة الشرعية، إلا أن الخلافة هي إمامة عظمى، وقد سميت كذلك لأن الذي يتولاها يكون الحاكم الأعظم للمسلمين، يخلف النبي صلى الله عليه وسلم في إدارة شؤون المسلمين، وتسمى الإمامة، لأن الخليفة كان يسمى إماما، ولأن طاعته واجبة، لأن الناس يسيرون وراءه كما يصلون وراء من يؤمهم في الصلاة<sup>5</sup>.

اتفق المسلمون على اختلاف فرقهم على وجوب وجود الإمام، وذهب جمهورهم إلى أن البيعة الشرعية هي أساس الإمامة، وشذت فرق بقولها إن الإمامة لا تثبت إلا بالوحي والنص للإمام المعصوم طاعنين بذلك في إمامة الخلفاء الراشدين الثلاثة...

وقد رد الأشعري على مزاعم هذه الفرق الشاذة في مختلف مصنفاته، لا سيما في الباب الرابع عشر من كتاب الإبانة؛ الذي خصصه للكلام "في إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه"، مستدلا بالكتاب والسنة وإجماع الصحابة، ومما قاله في ذلك: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَكْثَرِ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾<sup>6</sup>، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا لَيُؤْتِيَنَّهُمُ اللَّهُ الثَّرَاثِيرَ﴾<sup>7</sup>، وأثنى الله تعالى على المهاجرين والأنصار

1 - سورة البقرة، الآية: 124.

2 - سورة الأنبياء، الآية: 73.

3 - الأحكام السلطانية والولايات الدينية، أبو الحسن الماوردي، تحقيق أحمد مبارك البغدادي، ط1/1989، دار ابن قتيبة، الكويت، ص 3.

4 - المواقف في علم الكلام، لعضد الدين الإيجي، عالم الكتب، بيروت، د.ت، ص 395.

5 - المذاهب الإسلامية، ص 19.

6 - سورة النور، الآية: 53.

7 - سورة الحج، الآية: 39.



ذ.عبد العالي ملوك

والسابقين إلى الإسلام، وعلى أهل بيعة الرضوان، ونطق القرآن بمدح المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين في مواضع كثيرة، وأثنى على أهل بيعة الرضوان فقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾<sup>1</sup> الآية، وقد أجمع هؤلاء الذين أثنى الله عليهم ومدحهم على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وسموه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعوه وانقادوا له، وأقروا له بالفضل، وكان أفضل الجماعة في جميع الخصال التي يستحق بها الإمامة من العلم والزهد وقوة الرأي، وسياسة الأمة وغير ذلك :

ومما يدل على إمامة الصديق رضي الله عنه من الإجماع، أن المسلمين جميعاً بايعوه وانقادوا لإمامته، وقالوا له: يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإذا ثبتت إمامة الصديق رضي الله عنه، ثبتت إمامة الفاروق رضي الله عنه؛ لأن الصديق رضي الله عنه نص عليه وعقد له الإمامة، واختاره لها، وكان أفضلهم بعد أبي بكر رضي الله عنه.

وثبتت إمامة عثمان رضي الله عنه بعد عمر رضي الله عنه بعقد من عقد له الإمامة من أصحاب الشورى؛ الذين نص عليهم عمر رضي الله عنه، فاختراره ورضوا بإمامته، وأجمعوا على فضله وعدله.

وثبتت إمامة علي رضي الله عنه بعد عثمان رضي الله عنه لعقد من عقدها له من الصحابة رضي الله عنهم من أهل الحل والعقد، ولأنه لم يدع أحد من أهل الشورى غيره في وقته، وقد اجتمع على فضله وعدله، وأن امتناعه عن دعوى الأمر لنفسه في وقت الخلفاء قبله كان حقاً؛ لعلمه أن ذلك ليس بوقت قيامه، وأنه قلما كان لنفسه في وقت الخلفاء قبله، ثم لما صار الأمر أظهر وأعلن ولم يقصر حتى مضى على السداد والرشاد، كما مضى من قبله من الخلفاء، وأئمة العدل من السداد والرشاد متبعين لكتاب ربهم وسنة نبيهم.

هؤلاء هم الأئمة الأربعة المجمع على عدلهم وفضلهم رضي الله عنهم أجمعين.

وكل الصحابة أئمة مأمونون غير متهمين في الدين، وقد أثنى الله ورسوله على جميعهم، وتعبدنا بتوقيعهم وتعظيمهم وموالاتهم، والتبري من كل من ينقص أحداً منهم رضي الله عنهم أجمعين.<sup>2</sup>

هذا هو الموقف الأشعري الوسطي الذي جمع بين الأدلة النقلية والإجماع والواقع في الاستدلال على رجحان مذهب أهل السنة في إمامة الخلفاء الراشدين، بناء على عقد البيعة الشرعية الذين تمت لهم من جمهور الصحابة رضوان الله عليهم.

1 - سورة الفتح، الآية: 18

2 - الإبانة، ص 89-92

## ج. التوسط في كلام الله ومسألة خلق القرآن

من أشد الفتن في تاريخ الفكر الإسلامي، مسألة القول بخلق القرآن، فقد قالت المعتزلة إن القرآن مخلوق محدث خلقه الله تعالى، وقال الحشوية: الحروف المقطعة والأجسام التي يكتب عليها والألوان التي يكتب بها وما بين الدفتين غير مخلوق، فسلك الأشعرية طريقا وسطا وقالوا: إن القرآن كلام الله غير مغير ولا مخلوق ولا حادث ولا مبتدع، فأما الحروف المقطعة والألوان والأجسام والأصوات فمخلوقات مخترعة.

وإذا كان الجعد بن درهم هو أول من قال بخلق القرآن كما قال الهروي: "وأما فتنة إنكار الكلام لله عز وجل فأول من زرعها جعد بن درهم، فلما ظهر جعد قال الزهري: ليس الجعدي من أمة محمد صلى الله عليه وسلم"<sup>1</sup>، فإن الذي رفع أعلامها، وقدم مبتدعها وقمع مخالفيها هو الخليفة المأمون، وقد نقل ابن عساكر في "تبیین كذب المفتري" أن الفضل البجلي رحمه الله قال: دخلت على زهير بن حرب بعد ما قدم من عند المأمون، وقد امتحنه فأجاب إلى ما سأله، فكان أول ما قال لي: يا أبا علي، تكتب عن المرتدين؟ فقلت: معاذ الله ما أنت بمرتد، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُكْمَمٌ بِالْإِيمَانِ﴾ فوضع الله عن المكره ما يسمعه في القرآن، ثم سألته عن أشياء يطول ذكرها، فقال أشدها علينا أن قال لنا: ما تقولون في عيسى صلى الله عليه وسلم؟ قلنا من عيسى يا أمير المؤمنين؟ قال: ابن مريم قلنا: رسول الله، قال: وكلمته، قلنا: نعم قال: فما تقولون فيمن قال ليس عيسى كلمة الله؟ قلنا: كافريا أمير المؤمنين، قال: فقال لنا: أليس عيسى كلمة الله؟ قلنا بلى، قال: فمخلوق أم غير مخلوق؟ قلنا مخلوق، قال فمن زعم أنه غير مخلوق؟ قلنا كافريا أمير المؤمنين، قال: فما تقولون في القرآن؟ قلنا كلام الله عز وجل، قال: مخلوق أم غير مخلوق؟ قلنا: غير مخلوق، قال: فمن زعم أن عيسى غير مخلوق وهو كلمة الله؟ قلنا كافر، قال: يا سبحان الله، عيسى كلمة الله ومنفي الخلق عنه كافر، والقرآن كلمة الله ومن يثبت الخلق عليه كافر؟ قال الحسين: فأعلمته ما يجب من القول وقلت له: قد كان المكي يختلف إليكم ويقول لكم إني أعلم من هذا الباب ما لا تعلمون، فتعلموا ذلك مني فتحملكم الرئاسة على ترك ذلك، ويقول لكم: يكون لكم ما تعلمتموه مني عدة تعتدونها لأعدائكم فإن هجموا يوما لم تحتاجوا إلى طلب العدة فإن احتجوا بعد ذلك عليكم ولم يحضركم الأعداء لم يضركم الأعداد للعدة فتأبون ذلك والحجة في هذا الباب كيت وكيت، فقال: والله لوددت أنني كنت أعلم هذا كما نعلمه يوم دخلت على المأمون وأن ثلث روايتي ساقطة عني، ثم نظر إلى يحيى بن معين وهو معه فقال له، وأنا أقول كما تقول، فقال لي زهير فعلم ابني فإنه حدث، فخلوت به في المسجد فعلمته.<sup>2</sup>

1- ذم الكلام وأهله للهروي، تحقيق أبي جابر عبد الله الأنصاري 118/5

2- تبیین كذب المفتري فيما نسب للأشعري، لابن عساكر، ص 352-353.



وقد احتجت المعتزلة على مقالتها بعدة أدلة، منها:

1- أن القرآن ذكر، لقوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنُ غَيْرُ الْكَافِرِ﴾، وكل ذكر محدث، فالقرآن محدث.

2- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ فوجب أن يكون قوله متأخرا عن إرادته والمتأخر محدث، كما أن "كن" مركبة من الكاف والنون وهما حرفان متعاقبان، فتكون هذه الكلمة محدثة، فلزم أن يكون قول الله محدثا.

3- أن القرآن موصوف بكونه تنزيلا ومنزلا، وذلك يقتضي كونه محدثا.

وقد رد الإمام الأشعري هذه الشبهة في مواضع من كتبه، ومنها كتاب "الإبانة" في باب "الكلام في أن القرآن كلام الله غير مخلوق"<sup>1</sup>، وكتاب "اللمع" تحت باب "الكلام في القرآن والإرادة"، ومن مقالاته في ذلك: "إن قال قائل: لم قلت إن الله تعالى لم يزل متكلمًا وإن كلام الله تعالى غير مخلوق؟ قيل له: قلنا ذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِنَّمَا أَرْكُلُهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾"<sup>2</sup>، فلو كان القرآن مخلوقا لكان الله تعالى قائلا له: "كن" والقرآن قوله، ويستحيل أن يكون قوله مقولا له، لأن هذا يوجب قولًا ثانيًا، والقول في القول الثاني وفي تعلقه بقول ثالث كالقول في القول الأول وتعلقه بقول ثان، وهذا يقتضي ما لا نهاية له من الأقوال؛ وهذا فاسد، وإذا فسد ذلك فسد أن يكون القرآن مخلوقا، ولو جاز أن يقول لقوله لجاز أن يريد إرادته، وذلك فاسد عندنا وعندهم، وإذا بطل هذا استحال أن يكون مخلوقا"<sup>3</sup>.

وقال الإمام فخر الدين الرازي في كتاب "خلق القرآن بين المعتزلة وأهل السنة": "فالجواب عنها شيء واحد: وهو أن تصرف كل تلك الوجوه إلى هذه الحروف والأصوات، فإننا معترفون بأنها محدثة، وعندهم أن القرآن ليس إلا ما تركب عن هذه الحروف والأصوات، فكانت هذه الدلائل التي ذكروها دالة على حدوث هذه الحروف والأصوات، ونحن لا ننازع في ذلك، وإنما ندعي قدم القرآن بمعنى آخر، فكانت كل هذه الشبه ساقطة عن محل النزاع"<sup>4</sup>.

### د. التوسط بين التشبيه والتنزيه

من أهم الإشكالات التي سادت في عقائد العرب قبل الإسلام، وأدت إلى ظهور تصورات منحرفة عن الألوهية، مسألة التشبيه والتجسيم، وهي تصورات ورثها العرب عن عقيدة التثليث عند النصارى، والتجسيم عند اليهود، والمجوسية عند الفرس.

1- الإبانة عن أصول الديانة، ص 31.

2- سورة النحل، الآية: 40.

3- كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ، ص 33-34.

4- خلق القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، فخر الدين الرازي، تحقيق أحمد حجازي السقا، ط1/1992م، دار الجيل، بيروت، ص 63-70.



ذ. عبد العالي ملوك

وقد سرت هذه العقائد إلى عدد من الفرق الإسلامية، عرفوا بالمجسمة، والمشبهة، والحشوية، ويذهب كثير ممن كتبوا في السير والمقالات إلى أن إمام المفسرين مقاتل بن سليمان [المتوفى سنة 150هـ]، هو أول من تكلم في التشبيه، وفي ذلك قال الإمام أبو حنيفة: "أفرط جهنم في نفي التشبيه، حتى قال إن الله تعالى ليس بشيء، وأفرط مقاتل في معنى الإثبات، حتى جعله مثل خلقه، إن هذا معطل وذاك مشبه"<sup>1</sup>، كما أن هشام بن الحكم من أوائل من قال بالتجسيم، فقد نقل الإمام عبد القاهر البغدادي في "الفرق بين الفرق" أنه يزعم أن معبوده جسم ذو حد ونهاية وأنه طویل عريض عميق وأن طوله مثل عرضه مثل عمقه ولم يثبت طولاً غير الطویل ولا عرضاً غير العرض وقال: ليس ذهابه في جهة الطول أزيد على ذهابه في جهة العرض، وزعم أيضاً أنه نور ساطع يتلألأ كالسبيكة الصافية من الفضة وكاللؤلؤة المستديرة من جميع جوانبها، وزعم أيضاً أنه ذو لون وطعم ورائحة ومجسة، وإن لونه هو طعمه وطعمه هو رائحته ورائحته هو مجسته، ولم يثبت لونا وطعماً هما نفسه بل زعم أنه هو اللون وهو الطعم، ثم قال: قد كان الله ولا مكان ثم خلق المكان بأن تحرك فحدث مكانه بحركته فصار فيه مكانه هو العرش. وحكى بعضهم عن هشام أن قال في معبوده أنه سبعة أشبار بشر نفسه كأنه قاسه على الإنسان، لأن كل إنسان في الغالب من العادة سبعة أشبار بشر نفسه.

وذكر أبو الهذيل في بعض كتبه: أنه لقي هشام بن الحكم في مكة عند جبل أبي قبيس، فسأله أيهما أكبر: معبوده أم هذا الجبل؟ قال فأشار إلى أن الجبل يوفي عليه تعالى، إن الجبل أعظم منه.<sup>2</sup>

أما الأشاعرة، فينطلقون في إثبات التوحيد من قول الله جل وعلا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾<sup>3</sup>، أي أنه مبرأ من التجسيم، بخلاف ما تقوله المجسمة والمشبهة والحشوية وأمثالهم من الفرق الضالة، فالخالق لا يشبه الخلق في شيء، لأن مثل الشيء ما يكون مشاركاً له في جميع أوصافه الجائزة والواجبة والمستحيلة، ويعبر عنه بأن المثليين كل شيئين ينوب أحدهما مكان صاحبه ويسد مسده<sup>4</sup>، وأصله قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾<sup>5</sup>، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾<sup>6</sup>، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾<sup>7</sup>.

وقد ثبت من هذا أن الله تعالى لا يجوز عليه الكيفية والكمية والأينية، لأن من لا مثل له لا يمكن أن يقال فيه كيف هو، ومن لا عدد له لا يقال فيه كم هو، ومن لا أول له لا يقال له مم كان،

1 - نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، لعلي سامي النشار، 359/1.

2 - الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، لعبد القاهر البغدادي، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الأفاق الجديدة، ط 5/1982م، ص 48.

3 - الشورى: 11.

4 - التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، لأبي المظفر الاسفراييني، المكتبة الأزهرية للتراث، ص 133.

5 - سورة الشورى، الآية: 9.

6 - سورة الإخلاص، الآية: 4.

7 - سورة مريم، الآية: 65.

ذ.عبد العالي ملوك

وَمَنْ لَا مَكَانَ لَهُ لَا يُقَالُ فِيهِ أَئِنَّ كَانَ؟ . وَقَدْ جَاءَ فِيهِ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَشْفَى الْبَيَانِ حِينَ قِيلَ لَهُ: أَئِنَّ اللَّهَ؟ فَقَالَ: إِنْ الَّذِي أَئِنَّ الْأَيْنَ لَا يُقَالُ لَهُ أَئِنَّ، فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: إِنْ الَّذِي كَيْفَ الْكَيْفَ لَا يُقَالُ لَهُ كَيْفَ.<sup>1</sup>

وعلى هذا المنحى كان اعتقادهم في الصفات، فكانوا وسطا بين المعتزلة ومعهم الجهمية، وبين الحشوية والمجسمة، فالأولون نفوا الصفات التي وردت في القرآن، ولم يثبتوا إلا الوجود والقدم والبقاء والوحدانية، ونفوا السمع والبصر والكلام وغيرها من الأوصاف الذاتية، وقالوا ليست شيئا غير الذات، وقالوا إنها في القرآن أسماء لله تعالى كالرحمان والرحيم، والحشوية والمجسمة شبهوا ذاته تعالى في أوصافها بصفات الحوادث، ولما جاء الأشعري توسط بينهما، فأثبت الصفات التي وردت كلها في القرآن والسنة، وأنها صفات تليق بذات الله تعالى، ولا تشبه صفات الحوادث التي تسمى باسمها، فسمع الله ليس كسمع الحوادث، وبصره ليس كبصرهم، وكلامه ليس ككلامهم.<sup>2</sup>

إن الدارس المتتبع لحياة الأشعري وسائر أئمة المذهب من المتقدمين والمتأخرين، من أمثال الغزالي، وابن الحاجب، وابن عساكر، والسكوني، والباقلاني، والبيضاوي، والشريف الجرجاني، والأمدي، والقاضي عياض، وغيرهم، يجد أن الذي يتوافق مع شخصيتهم العلمية ومساوهم المعرفي، هو أن يختاروا المنحى الوسطي الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه ولا شطط، من خلال إعادة الاعتبار للنص الشرعي قراءة وفهما وتنزيلا، مع إعمال العقل والنظر في الاستدلال على القضايا العقدية.

وإذا كان الأشعري قد ظهر في وقت رفعت فيه المعتزلة رؤوسهم فحجزهم في أقماع السمس -كما قال أبو بكر الصيرفي- فإن المتأمل لمذهبه وعقيدته، يجد أنه لم يبدع رأيا، ولم يُنشِ مذهباً، وإنما هو مقرر لمذاهب السلف، مناضل عما كان عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقد على طريقة السلف نطاقاً وتمسك به، وأقام الحجج والبراهين عليه، فصار المقتدي به في ذلك السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعرياً.. وقد ذكر شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام أن عقيدته اجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية والفضلاء من الحنابلة، ووافقه على ذلك من أهل عصره شيخ المالكية في زمانه أبو عمرو بن الحاجب وشيخ الحنفية جمال الدين الخضيري.<sup>3</sup>

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

1- التبصير في الدين، ص 138.

2- انظر تاريخ المذاهب الإسلامية، ص 156.

3- طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكي، ط1/ الطبعة الحسينية المصرية، 254/2-255.



### علماء المغرب والدفاع عن ثوابت الأمة:

مناظرة العلامة التمارتي للثائر التاهرتي نموذجا

ذة.أمنة الراضي

-أكادير-

آمن المغاربة منذ اعتناقهم للإسلام بأهمية العلم في تنوير عقولهم في الدنيا، والفوز بمرضاة الله في الآخرة، وفي تأهيلهم للاضطلاع بالمهمة الحضارية السامية المنتظرة منهم وهي عمارة الأرض وفق ما يرضي خالقهم ويعلي عنده مرتبتهم، خاصة أن الله لا يعبد بجهل، فأقبلوا على العلوم باختلاف تخصصاتها دينية ودنيوية، حتى نبغ فيهم كثيرون ممن آمنوا برسالة العلم التي على عاتقهم، والتي تجعلهم يتفانون في خدمة أوطانهم بنشر نور العلم الصحيح بين أبنائه، والدفاع عن قيمه وثوابته وحمايته من خطر الأفكار الهدامة التي من شأنها تقويض أركانه.

وتبعاً لذلك، تزيّن تاريخنا المجيد بأسماء علماء ربانيين وطنيين، زادوا على ما اضطلعوا به من تدريس وإرشاد، وقضاء وإفتاء، وتأليف واجتهاد، بأن كانوا حراساً أشاوس على ثغور ثوابت الأمة، يذودون عنها بعلمهم وخبرتهم ولسانهم، مستندين إلى ثقة الناس فيهم ومكانتهم في نفوسهم. ومن هؤلاء البدور السواطع، والنجوم اللوامع، العلامة المصقع أبو زيد عبد الرحمان التمارتي، الذي قام بدور هام في عصره، وسد مسدّد الجماعة من العلماء، حين خلف شيوخه في مدينة تارودانت وأحوازها أحسن ما تكون الخلافة، وتحمل بعدهم أمانة الذود عن الثوابت الوطنية في منطقته، بنشر المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية فيها من خلال دروسه التي كان يلقيها على طلبته بالجامع الأعظم بالمدينة، والاستناد إليهما في قضائه وإفتائه بل حتى في مناظرته لثائري عصره. فقد وقف التمارتي سداً منيعاً أمام أطماع الطامعين ومناورات بعض ثوار عصره، ممن حاولوا استدراج سكان منطقة تارودانت ونواحيها بوجه خاص ومنطقة سوس عامة، للانضمام إلى صفهم وتقوية جانبهم وإمضاء خططهم بالاستيلاء على الحكم، وبذلك تعد مناظرة التمارتي للثائر التاهرتي وفضح حبالته ونشر تلك المناظرة بين الناس لتكون حرزاً من مكائده التي أضمرها في نفسه، أثراً نفيساً يبين الجهد الكبير الذي بذله هذا العلامة الغيور على دينه ووطنه، الساهر على استتباب الأمن والطمأنينة في مجتمعه، في سبيل رد مكائد هذا الثائر وتنبيه الناس إلى خدعه، وصيانة الثوابت الراسخة لوطنه.



### 1 - التعريف بالمتناظرين:

#### أ - التمنارتي:<sup>1</sup>

نسبه ومولده ودراسته:

هو أبو زيد عبد الرحمان بن محمد المعافري التمنارتي، ولد بفائجة تمنارت الواقعة عند سفح الأطلس الصغير الجنوبي المطل على الصحراء سنة 974هـ/1545م، ثم انتقل رفقة أسرته إلى تارودانت وهو ابن سبعة عشر عاما أو ثمانية عشر سنة 991هـ أو التي بعدها، وأخذ فيها على نخبة من كبار علماء عصره<sup>2</sup>، كالإمام الخطيب أبي عبد الله محمد بن أحمد بن الوقاد التلمساني (ت1001هـ) وقد لزمه التمنارتي عشر سنوات، وقاضي القضاة سعيد بن علي الهوزالي (ت1001هـ)، والفقيه اللغوي أبي عبد الله محمد بن علي السوسي الهوزالي (ت1012هـ) المعروف في عصره بالنابغة. وقد كانت تارودانت حينها زاخرة بالعلماء المبرزين، فلم يحتج أن يرحل إلى غيرها من الحواضر المغربية.

ثقافته ووظائفه:

لقد أثنى التمنارتي علوم عصره من لغة وبلاغة وعروض وفقه وأصول وحديث وتفسير وعقيدة وتصوف ومنطق وفلك وحساب<sup>3</sup>، مما أهله بعد ذلك لإبقاء راية العلم عالية خفاقة في مدينة تارودانت، خاصة بعد الوباء الذي عمّ المغرب كله بين سنتي 1006 و1016هـ<sup>4</sup>، وحصد أرواح عدد من علمائها الكبار، فاستطاع التمنارتي أن يبقي شعلة العلم متقدة في المدينة، وأفنى جهده في ملء الفراغ الذي تركه من قضى من شيوخه، وذلك بالاضطلاع بعدة مهام<sup>5</sup>، فاشتغل بالعدلية وكتابة العقود المختلفة، وولي خطة القضاء والإفتاء، كما اشتغل بالتدريس فكان يلقي دروسه على طلبته بالجامع الأعظم بالمدينة في علوم متنوعة.

1 - انظر التعريف بالتمنارتي في: "الفوائد الجمعة في إسناد علوم الأمة" للتمنارتي، ص: 11 فما بعد، إعداد: محمد بن عبد الله الروداني، تحقيق: اليزيد الراضي، تقديم: محمد المنوني، مطبوعات السننسي، الدار البيضاء، ط1، 1420هـ/1999م. و"رسالة الحذار من مكائد الغرب إذا غشي الدار"، تحقيق ودراسة، ص: 32 فما بعد، بحث قيد الطبع، نالت به آمنة الراضي شهادة الدراسات العليا المعمقة تحت إشراف الدكتور محمد الحاتمي، ضمن وحدة التكوين والبحث: التواصل وتحليل الخطاب في الأدب العربي القديم بكلية الآداب بأكادير، السنة الجامعية 2003-2004م، ونوقش بها يوم 12 يناير 2005م. وانظر أيضا: معلمة المغرب، 7/2195-2196.

2 - بلغ عدد الشيوخ الذين أخذ عنهم التمنارتي ثلاثين شيخا، انظر: الفوائد الجمعة في إسناد علوم الأمة للتمنارتي، ص: 19 فما بعد؛ ورسالة الحذار من مكائد الغرب إذا غشي الدار، ص: 37 فما بعد.

3 - انظر ثقافة التمنارتي في: الفوائد الجمعة، ص: 19؛ ورسالة الحذار، ص: 42.

4 - الفوائد الجمعة، ص: 110.

5 - انظر حولها: الفوائد الجمعة، ص: 25 فما بعد؛ ورسالة الحذار، ص: 44 فما بعد.

### إنتاجه العلمي:<sup>1</sup>

لقد كان العلامة التمنارتي حريصا على نشر العلم النافع ونفع الناس به ونقله إلى الأجيال التالية، ولذلك عمل على تدوين زبدة ثقافته الموسوعية، وخلاصة أفكاره وآرائه العلمية الدقيقة، ونتاج أبحاثه وتحقيقاته، في مؤلفات عديدة ترجمت أوجه ثقافته، وبينت وعيه الشديد بأهمية الكتابة والتدوين في حفظ العلوم، وضمان انتقالها إلى الأبناء والأحفاد، متمثلا قول الشاعر:

العلم صيد والكتابة قيده قيد صيودك بالحبال الوثيقة

فكان مما سوده يراعه خلال حياته، مؤلفات عديدة، بعضها وصلنا وبعضها ما يزال مفقودا، منها ما طبع وانتشر بين الناس، ومنها ما لا يزال مخطوطا، ومن أبرزها:

- الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، وقد حققه الدكتور اليزيد الراضى سنة 1999م.
- كفاية المريد في العقائد، وهي شرح للامية الزواوي في العقيدة، أنهى التمنارتي تأليفها سنة 1048هـ (مخطوط).

- أجوبة فقهية، ذكر العلامة محمد المختار السوسي أنها من مؤلفات التمنارتي الضائعة.<sup>2</sup>
- رسالة الحذار من مكائد الغريب إذا غشي الدار، وهو مخطوط حقق في إطار بحث لنيل شهادة دبلوم الدراسات العليا المعمقة ضمن وحدة التكوين والبحث في التواصل وتحليل الخطاب بكلية الآداب بأكادير، نوقش يوم الأربعاء 12 يناير 2005م، وهو قيد الطبع.

### وفاته:

توفي العلامة القاضي المفتي عبد الرحمان التمنارتي يوم الأحد 5 شوال سنة 1060هـ، ودفن بمقبرة باب الخميس بتارودانت.<sup>3</sup>

### ب - التاهرتي:<sup>4</sup>

ظلت شخصية التاهرتي لغزا من ألغاز تاريخ الثوار بالمغرب عامة، وبمنطقة سوس خاصة، لقلة ما ورد عنه في كتب التاريخ، وهو ما يظهر بوضوح في الترجمة التي خصّه بها الأستاذ المدقق محمد حجي رحمه الله في معلمة المغرب<sup>5</sup>، إذ اكتفى بذكر اسمه الشخصي ونسبه وأصله وذكر دعوته لنفسه

1- انظر تفصيله في رسالة الحذار من مكائد الغريب إذا غشي الدار، ص: 50 فما بعد.

2- سوس العامة، ص: 181.

3- الفوائد الجمة، ص: 36؛ ورسالة الحذار، ص: 52.

4- انظر ترجمته الموسعة في رسالة الحذار، ص: 54.

5- 2232/7-5.

ذمة آمنة الراضى

بتارودانت<sup>1</sup>، وقد دفعته قلة الأخبار عن مترجمه إلى التشكيك في انتقاله من بلاد تاهرت بالجزائر حاليا، فقال: "ولم يشر [أي التمارتي] إلى أصله بغير نسبته إلى تاهرت، ولا إلى متى قدم من بلاد الواسطة إن كان طارئا على المنطقة"<sup>2</sup>.

ومن هنا، يكتسي مؤلف (رسالة الحذار من مكائد الغرب إذا غشي الدار) أهمية بالغة بالنظر إلى ما تضمنه من أخبار هذا الثائر، وفيما يلي تعريف موجز بهذه الشخصية:

اسمه ونسبه ومقدمه لسوس:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد القادر بن أحمد الونجيني التاهرتي، سيق إلى تارودانت أسيرا مع من أسر من أتباع ابن أبي محلي<sup>3</sup> بعد انهزامهم أمام جيش السعديين بقيادة الأمير يحيى الحاحي في وقعة جيليز<sup>4</sup> سنة 1022هـ، قال التمارتي: "وإن أبا عبد الله محمد بن عبد القادر بن أحمد التاهرتي نزيل تينزرت أعلى السوس الأقصى، وصاحب المخارقة الواردة عنه التي نقلناها صدر هذه الرسالة، كان ممن أفلت من تحت سيوفنا في وقعة جيليز، حدود الاثنين والعشرين والألف، صحبة الفاتن أحمد بن عبد الله الساوري الهاجم على ملك المغرب، فكفى الله شره على يد شيخنا الإمام القدوة أبي زكرياء ابن الأئمة الصلحاء الأعلام، فجاء به أسيرا تحت جناحه إلى مدينة تارودانت قاعدة السوس الأقصى"<sup>5</sup>. أما ولادته فلا تزال مجهولة إلى اليوم.

تدريسه بالجامع الأعظم:

أظهر التاهرتي الورع والزهد وتزني بزي العلم والصلاح، فأجرى له التمارتي من أحباسها جارية شهرية قدرها خمس وثلاثون أوقية مقابل التدريس بالجامع الكبير، وبقي على ذلك مدة شهر تقريبا، فظهر ضعف تحصيله وقلة ضبطه وتحقيقه، ثم راح يلّمح لطلبته بما يضمنه من السعي للخروج على أولي الأمر والدعوة لنفسه، وفي ذلك قال التمارتي: "فأظهر التقشف والزهد والطلب، وفرضنا له خمسا وثلاثين أوقية للشهر من أحباسها على التدريس، فجلس له في جامعها شهرا أو أقل، فرأى الطلبة جموحه وقلة تحقيقه [...] فتركوه"<sup>6</sup>.

1- وقد وهم العلامة حيي رحمه الله حين ذكر أن التاهرتي دعا لنفسه في تزنيته، والصواب تنزرت قرب منطقة أولاد برحيل بأحواز مدينة تارودانت.

2- معلمة المغرب، 7/ 2232.

3- هو الثائر أحمد بن عبد الله السجلماسي، ثار على المولى زيدان قتل على يد السعديين بقيادة يحيى الحاحي سنة 1022هـ انظر حوله: الاستقصا، 26/ 6، تحقيق وتعليق: ذ جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1418هـ/ 1997م؛ وانظر: إيلغ قديما وحديثا، لمحمد المختار السوسي، ص: 15، هياة للطبع وعلق عليه: محمد بن عبد الله الروداني، المطبعة الملكية، الرباط، 1386هـ/ 1966م؛ وانظر: مهدوية ابن أبي محلي الفيلاي ومخطوطه (تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة)، سعيد واحيحي، 2009م.

4- انظر حولها: إيلغ قديما وحديثا، ص: 52.

5- رسالة الحذار، ص: 149.

6- نفسه.



## طلبه الملك:

يعد التاهرتي مثالا لعدد من الثوار الذين استغلوا ضعف السلطة المخزنية على مناطق المغرب، عقب وفاة السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي<sup>1</sup> سنة 1012هـ، ودخول أبنائه وأحفاده في صراعات طاحنة حول الحكم، فأظهر هؤلاء الثوار للعامة نياتهم في الاستحواذ على الملك، وتكوين إمارات خاصة، واعددين أتباعهم بالعطايا والأراضي إذا تم لهم الأمر. وتبعاً لذلك سعى التاهرتي لبلوغ منيته وتحقيق هدفه بوسائل شتى، تظهر إصراره على تحقيق مراده، منها:

- انضمامه إلى أتباع الثائر ابن أبي محلي، لوجوده ضمن المأسورين من أتباع هذا الثائر، كما ذكر التمنارتي في قوله الذي مر قريباً أعلاه. ولعل التاهرتي اغتر بما أظهره هذا الثائر من القوة والمنعة فضلت بالغا مراده، ومضى نفسه بالوصول على يديه إلى الحكم والإمارة عند انتصاره على السلطان السعدي المولى زيدان، غير أن مقتل ابن أبي محلي وانهماز أتباعه أمام جيوش السعديين بدد آمال التاهرتي مدة من الزمن قبل أن يُظهر طموحه إلى الحكم مرة أخرى ويسعى لتحقيقه.

- استغلاله تصدره حلقة للتدريس بالجامع الأعظم بمدينة تارودانت لنشر أفكاره المسمومة بين طلبته، ومن خلالهم بين أسرهم لجمع الناس حوله وتكوين حاشية تؤازره وتشد عضده، غير أن هذه الحيلة لم تنجح لتفطن الطلبة لقلة بضاعته العلمية، وضحالة زاده المعرفي، ولتصريحه لطلبته بمخططاته الثورية. ولا يبعد أن يكون التمنارتي قد واجهه بما يروج له من أفكار في حلقة الدراسية، وأوقفه عن التدريس لعدم أهليته العلمية، ولتحريضه لطلبته على الخروج على ولي الأمر آنذاك. وفي ذلك قال التمنارتي: "فجلس له [أي للتدريس] في جامعها شهراً أو أقل، فرأى الطلبة جموحه وقلة تحقيقه، ويقول لهم: "رأيتُموني في هذه الصفة ولا بد لكم أن تروني في صفة أخرى. يشير لما أضمره مما صرح به الآن في أوراقه، فتركوه"<sup>2</sup>.

- التقرب من أمراء إيليغ<sup>3</sup> السملالية بنية استغلال قربه منهم لتغذية أطماعه القديمة بالإمارة، فقد صاهر التاهرتي أحد أبناء عمومة الأمير أبي الحسن السملالي، وهو أحمد بن الحسن بن أحمد بن موسى السملالي، وكان التاهرتي يحرضه على الخروج على ابن عمه حتى يتخلص من هذا الأمير على يد صهره ذاك، فيخلو له الجو وينقض على الحكم متى ما انتهى إلى صهره، فلما لم يتحقق مأمول التاهرتي، ولا سارت مخططاته وفق ما خطط له، أسرع إلى اغتيال صهره بالسهم مخافة

1- انظر ترجمته في معلمة المغرب، 1/ 173.

2- رسالة الحذار، ص: 149.

3- انظر تأسيس مدينة إيليغ ومراحل توسع الإمارة الإيليغية في: إيليغ قديماً وحديثاً، ص: 60 فما بعد.

ذة.أمنة الراضي

افتضح أمره، يقول التمنارتي مخاطبا التاهرتي: "وأنت الذي وقع منك هذا الجرم العظيم بصهرك، حفيد قطب المغرب أحمد بن الحسن بن ولي الله القطب الغوث سيدي أحمد بن موسى الجزولي رضي الله عنه، خدعته بحيلك وأنت تنفخ له في مدينة ابن عمه أبي الحسن وتطيرها، وزوجك بنته على ذلك، ثم لما طلبك بالوفاء، رميت له أسباب الحاجة في الغرب والغزو، فذهبت به إلى تادلا فقتلته بالسم لتستريح من شريطته، فطُلّ دمه، ولما نجوت من فتكتك ورأيت الناس كلهم عفا عنها، استعليت لطلب الملك وذمّ أمراء الوقت وعلمائهم، وكيف لا تطلبها والجو خال لك ولأمثالك!"<sup>2</sup>.

- التجاؤه إلى بعض القبائل السوسية: تنقل التاهرتي بعد انكشاف أمره في تارودانت بين قبائل سوس بحثا عن يدعمه في مشروعه، فحطّ الرحال بقبيلتين: أولاها قبيلة هشتوكه، وقد أظهرهم على نيته في طلب الحكم، فاجتمع عليه منها جماعة، واتخذ من بعضهم كتابا يكتبون له لباقي القبائل، يدعوهم للخروج على الأمير يحيى الحاحي وزيدان السعدي، ثم طرده منها بعض خاصة هشتوكه. وأما ثاني القبيلتين فهي قبيلة المناهية، فقد فر التاهرتي إلى مدشر تينزرت بقبيلة المناهية الواقعة قرب مدينة تارودانت، فتجمعت القبيلة حوله بعدما أبدى لهم نيته في السيطرة على الحكم، وأقنعهم بالخروج على أمراءهم، ووعدهم بالعطايا والغنائم والإقطاعات من الأراضي إذا تحقق مراده، فقويت بذلك شوكة التاهرتي وزادت ثقته باقتراب تحقق حلمه، فصار يدعو لنفسه جهارا، وينظر التمنارتي الذي وقف حجر عثرة في وجه أطماعه بثقة وحزم ظاهرين.

غير أن كل هذه الحبال التي كان التاهرتي ينسجها لم تنفعه ﴿كَلِمًا أَوْ كَلِمَاتًا﴾ نارا للحري أصفأها الله ويسعون في الأرض فسادا<sup>3</sup> ولم تؤد إلى شيء بفضل الله أولا، ثم بفضل مواجهة التمنارتي له ومناظرته بالحجج الدامغة والبراهين الساطعة التي تكشف كذبه وتدليسه على الناس، وتوعية الناس بحقيقة هذا الرجل في مؤلف "رسالة الحذار من مكائد الغرب إذا غشي الدار".

## 2- التعريف بالمناظرة:

### أ- وصف المناظرة:

يرجع الفضل في وصول هذه المناظرة إلينا، والوقوف على فقراتها والاتصال بأفكارها إلى العلامة التمنارتي من جهتين: جهة إقدامه على مناظرة هذا الثائر، أداء لدوره الحضاري في حماية الدعائم الفكرية والحضارية لوطنه، تحذوه غيرته الدينية وإخلاصه الواضح لمقدساته الوطنية. وقد

1- طُلّ الدَمُ: إذا أهدر ولم يثأربه، لسان العرب، مادة طلل.

2- رسالة الحذار، ص: 196.

3- سورة المائدة، من الآية 66.

ذمة آمنة الراضى

أسعفته في تلك المهمة الصعبة، ثقافته المتنوعة وقوة عارضته اللغوية. أما الجهة الثانية، فهي حرص هذا العلامة على جمع أجزاء مناظرته لهذا الثائر، ونظم عقدها في مؤلف خاص مخطوط سماه (رسالة الحذار من مكائد الغريب إذا غشي الدار)، وقد عُرفت له نسختان: أولاهما تامة تقع في 70 صفحة، مسطرتها 19 سطرا في الغالب، وفي كل سطر نحو سبع كلمات، مقياسها 16 × 12، وهي منقولة عن مبيضة العلامة التمنارتي المكتوبة بخطه أواخر صفر سنة 1050هـ، أي بعد حوالي شهرين من فراغ التمنارتي من تحريرها أوائل محرم من السنة نفسها. والنسخة مكتوبة بخط مجوهر متوسط الجودة، يتسم بكبر حجمه ووضوحه. وتبتدئ هذه النسخة بقول ناسخها: "قال مجتهد وقته وفريد إقليمه ومصره، المصقع الدراكة أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن أحمد التمنارتي"، وتنتهي بقول الناسخ: "انتهى ما وجد في مبيضة الشيخ المؤلف البحات المصنّف بحمد الله تعالى وعونه وتوفيقه ويمنه في العشر الأواخر من صفر عام خمسين وألف، أرانا الله خيره ووقانا شره، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأولاده وأزواجه وذريته وأصحابه وأصهاره وأنصاره وأشياعه وأحبته وأمته، وعلينا معهم أجمعين والحمد لله رب العالمين".

أما النسخة الثانية من رسالة الحذار فهي مخطوطة مختصرة تقع في 27 صفحة، مسطرتها 19 سطرا، في كل سطر 11 كلمة، ومقياسها 16 × 12، ويبدو أنها تمثل النسخة الأولية للمناظرة.

وقد حققت هذه الرسالة في إطار بحث نلت به شهادة دبلوم الدراسات العليا المعمقة، ضمن وحدة التواصل وتحليل الخطاب في الأدب العربي القديم بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير، تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد الحاتمي، ونوقشت بها يوم 12 يناير 2005م، وهي الآن قيد الطبع.

## ب- سبب المناظرة ومناسبتها:

يُسَلِّم النَّظْرُ في المناظرة من جهة، والإحاطة بسيرة المتناظرين من جهة أخرى، إلى أن وراء انعقاد فصول هذه المناظرة سببا مباشرا ظاهرا وهو رفض التاهرتي فتوى للتمنارتي حول حكم أرض العنوة<sup>1</sup> أفى بها من استفسره عن حكمها. فقد نقض التاهرتي ما أفى به قاضي تارودانت ومفتيها، فأراد التمنارتي توضيح الأدلة الشرعية التي أسس عليها فتواه حتى لا يغتر عامة الناس بكلام ذلك الخارج عن الجماعة.

1- الأرض المفتوحة عنوة: التي "فُتِحَتْ بالقتال والقهر، أي قوتل أهلها حتى غلبوا عليها". الفوائد الجمعة، ص: 518، الهامش: 1918.



كما كان وراء هذه المناظرة سبب آخر خفي، هو رغبة التاهرتي في انتزاع اعتراف قاضي الجماعة في تارودانت بأحقية في الملك وإقناع الناس بمشروعية طموحاته في الإمارة، وسعي التمنارتي من جهة ثانية إلى مواجهة أطماع هذا الثائر وإبطال مخططاته. وقد صرح التمنارتي بالدوافع الثاوية خلف مناظرته للتاهرتي فقال: "فرايت أن أبكت هذا الرجل الواقع في هؤلاء الأئمة بأشد مما بكت به الأول، لأن هذا معه مسكة من الطلب، لكنه غلا بها وزعم بها حماية لدين الله وصونا لحوزته، ودفاعا لوصائم التوهين عن حملته. فأقول والله المستعان: يجب أولا أن أقدم نص السؤال ونص الجواب، ثم أتبعه بما يناقض به الجواب، ثم بما يناقض ما نقض به من كلامه نفسه ومن كلام غيره، ثم بخاتمة تشتمل على كشف عواره وإيقاظ غروره"<sup>1</sup>.

وبذلك فالمناظرة - موضوع البحث- جاءت في إطار مواجهة التمنارتي لهذا الثائر الذي جاء لخرق أساس الثوابت الحضارية للدولة المغربية وهو الإمامة العظمى المؤسسة على البيعة الشرعية<sup>2</sup>، التي أطرت بناء الدولة المغربية منذ بدايتها على عهد الأدارسة، إلى أيامنا هذه على عهد صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده، سليل ملوك الدولة العلوية الشريفة الأماجد. وهي كما يدل عليه عنوانها، مؤلف يحذر فيه التمنارتي الناس من الحبال التي يحيكها لهم التاهرتي: لفظة "رسالة" تحيل على نوع من التأليف عرف منذ القديم في ثقافتنا العربية الإسلامية، وشكل النواة الأولى للمعاجم العربية، وهي تفيد أيضا شكلا من أشكال الكتابة المكونة لأدب الترسل. فالمؤلف في أصله مراسلات تبادلها التمنارتي مع التاهرتي في صورة مناظرة، وهو إلى جانب ذلك، خطاب لغوي مكتوب موجه من مرسل هو التمنارتي إلى مستقبل هو عامة الناس وخاصة السوسيين منهم. ولفظة "الحذار" تبين الهدف من تأليف رسالة الحذار، وقوله "من مكائد"، تنبيه إلى حقيقة التاهرتي وأنه إنما يدعي الورع والزهد، فهو يكيد للناس ولولاة أمورهم الشرعيين لتحقيق أطماعه، ومن كان الكيد صفة له فحقيق بالناس الحذر منه. ولفظة "الغريب"، تختصر رأي التمنارتي في التاهرتي، وتظهر شكه في ادعاءاته بخصوص اسمه وأصله وموطنه، فضلا عن ورعه وزهده، والغريب مظنة للريبة في أمره غالبا. ولفظة "إذا" للدلالة على أن أمره قد ظهر وأن طمعه قد بدا وانتشر. ولفظة "غشي" للتنبيه إلى أن هذا الغريب جاء بلاد سوس وقصده وعلاه<sup>3</sup>، ولفظة "الدار" كناية عن الوطن وعن منطقة سوس التي يعيش فيها التمنارتي ومعاصروه، ويجدون في كنفها الحياة الهنيئة والطمأنينة والأمان، فكانت

1 - من بداية النسخة الأولى المخطوطة لرسالة الحذار المشار إليها سابقا بالنسخة الثانية، ص: 1.

2 - انظر حوله: الإمامة العظمى في المملكة المغربية، التأصيل والضوابط والمقتضيات، أعمال ندوات الدورة الثانية للموسم السنوي للمدارس العتيقة بالمملكة المغربية، المنظمة من قبل مؤسسة سوس للمدارس العتيقة، ط1، ربيع النبوي 1436هـ/يناير 2015م، تنسيق: المهدي بن محمد السعيد.

3 - "غشيه غشيانا: جاءه، (الصحاح في اللغة، مادة غشا). وفي لسان العرب من المادّة نفسها: "وقوله: وإن غشنا من ذلك شيء، من القصد إلى الشيء والمباشرة [...] غشيتهم الرحمة وغشينا ألوان أي تعلوها".

عنده بمثابة الدار التي ترمز للدفع والهناء عند الناس. وقد حقق التمارتي باستعماله لفظة الدار في عنوان هذه المناظرة- إضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه- الغرض من مؤلفه، وهو تحذير الناس من الخطر الجسيم الذي يمثله التاهرتي على منطقهم السوسية، واستثارة حميتهم بتذكيرهم بضرورة الدفاع عن الدار الكبرى التي تجمع شملهم جميعا وهي منطقة سوس، وما تلاها من أرض المغرب. وبهذا يمكن القول باطمئنان، إن التمارتي كان موفقا وذكيا في اختيار عنوان مؤلفه، وهو ما لا يتفق لكثير من المؤلفين<sup>1</sup>، فإنَّ عنوان "رسالة الحذار من مكائد الغريب إذا غشي الدار" يختصر موضوع الكتاب والهدف من تأليفه، وبذلك يفتح شهية من سمع به أو انتهى إلى علمه صدوره، ليطلع عليه ويتتبع فصوله قراءة وتفهما، خاصة أنه صيغ بأسلوب السجع الذي يضفي على الكلام العربي مسحة من الجمال الموسيقي والبهاء الأسلوبى.

وقد اتخذ التمارتي المناظرة منهجا لرد أطماع هذا الثائر في الحكم والإمارة، لعدة اعتبارات:

1- نجاعتها في مواجهة المدعين بمقارعتهم بالحجة والبرهان، لإظهار حقيقة أباطيلهم التي قد تخفيها تدليسات أصحابها، واختبار مدى صمودها أمام النقاش. ومعلوم أنه لا يصمد أمام سهام الناقدين ونظرات الفاحصين، إلا الحق والكلام الرصين.

2- دخول مناظرة المتمردين على ثوابت الأمة، ومحاولة ردِّهم عن غوايتهم، ضمن المهام العلمية والدينية والحضارية لعلماء الأمة، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "كل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقه ولا وقى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور والطمأنينة في النفوس، ولا أفاد كلامه العلم اليقين"<sup>2</sup>.

فإن علماء الأمة المتمكنين هم محتسبون على العلم الشرعي الموثوق المأخوذ من منابعه الصافية، وعلى الفتوى الشرعية المبنية على الاجتهاد الصحيح، الذي يضطلع به من تحققت فيهم شروط الاجتهاد المعروفة، ورحم الله ابن تيمية الذي أجاب من أخذ عليه كثرة إنكاره على المترايمين على الفتوى في عصره، فقال: "أ يكون على الخبازين والطباخين محتسب، ولا يكون على الفتوى محتسب"<sup>3</sup>.

1 - ومن ذلك ما نبه إليه مصطفى لطفي المنفلوطي من عدم توفيق كثيرين في اختيار عناوين مؤلفاتهم، حين يكون العنوان غير منسجم مع موضوع الكتاب ولا دالا عليه، قال: "لقد كثرت الاختلاف بين العناوين وبين الكتب حتى كدنا نقول إن العناوين أدل على نقائضها منها على مفهوماتها [...] وإن العنوان الكبير حيث الكتاب الصغير، والكتاب الجليل حيث العنوان الضئيل"، النظرات: 105/2، الطبعة 5، 1925م، المطبعة الرحمانية مصر.

2- درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، 357/1، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط2، مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

3- انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن القيم الجوزية، 4/ 167، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1411هـ/ 1991م.



وتبعاً لذلك تعكس مناظرة العلامة التمنارتي للثائر التاهرتي وعيَ علامة سوس وقاضيهما في عصره، بواجبه الديني والحضاري تجاه أمثال هؤلاء الخارجين عن إجماع الأمة، والسّاعين لنقض أسباب وحدتها ولحمتها، والمترايين على الفتوى الشرعية بدون وجه حق، حين يَبين حقيقته ونفى عنه الأهلية العلمية والخلقية لتوَيّ الفتوى الشرعية، مبينا أنه إنما ادّعى العلم ليتوصّل به لجمع الأنصار وتحقيق مطامعه في الإمارة. مما يظهر صدور التمنارتي في مواجهته للتاهرتي عن فكر الاحتساب الذي يوجب على علماء الأمة الراسخين، حماية الدين من كل من يستغله لتحقيق أغراضه الخاصة، على حساب المصلحة العامة للأمة، ذلك أن "الدعوة محصورة في أهل العلم، فهم الدعاة وهم المجددون، لا يقبل من غيرهم قول، ولا يسمع لأحد سواهم فيها كلام [...] فحينما تكون الأمور عادية لا يتطلب الحال من العلماء إلا التوعية والتبليغ تعليماً وإرشاداً [...] ولكن عند الانحراف عن الجادة وظهور البدع وعموم الضلالات، فإن الوضع يتطلب ما هو أكثر من التبليغ والتذكير، أعني التجنيد والمرابطة والجهاد للقضاء على البدعة والزيف والإلحاد"<sup>1</sup>.

ومن هذا المنطلق، سخر التمنارتي فكره وقلمه لمناظرة هذا المتعالم لتحقيق هدفين أساسيين هما:

- أولاً ثني التاهرتي عن مطامعه في الإمارة، وردّه عما هو بصده، من تأليب الناس على أمرائهم الشرعيين، حين دعا لنفسه ليصير عليهم حاكماً، وذلك بتذكيره بمقتضيات البيعة الشرعية المعقودة لولي الأمر، وعلى رأسها السمع والطاعة والوفاء بالبيعة. فإنه لا تخفى أهمية المناظرة- في تاريخنا الإسلامي بل وفي التاريخ الإنساني عامة- في التخلص من الأفكار الفاسدة، لأنها تقوم على مواجهة الأفكار بعضها ببعض، ومقارعة الحجج بنظرائها، فيظهر الغث من السمين، والحق من الباطل.

- أما ثاني الهدفين اللذين سعى التمنارتي إلى تحقيقهما بمناظرة التاهرتي، فهو نصيح الناس وتوعيتهم بما يحكيه لهم هذا الخارج على جماعتهم، وما تنطوي عليه دعوته لنفسه من مكائد وأخطار، امتثالاً لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "الدين النصيحة"، قلنا لمن؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم"<sup>2</sup>. وذلك بمناقشة أفكار التاهرتي وإظهار خروجها عن جادة الشرع الحكيم الذي دعا إلى جمع الكلمة لا إلى تفرقتها، وإلى سيادة المحبة والتآزر المتبادلين بين الراعي والرعية، لا إلى غير ذلك فـ "العلماء هم الرعاة للعامة، فيجب عليهم الإخلاص في نصح الأمة بما يرضي الله، ويصلح الأمة دنيا وديناً"<sup>3</sup>.

1 - دور علماء المغرب في الدعوة إلى الله قديماً وحديثاً، عبد الله غنون، دعوة الحق، السنة 22، العدد 1، ربيع الثاني- جمادى الأولى 1401هـ/ موافق مارس 1981م، ص: 49.

2 - أخرجه الإمام مسلم في باب بيان أن الدين النصيحة، كتاب الإيمان، حديث رقم 55. انظر: صحيح مسلم، 44/1، تحقيق: أبو قتيبة نظرين محمد الفارابي، دار طيبة، ط1، 1427هـ/ 2006م.

3- علاقة العلماء بالحكام والرعية، أ. د. محمود يوسف الشويكي. ضمن أعمال المؤتمر العلمي الثاني: "العلماء... واقع وآمال"، مجلة جمعية القدس للبحوث والدراسات الإسلامية، عدد خاص بالمؤتمر، ص: 621.



ذمة آمنة الراضى

والى ذلك، فهذه المناظرة تنويرٌ لأفهام العامة والخاصة، وإظهارٌ للحقائق ناصعةً أمامهم، وتوجيهٌ لهم من بعيد لتوخي الحيطة والحذر من التاهرتي وأمثاله.

## ج- فقرات المناظرة:

تتألف مناظرة رسالة الحذار من الفقرات التالية:

- ديباجة: وهي مدخل الرسالة وبوابتها التي يطلع المتلقي من خلالها على المؤلف، ولذلك يولمها الكتاب عناية خاصة ويجتهدون في تجويدها. وقد اشتملت ديباجة هذه المناظرة على عناصر عديدة هي:

• الافتتاح: تضمّن الحمدلة<sup>1</sup> متبوعة بدعاء تخير له التمنارتي من المعاني والألفاظ، ما يلائم موضوع مؤلفه، لتهيئة المتلقي فكرياً ووجدانياً بأن يلمّ منذ البداية بالمجال العام الذي سيُدار الكلام حوله في الكتاب، مما من شأنه ضمان حسن استيعاب ما يرد في المؤلف، فقد سأل التمنارتي الله التوفيقَ لصالح الأعمال وأحياها إليه، والثباتَ على هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والمعونة لنصح الأمة، والنصرَ على المحتالين المدّعين، فقال: "ونسأله سبحانه أن يوفقنا لعمل يرضاه، ويجعلنا من أهل سنة نبيه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم، ومِمَّن أعان أمته على الحق وأتباع هُداياه، وأيدنا على الذين شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله، وصرف عنا بحوله حيل المحتالين واغتيال المغتالين وختل الختالين..."<sup>2</sup>.

• التلخيص: ويراد به انتقال الكاتب مما افتتح به مؤلفه إلى الحديث في موضوع الكتاب، واختار له التمنارتي لفظ "هذا".

- مقدمة: تحدث فيها التمنارتي عن الموضوع الأساسي لرسالة الحذار، فحذّر فيها من المحتالين والخداعين، وبيّن أنواع المكائد التي يتوصّل بها المخادعون إلى سرقة أموال الناس، وعرض قصصاً واقعية لأناس انطلت عليهم حيل وأكاذيب هؤلاء المحتالين، ووثقوا بهم فتهبوا أموالهم.

وهي مقدمة طويلة تعمّد فيها التمنارتي الإسهاب، حتى تستقر معانيها في الأذهان، ويتحقق الهدف منها بلزوم المتلقي الحذر من المحتالين، ثم ختم مقدمة المؤلف بالتنبيه إلى دخول التاهرتي في زمرة هؤلاء المخادعين.

- عرض الرسالة: وهو جوهر المؤلف والغرض الذي سيق إليه الكلام في الديباجة والمقدمة. وقد تضمنت الرسالة المكونات التالية:

1- قال صلى الله عليه وسلم: "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أقطع"، أخرجه أبو داود في سننه، الحديث رقم 4840؛ وأورده النووي في الأذكار من كلام سيد الأبرار، ص: 94، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مطبعة الملاح- دمشق، 1391هـ/ 1971م.

2- رسالة الحذار، ص: 134.

• ذكر الغرض من تأليف الرسالة، وهو توثيق وقائع المناظرة التي دارت بين التمنارتي والتاهرتي، حتى يأخذ الناس حذرهم من مكائد هذا الدعي ويأمنوا شره.

• عرض الرسائل التي تبادلها التمنارتي مع التاهرتي، وابتدأ برسالة التاهرتي في نقض فتوى التمنارتي حول أرض العنوة، ثم أتبعها برده عليه، وهكذا عرض الرسائل مرتبة حسب تسلسلها الزمني، فيعرض الواحدة ثم يتبعها بما قاله الطرف الآخر في الرد عليها، وبذلك بلغ مجموع الرسائل المثبتة في هذا المؤلف والتي تمثل ما تبادلته المتناظران، ست رسائل ثلاث للتاهرتي وثلاث للتمنارتي.

- خاتمة: ختم العلامة التمنارتي مؤلفه بدعاء مطوّل يلخّص موضوعه، فدعا بالحفظ من شر الثوار والفتانين الذين يصطادون في المياه العكرة، ويستغلون الاضطرابات والأزمات لتحقيق أطماعهم الخاصة، كما دعا الله بالهداية والتوفيق لكل ما فيه الخير وصالح البلاد والعباد.

## د- القضايا موضوع النقاش في المناظرة:

دار السجال الفقهي والفكري بين التمنارتي والتاهرتي في هذه المناظرة حول جملة من القضايا أهمها:

- حكم أرض العنوة: وهو الأساس الذي أثار النقاش بين المتناظرين، والقضية الجوهرية التي بُنيت عليها مناظرتهما، حين رفض التاهرتي ما أفتى به التمنارتي في نازلة حول حكم الأراضي المفتوحة عنوة، فراسله في ذلك أملا في تغيير موقفه فيتمكن هذا الثائر من الاستحواذ على الأراضي بنزعها من أصحابها. وبهذا نجد في المناظرة موقفين متناقضين من هذه القضية: أولهما موقف التمنارتي الذي أوضح - فيما أفتى به في النازلة المرفوعة إليه- الرأي الشرعي في أرض العنوة، وبين الأقوال الثلاثة للأئمة فيها بحسب ما ذكره الإمام القرافي، بأن تكون وقفا لبيت المال أو أن يقسمها الإمام بين المجاهدين كسائر الغنائم، أو يخير الإمام بين وقفها وقسمتها، فإذا حكم الإمام بأحد هذه الأقوال رُفع ما سواه، ومن ملكه الإمام شيئا منها صار ملكا له، لا يحق لأحد التصرف فيه.

ولما كان التمنارتي متفطنا إلى مراد التاهرتي من رد فتواه تلك، وأنه إنما يريد أن يستخرج منه فتوى تسمح له بانتزاع الأراضي من أصحابها للاستيلاء عليها وإقطاعها أتباعه، يستدرجهم ويطمعهم بها، ليساعده في تحقيق ما متى به النفس طويلا من الإمارة والحكم، فقد قطع التمنارتي الطريق على التاهرتي حين صرح بعدم جواز التصرف في شيء من العنوة إلا بأمر الإمام الشرعي، فقال: "لا يحل لأحد التصرف في شيء منها [أي أراضي العنوة] إلا بأمر الإمام الذي له النظر في العنوة، وأن كل من أكل منها أو انتفع بها دون أمره، فهو غاصب متعد"<sup>1</sup>.

1-رسالة الحذار، ص: 166.

ثم زاد التمنارتي على ذلك- إمعانا في سد باب طمع التاهرتي فيما بأيدي الناس من الأراضي- فبسط الكلام في بعض الأحكام المرتبطة بأرض العنوة مثل حكم الحوطة<sup>1</sup>، وأوضح حكمها استنادا إلى كلام كل من أبي مهدي عيسى السكتاني<sup>2</sup>، والإمام محيي الدين النووي اللذين أكدا عدم جواز منازعة الناس في أملاكهم والزامهم بإثبات ملكيتها، وعرض قول السكتاني: "فلا يجوز لمن بعدهم [أي الحكام والأئمة الذين ملكوا الناس أرض العنوة] البحث في أفعالهم ومقاسحة الناس في أملاكهم، وطلبهم بأسباب تملكها"<sup>3</sup>.

كما عرض التمنارتي كلام الإمام النووي في منع الحوطة، لما تؤدي إليه من أضرار حينما قال ضمن كتاب منه إلى سلطان الشام: "وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة أنواع من الضرر على أملاكهم لا يمكن التعبير عنها، وطلب منهم إثبات ما لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين، بل من في يده شيء، فهو ملك له لا يحل الاعتراض عليه فيه، ولا يُكَلَّف بإثبات"<sup>4</sup>.

وتوقف عند مسألة ارتفاع حكم العنوة، مبينا ارتفاعه في حالات ثلاث، هي: 1- ما قسمه الإمام بين المجاهدين لأنه يصير ملكا لهم فيرتفع عنه نظره. 2- ما أقر الإمام أهله على ملكيته من الأراضي المفتوحة. 3- الأراضي التي لم تتم فيها العنوة كلية، كتلك التي أسلم عليها أهلها أو صالحوا عليها أو أحيوها.

أما ثاني الموقعين من حكم أرض العنوة، فهو ما ذهب إليه التاهرتي الذي صرح برفض حكم أرض العنوة كما بينه التمنارتي، وقال بعدم جواز امتلاك أي من المسلمين لأرض العنوة، مدّعا أنها كلها تكون للإمام، واتهم التمنارتي بإبطال حكم شرعي حينما قال بارتفاع حكم العنوة عن بعض الأراضي، وردّ ما ذهب إليه التمنارتي حول منع الحوطة في أرض العنوة، فقال: "فبطل القول بمنع الحوطة في أرض العنوة على الجملة، وبقي الحكم في أرضها على ما قاله الله عز وجل في محكم كتابه، وقاله رسوله في سنته وعمل به صلى الله عليه وسلم، وعمل به الخلفاء بعده وأولو الأمر إلى الآن. فثبت حكم الحوطة في أرض العنوة لدرء مفسد الدين والدنيا، ورعي مصالح ذلك كله بحول الله وقوته على سبيل الشرع والحق والعدل [..] فالعدول عن ذلك تحريف، والميل لغيره زيغ محدث"<sup>5</sup>.

1- عرف التمنارتي الحوطة بأنها: "ادعاء ما بأيدي الناس، وطلبهم ببيئات ملكه". رسالة الحذار، ص: 180.

2- عيسى بن عبد الرحمان، من كبار علماء المغرب في القرن الحادي عشر الهجري. أخذ على علماء تارودانت ومراكش وفاس، وتولى التدريس والقضاء بتارودانت ثم بمراكش، توفي سنة 1062 هـ انظر: ترجمته في معلمي المغرب، 15/ 5020.

3- رسالة الحذار، ص: 165.

4- نفسه، ص: 154.

5- رسالة الحذار، ص: 158.



وينبغي التنبيه هنا أن مناقشة قضية حكم أرض العنوة في القرن الحادي عشر للهجرة، يعكس الحالة الفكرية والسياسية التي عاشها المغرب بعد انقراط عقد السعديين، فتعرضت الممتلكات والأراضي للنهب والغصب بسبب انقسام البلاد إلى إمارات متنازعة، نتج عنه طرح قضية الملكية وحكم الأراضي لمن لا يتوفر على وثائق تثبت ملكيتهم لأراضيهم، وإلا فقد حسم العلماء الكلام في حكم أرض المغرب منذ زمن بعيد.

- طمع التاهرتي في الملك:

يعدّ تعلق التاهرتي بالإمارة وسعيه بشتى الوسائل لبلوغها، من القضايا التي أدير حولها النقاش بين المتناظرين في "رسالة الحذار" للعلامة التمنارتي. فإذا كان التاهرتي قد صرح مرات عديدة في أثناء رسائله إلى التمنارتي بطموحاته العريضة في الحكم والرئاسة، معلنا أحقيته بها وتماها أهليته لتولّيها، إعلانا يكشف ما تحقق لهذا الثائر على الثوابت الراسخة لبلده- المؤسسة على البيعة الشرعية لولي الأمر والإخلاص لمقتضياتها- من أسباب الغلبة والعصبية بعد اجتماع الناس حوله في تينزرت<sup>1</sup> بمنطقة المناهية شرقي تارودانت، حتى بدت أحلامه قريبة المنال، وبدأت أمانيه العريضة تجد لها طريقا للتحقق على أرض الواقع، فصاريعلن ما أسره زما طويلا من السعي إلى الحكم، وراح يجهر بالدعوة إلى نفسه في تحدّ واضح لأولي الأمر وللشرعية ولحارس الشرعية، قاضي الجماعة في تارودانت العلامة التمنارتي، كما يظهر من قول التاهرتي ضمن رسالة منه إلى التمنارتي، مما جاء فيها: "وأما ما نسبته إلي [أي التمنارتي] من التسلطن، فإنما طلبت ذلك في أول عصر الشبيبة وأوان الصبا[...]. ولما رأيت أتباع الهوى والأغراض الفاسدة، والأمانى الخاسرة قد كثرت في الناس، سكّتهم عنهم سكوت صفح وانتظار لا سكوت ترك وإدبار، وإلا فما أنا بين أظهرهم وبمراى منهم فليبلغ الشاهد الغائب، وليناد القريب البعيد إلى الحركة إلي، والأخذ على يدي، مما أنا مشغول به من أمر ما فرض الله علي من وظيف وقتي، وما زلت أدعو أعيان الناس وأكابرهم إلى صلاح هذا المغرب"<sup>2</sup>.

وقد فضح التمنارتي أطماع التاهرتي في الحكم، فقال: "وقوله: فإن الإمامة لم تنعقد لأحد على وجهها في هذا المغرب منذ مات مولاي زيدان وسيدي يحيى بن عبد الله، هذا طرحٌ لولاية من ولّاه المسلمون بمراكش وسوس بعدهما، وتوهين لمن عقدوا له، وعدم الرضى به. وبمثل هذه الدسيسة طعن في إمارة مولاي زيدان بالغرب، وإمارة سيدي يحيى بسوس، إذ زعم أنه يطلب نصب الخليفة العدل في عهدهما وبمحضر رؤساء المغرب، فهو إذا نابذ للولايات القديمة والحديثة، وانتظرها لنفسه

1- تينزرت قرية برأس الواد شمال تارودانت، انظر: مادة التنزرتي في معجم المغرب، 8/ 2757.

2- رسالة الحذار، ص: 189.

لقوله: ولما رأيت الفساد وأتباع الهوى سكت عنهم سكوت صفح وانتظار، لا سكوت ترك وإدبار، وإلا فيها أنا بين أظهرهم وبمرأى منهم، فليبلغ الشاهد الغائب، وليناد القريب البعيد للحركة إلي والأخذ على يديّ، أقول: هذا صريح في طلبه هذا الأمر وإظهار الإعجاز عن معارضته فيه، فلا وجه لإنكاره نسبتّه إليه حينئذ [..] نسأل الله تعالى أن يعين الولاة ويوقّقهم لدرء المفاسد عن أحوال المسلمين. وقد كنت أظن أنك أيها التاهرتي لم تهجم على هذا الأمر هجوما حتى ورد علي ما كتبتّه الآن<sup>1</sup>.

وقد رد التمنارتي على التاهرتي بما ينسف خططه الرامية إلى الاستيلاء على الحكم، ويُلزِمُه ضرورة طاعة أولي الأمر الذين وُلّوا إمامة الناس، فقال: "فاعلم أن المصالح كلّها والأمن والعافية معقودة بنواصي الأمراء والولاة، وقد أوجب الله طاعتهم على الأنام، ومعاونتهم على قمع طوائف البغاة، وجعلهم عيون الرعيّة في حفظ دينهم ودنياهم، من أهل الشقاق ومردة العصاة، وأيّدهم بأسنة الحق وألسنة الصدق لإقامة حجة الله، ورفض أهل الزيغ والنفاق، وشراذم الغواة، وجعل من أطاعهم وأعانهم في كنفه وفي كنف أولئك الحُماة، وجعل من عصاهم عرضة لصرصر حر النكبات، وأعاصير الفتن والآفات. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي أكّد أمته باتباعهم، ونهى عن شقاقهم فيما قُرّب أو بُعد من الجهات، وحذر صلى الله عليه وسلم من فتنة الدجاجيل في كل وقت من الأوقات"<sup>2</sup>.

- ادعاء التاهرتي الشرف:

أدّى طمع التاهرتي في الإمارة إلى ادّعائه الشرف، لما علمه من أهمية النسب القرشي في الإمارة الشرعية، فأعلن انتسابه إلى آل البيت، واتصال نسبه بالنسب الحسيني الفاطمي الهاشمي، لجرّ الناس لقرصه، واستجداء تعاطفهم ودعمهم، لما علمه من حب المغاربة للرسول صلى الله عليه وسلم، وتقديرهم لآل بيته الأطهار، واستدل على صحة دعواه بالأُمور التالية:

- 1- إجماع أمة الإسلام منذ القديم على انتسابه للنسب الحسيني القادري النبوي.
- 2- التواتر: أي تناقل الناس شرفه في سوس والغرب والقبلة حوالي ثلاثين سنة.
- 3- ثبوت نسبه في كتابه شمس الهداية.
- 4- اشتهار شرفه في مكة حتى ذكره المؤلفون كيجي المغيلي.
- 5- السماع: أي شهادة أهل العلم والعدالة بثبوت نسبه، وذكر منهم أبا القاسم بن أحمد الهوزالي وعبد الله بن علي السكتاني من عدول سوس.

1- رسالة الحذار، ص: 190.

2- نفسه، ص: 148.



غير أن فطنة التمارتي من جهة، وحرصه الشديد على حماية السلطة الشرعية التي مثلها آنذاك الأمير أبو حسون السملالي، ورغبته في وأد نوازع الفرقة والفتنة في مهبها، دفعته للوقوف في وجه التاهرتي ومناقشته، حماية للناس ولأعراضهم وأموالهم من جرّاء ما قد يلحقهم من الأذى والضرر إن ظهر أمر التاهرتي، الذي لن يتم له الأمر إلا بعد التغلب على الأمير الإليغي، ودون ذلك - كما هو معروف - معارك وصراعات تزهق فيها الأرواح وتنتهك الحرمات، وتغصب الممتلكات وتضيع مصالح العباد والبلاد.

ولمّا تمادى التاهرتي في ادّعاء الشرف والسّعي للإمارة، بالخروج على ولاية الأمر وتأليب الناس عليهم، وتحريضهم على نزع بيعتهم والالتفاف حوله بدلا عنهم، واجهه قاضي تارودانت العلامة التمارتي بحقيقة أمره وكشف حبالاته وخدّعه، بل حارب به سلاحه حين عرض عليه أدلة كذبه الواضحة، وتحذّاه بأن يُمهّله عاما كاملا، ليُقدّم له إقرارا مكتوبا ممّن زعم - أي التاهرتي - أنّ شرفه معروف لديهم وهم: قاضي مكة المكرمة والمدينة المنورة والقاهرة وإفريقية وتلمسان ومراكش وفاس، يشهد فيه هؤلاء جميعا بثبوت نسبة التاهرتي للشرف الحسيني، فإن فعل صدّقه وقام بحقه وإلا أدّبه على افتراءاته، وفي ذلك قال التمارتي: "وحاصل الأمر أنا لا نقبل شرف هذا الرجل، إذ لم يقل به أحد من أهل المغرب، حتى يكتب له أهل مكة الذين ادّعى أن نسبه عندهم معروف معلوم، ويخاطب له عليه قاضي مكة شرفها الله وقاضي المدينة المشرفة، وقاضي القاهرة وقاضي إفريقية وقاضي تلمسان وقاضي فاس وقاضي مراكش. فإذا جاء به على هذا النمط قبلناه وقمنا بحقه، وإلا أدّبناه لفريته على منصب النبوة، ولیمسك عنا هوسه وهذيانه حتى يأتي به، وأجلّناه في ذلك عاما كاملا من محرم المبارك فاتح سنة خمسين بعد ألف"<sup>1</sup>.

- ادعاء التاهرتي الملك في آبائه:

تحلّبت أشداق التاهرتي للملك، فسعى إلى تحقيق مُنيته بكل الطرق الملتوية التي من شأنها جمع الناس حوله، فكان مما تفتق عنه فكره، أن يدّعي الملك في أسلافه، حتى يُضفي المشروعية على مساعيه الحثيثة للوصول إلى الملك، وأنه إنما يعمل لاسترجاع حق ضائع ومجد غابر، فتكون أعماله من هذا المنظور داخلية في البرور بالأجداد، حين جند نفسه وأوقف حياته لاستعادة مجدهم، فلا يُنتبه إلى قبح صنيعه حين نقض عهد البيعة المعقود لولي أمر وقته. وقد صرح التاهرتي بذلك، فقال: "وبذلك جرى عمل جميع من ملك المغرب من الملوك مثل جدنا الإمام البطل المقدام شيخ الولاية والرئاسة الإمام محمد بن عبد القوي"<sup>2</sup>.

1- رسالة الحذار، ص: 192.

2- نفسه ، ص: 178.



ذمة آمنة الراضى

لكن معرفة التمنارتي الواسعة بتاريخ المغرب، أسعفته في دفع هذه الدعوى من غريمه التاهرتي، فقال يكذّبه: "وقوله: مثل جدّنا الإمام إلى آخره، بعد قوله: بذلك جرى عمل من ملك المغرب مثل جدّنا، كذبٌ محض، فإن من أرخ ملوك المغرب من لدن إدريس إلى موالينا الشرفاء، لم يذكروا فيهم محمد بن عبد القوي، ولا في ثوارزناته، وكتبُ التاريخ بأيدي الناس"<sup>1</sup>.

- الموقف من أولي الأمر:

طعن التاهرتي في بيعة أولي الأمر الذين تولّوا الحكم في سوس بعد وفاة أحمد المنصور السعدي وخاصة الأمير أبا الحسن السملالي المعروف ببو دميعة، فحاول تقويض إمارته والكيد له، والسعي إلى سحب بساط الحكم من تحت أقدامه، بتأليب الناس عليه واتّهامه بتضييع الحقوق، وبمحاولة نشر الفتنة في أوصال الأمراء، حين كان يحرض صهره للثورة على الأمير أبي الحسن السملالي، وكان صهره ذاك أحد أبناء عمومة هذا الأمير، حتى إذا فشلت مساعيه، قتله بالسم في بلاد تادلا حتى لا تُفتضح جريمته. وقد واجه التمنارتي في هذه المناظرة أفكار التاهرتي المنحرفة، وناقشها مناقشة علمية جادة، وبين خروجه عما يجب عليه تجاه أولي الأمر، واستغل الفرصة التي أتاحتها له هذه المناظرة، فبين له ولغيره الحقوق الواجبة لولي الأمر على العلماء خاصة وعلى عموم الرعية بوجه عام، وحصرها في الأمور التالية:

- السمع والطاعة: فقد أوضح التمنارتي أن طاعة العلماء لولي الأمر من أوجب واجباتهم تجاهه، ومن تمام قيامهم بأمر الله لهم ما لم يأمرهم بمعصية، ورتب على ذلك تحريم شق عصا طاعته.
- نصّحهم وإرشادهم إلى الحق: ذلك أن تقديم النصيحة البناءة لولي الأمر، هو ممّا أوجبه الله لولي الأمر على العلماء، وقد كان علماء المغرب الربانيون دائما "هداة صادقين وموجهين مخلصين واعين لمسؤولياتهم، وناصحين ضاربين بسلوكهم الذي يمزج بين العلم والمعرفة والجهاد[...]. أروع الأمثلة"<sup>2</sup>. وتبعاً لذلك صرح التمنارتي أن إخلاص العلماء النصيحة لولي الأمر وإرشاده إلى الحق، هو الكفيل بضمان توازن المجتمعات وأمنها، وتنحية كل ما من شأنه إقلاق طمأنينتها وهدوئها عن طريقه، وهو بهذا المعنى السبيل إلى حماية مصالح البلاد والعباد. وفي ذلك قال التمنارتي قاصداً التاهرتي بكلامه: "وكان الواجبُ عليه أن يطيع سيدنا وإمامنا الذي وجد الناس في هذه الفترة بركته [يريد أبا الحسن السملالي]، ويعينه في الحق ويذكّره إياه على أحسن وجه، وينبّهه على ما غفل عنه،

1- رسالة الحزار.

2- رسالة علماء المغرب في دعم الكيان الوطني، أبو بكر القادري، دعوة الحق، السنة 23، العدد 1، ربيع الثاني 1402هـ/مارس 1982م، ص: 22.

أو كُتِم عنه من أمور المسلمين، ويترك ما هو عليه من تضريب الناس وإفساد قلوبهم عليه، وينصح عامة المسلمين معه، ويرشدهم معه لمصالحهم ويعينهم معه في أمر دينهم ودنياهم قولاً وفعلاً، وينبّه غافلهم ويبصّر جاهلهم، ويرفد محتاجهم ويستر غوارهم، ويرفع المضار عنهم، ويجلب المصالح إليهم، هذا هو وظيف العلماء مع أئمة المسلمين"<sup>1</sup>.

وقال أيضاً يذكّره بضرورة لزوم جماعة المسلمين، والبقاء على العهد الذي بينه وبين وليّ الأمر الذي تمّت له البيعة الشرعية: "فاعلم أن المصالح كلها والأمن والعافية معقودة بنواصي الأمراء والولاة، وقد أوجب الله طاعتهم على الأنام، ومعونتهم على قمع طوائف البغاة، وجعلهم عيون الرعية في حفظ دينهم ودنياهم من أهل الشقاق ومردة العصاة، وأيدهم بأسنة الحق وألسنة الصديق لإقامة حجة الله، ورفض أهل الزيف والنفاق، وشراذم الغواة، وجعل من أطاعهم وأعانهم في كنفه وفي كنف أولئك الحماة، وجعل من عصاهم عرضة لصرصر حر النكبات وأعاصير الفتن والآفات. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي أكّد أمته باتباعهم، ونهى عن شقاقهم فيما قرب وما بعد من الجهات، وحذر صلى الله عليه وسلم من فتنة الدجاجيل، واتباع أذنان العجاجيل، في كل وقت من الأوقات"<sup>2</sup>.

## خلاصة واستنتاج:

تكتسي مناظرة التمنارتي للنائر التاهرتي المعنونة بـ "رسالة الحذار من مكائد الغريب إذا غشي الدار" أهمية كبرى بالنظر إلى أمور عديدة أهمها:

- دخولها في باب المناظرات والمناقشات العلمية التي شهدها القرن الحادي عشر للهجرة عامة، والمرحلة التي تلت وفاة أحمد المنصور الذهبي بوجه خاص، وتصويرها تصويراً واضحاً الدور الهامّ الذي كان لعلماء المغرب ولا يزالون يضطلعون به في سبيل حماية ثوابت الأمة المغربية منذ أقدم العصور، بالوعظ والإرشاد والنصح للناس، وبالتدريس في حلقاتهم العلمية التي كوّنها بها العلماء، وضمنوا بذلك استمرار العلم الرصين المؤسّس على المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية الغراء، والتصوّف السنيّ الجنيدي تحت الظل السابغ للإمام الأعظم. وقبل ذلك كله وبعده حتى علماؤنا، وفهم الله، ثوابتهم بمناظرة كل من حدثته نفسه بمعاندة هذه الدعائم الفكرية الأصيلة، والأسس الحضارية العريقة للأمة المغربية، ومتمّته بالخروج على مقتضياتها، وفي مقدمة ذلك الخروج على أولي

1- رسالة الحذار، ص: 167.

2- نفسه، ص: 148.

الأمر بطلب الملك، والسعي لاغتصابه من أهله، مع كل ما يوصل لذلك من تأليب الناس على ولي أمرهم الشرعي، ودفعهم لنزع البيعة الشرعية التي له في أعناقهم، وادّعاء شرف النسب وما إلى ذلك. وهو ما يبيّن أن العلماء كانوا دائما حراسا أمناء على حدود مقدسات الوطن، يحمونها من كل بطل ويدودون عنها كل تحريف أو تدنيس.

- إظهارها لجانب هام من جوانب الشخصية العلمية لقاضي تارودانت ومفتيها أبي زيد عبد الرحمان التمنارتي بوصفه نموذجا للعالم المغربي المالكي المتشعب بقيمه الدينية والوطنية والحضارية، المحبّ لولي أمره ولوطنه ولأبناء بلده، الحريص على نفعهم ونصحهم وجلب كل ما فيه مصلحة إلى قرصهم، ودفع كل ما من شأنه تنغيص عيشهم دينيا ودنيويا عن ساحتهم. فقد ضرب التمنارتي في مناظرته هذه، أروع الأمثلة وأنصعها في الدفاع عن ثوابت الأمة المغربية عامة، وذلك بالوقوف في وجه كل من يريد تفرقة صفوف الناس وتفكيك لحمتهم ووحدتهم، وتحريضهم على الخروج على من بايعوه إماما لهم ببيعة شرعية وفق ضوابطها المعروفة.

- ترجمتها لأداء التمنارتي للحقوق التي عليه لولي أمره، وقيامه بوصفه عالما بواجبه تاما كاملا نحوه، ويمكن اختزال هذه الواجبات في: الوفاء ببيعته وإخلاص النصيحة له وتحذيره من أعدائه وتنبيهه إلى الأخطار المحدقة به من التاهرتي وأمثاله، حتى يكون على علم بما يُكاد له فيأمن شر الكائدين ويأمن معه المجتمع كلّ، ويدافع عنه وينصره في السرّ والعلن، وهو ما يظهر من قول التمنارتي متحدّثا عن ولاية أمور المسلمين: "وقد أوجب الله طاعتهم على الأنام، ومعاونتهم على قمع طوائف البغاة"<sup>1</sup>. وقد عدد العلماء واجباتهم تجاه ولاية أمورهم فجعلوا منها الوفاء بمقتضيات بيعتهم بتقديرهم واحترامهم وطاعتهم وإخلاص النصيحة لهم ونصرتهم.<sup>2</sup>

وهو ما نجح التمنارتي في تحقيقه بمناظرة التاهرتي ونشرها بين الناس، فأمكنه بذلك أن يحافظ على أهم ثابت من ثوابت بلدنا وهو الإمامة العظمى التي تعقد بالبيعة الشرعية بين الراعي والرعية على الحقوق والواجبات المتبادلة، مما أغلق أبواب الفتنة وحقن الدماء، وقد سخر لهذه المهمة الشرعية والحضارية فكره وسعة ثقافته وخبرته بفن المناظرة وضوابطها ومناهج الاستدلال والحجاج.

1 - رسالة الحذار، ص: 148.

2 - حقوق الإمام الأعظم، محمد البوشواري، ضمن: الإمامة العظمى في المملكة المغربية، التأصيل والضوابط والمقتضيات، ص: 225.





مقالات داعمة





## دبلوماسية إمارة المؤمنين في إفريقيا

ذ. هاني عبد الكريم

أستاذ باحث - الرباط -

جاء في خطاب أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس بمناسبة الذكرى الثالثة عشر لتريعه على العرش: "ستظل الدبلوماسية المغربية وفيه لثوابتها العريقة في التعامل مع العالم الخارجي، على أساس الثقة في الذات، واحترام الشرعية الدولية، والالتزام بكل ما يعزز السلم والأمن الدوليين، ومناصرة القضايا العادلة، وتقوية التعاون الدولي في كل مجالاته" ويقول الدكتور عبد الهادي التازي إن "الحديث عن الدبلوماسية في المغرب هو في حقيقة الأمر حديث عن التاريخ الدولي لبلاد الإسلام"<sup>1</sup> على اعتبار أنه يوجد بالمغرب ثابت ديني لا يوجد في غيره، وهو إمارة المؤمنين التي في مقدمة التزاماتها بكليات الشرع حماية الملة والدين، وهذا ما جعل المغرب يتمتع بمقومات مؤسسية لتحسين ثوابته التي تشكل جوامع مشتركة مع البلدان الإفريقية<sup>2</sup>.

ومن هذا المنطلق يأتي البحث في دور دبلوماسية إمارة المؤمنين في تعزيز العلاقات المغربية الإفريقية في أفق تحقيق المعجزة الإفريقية المنشودة<sup>3</sup>، فإمارة المؤمنين عملت على توجيه دبلوماسيتها من خلال سياسة خارجية منفتحة مرتكزة على التعاون وحسن استثمار الخصوصية المغربية والانخراط في تعزيز شراكة خلاقة للتعاون جنوب-جنوب وخاصة مع الدول الإفريقية<sup>4</sup>.

ويمكن رصد معالم دبلوماسية إمارة المؤمنين في إفريقيا من خلال القرارات والمبادرات الدبلوماسية التي اتخذها ملوك المملكة المغربية لتعزيز الزخم الروحي المغربي الإفريقي الذي يمتد إلى أزيد من عشرة قرون، وبالتالي تحقيق الانصهار الحضاري بين كل من المغرب والدول الإفريقية،

1- د. عبد الهادي التازي "الدبلوماسية في التاريخ المغربي" ملاحق التاريخ الدبلوماسي للمغرب، الجزء الثاني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2009م، ص 627

2- "العلاقات بين المغرب ودول غرب إفريقيا" كلمة السيد أحمد التوفيق، وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية خلال الدورة الثالثة والأربعون لأكاديمية المملكة المغربية، 10 دجنبر 2015م.

3- في الرسالة الملكية السامية الموجهة إلى المشاركين في الاجتماع الخامس والعشرين لمندى كرانس مونتانا الذي افتتحت أشغاله يوم 20 يونيو 2014م، بالرباط حول موضوع "العلاقات جنوب-جنوب: من خيار استراتيجي إلى ضرورة ملحة"، أعرب صاحب الجلالة الملك محمد السادس، نصره الله، عن ثقته بأن القارة الإفريقية بما تزخر به من موارد طبيعية متكاملة، وبما يتوفر عليه الإنسان الإفريقي من مؤهلات، قادرة على خلق "معجزة إفريقية". مؤكداً "إننا لوائقون بأن قارتنا، بما تزخر به من موارد طبيعية متكاملة، وبما يتوفر عليه الإنسان الإفريقي من مؤهلات، لقادرة على خلق معجزة إفريقية، قوامها ضمان الأمن والاستقرار، والنهوض بالتنمية البشرية، وتحقيق التقدم والازدهار لشعوبها."

4- مونية سيلغوة، "المغرب والفضاء الإفريقي"، الدليل المغربي للاستراتيجية والعلاقات الدولية، كتاب جماعي صادر عن المركز المغربي متعدد التخصصات للدراسات الاستراتيجية والدولية، دار النشر لارمتان 2012م، ص 143.

الشيء الذي يؤكد استمرار الحضور الديني للأمرء والسلاطين المغاربة في القارة الإفريقية المتمثل في عقد البيعة الشرعية بين المؤمنين في الدول الإفريقية وإمارة المؤمنين بالمملكة المغربية، ففي الخطاب الملكي بمناسبة اجتماع المجلس العلمي الأعلى بالدار البيضاء يوم 30 أبريل 2004، أكد جلالة الملك محمد السادس، نصره الله، على دور إمارة المؤمنين في النهوض بالشأن الديني ليس في المغرب وإنما في كل البلاد الإسلامية.

وإذا كان العامل الجغرافي هو المحدد الأساسي في توجيه السياسة الخارجية، فإن انتماء المغرب جغرافيا لإفريقيا يجعل من البلدان الإفريقية فضاء طبيعيا وامتدادا استراتيجيا كوحدة ترابية جيوبوليتيكية بفضل الروابط الروحية والثوابت المشتركة التي تساهم في تقوية التفاعل والتماسك بين الشعوب، وذلك نظرا للدور المتنامي للدبلوماسية الموازية التي تنخرط فيها بفعالية الطرق الصوفية والزوايا والتي لا يمكن إغفالها في تاريخ المغرب مع إفريقيا، من خلال توظيفها للعامل الديني في تعزيز العلاقات الحضارية والسياسية المغربية الإفريقية عبر الدبلوماسية الروحية أو دبلوماسية الزوايا التي تؤثر بطريقة غير مباشرة في حث الحكومات على إصدار قرارات سياسية تحقق أهدافا سياسية معينة، وبذلك تتبوأ دبلوماسية إمارة المؤمنين مكانة محورية في تعزيز أواصر الصداقة والتعاون والثقة مع الدول الإفريقية، كما جاء في خطاب العرش بتاريخ 30 يوليوز 2004 "وبنفس الحزم والعزم، فإننا لم نفتأ نجعل قارتنا الإفريقية في صدارة سياستنا الخارجية، مكرسين جهودنا لتعزيز علاقاتنا مع كافة بلدانها الشقيقة..."

وتبرز أهمية الموضوع من خلال دبلوماسية متكاملة مندمجة وفعالة واستباقية لظاهرة الإرهاب، دبلوماسية ناعمة وهادئة أكثر عمقا ووقائية من المقاربة الأمنية، وهنا سنحاول الإجابة على إشكالية محورية مفادها مدى مساهمة دبلوماسية إمارة المؤمنين في تبوؤ المغرب موقع القائد الجيو- استراتيجي، فإلى أي حد ساهمت دبلوماسية إمارة المؤمنين في تقوية الحضور المغربي على الساحة الإفريقية؟ وما هي المزايا الجيواستراتيجية لتفعيل الدبلوماسية الروحية في إفريقيا؟ وعموما سنحاول الإجابة على هذه الإشكالية من خلال العناصر التالية:

- مرتكزات الواجب المغربي تجاه إفريقيا كمحدد أساسي في دبلوماسية إمارة المؤمنين.
- تجليات دبلوماسية إمارة المؤمنين في عهد جلالة الملك محمد السادس نصره الله.
- الآفاق الواعدة لدبلوماسية إمارة المؤمنين في إفريقيا.



## 1. مرتكزات الواجب المغربي تجاه إفريقيا كمحدد أساسي في دبلوماسية إمارة المؤمنين

إن الواجب المغربي تجاه إفريقيا يجد تبريره في الوحدة الدينية والمذهبية والتواصل الروحي والوجداني المتجذرين بين مؤسسة إمارة المؤمنين وشعوب غرب ووسط إفريقيا عبر طرقها الصوفية. لقد اقترن التطور التاريخي للمغرب بالمرجعية الدينية للسلطة المتمثلة في إمارة المؤمنين بمقاصدها الشرعية<sup>1</sup> وغاياتها السامية<sup>2</sup>، وفي عهد الدولة العلوية الشريفة ازدادت هذه المؤسسة قوة ورسوخا وشمولا ووضوحا وامتدادا حتى أضحت مؤسسة فوق وطنية، وبذلك شكلت هذه المؤسسة ضمانا أساسية لتحقيق الأمن الروحي للبلدان الإفريقية.

ويتمتع الملك بوصف أمير المؤمنين دستوريا وتاريخيا، باعتباره حامي حى الملة والدين، وبصفته "حاكما يحكم" أما السلطات المعهودة لرئيس الحكومة والسلطات الوزارية الأخرى في مجال العلاقات الدولية فهي سلطات ممنوحة على أساس التفويض، ومن ثم فللملك سلطات واسعة في مجال السياسة الخارجية، وهذه المسؤولية تخوله سلطات واسعة لحماية السيادة المغربية، وحرية التصرف واتخاذ المبادرات على الصعيد الخارجي<sup>3</sup>، كما أن الملك يستلهم البعد الديني للحكم من تجربة الملك الوراثي، حيث كان الخليفة هو الممثل الأسمى للأمة تجاه الأمم الأخرى والمسؤول الأول عن الأمن الخارجي للجماعة المسلمة<sup>4</sup>.

فتاريخ العلاقات المغربية الإفريقية يعود على وجه التحديد إلى عهد الدولة المرابطية التي نشأت في صحراء موريتانيا وامتدت إلى شمال إفريقيا بل وحتى إلى الأندلس، حيث اتخذ المرابطون في جيوشهم عددا كثيرا من سكان إفريقيا الغربية والوسطى الذين شاركوا في الفتوحات الإسلامية الأولى للأندلس، على اعتبار أن الإسلام انتشر في إفريقيا من المغرب إلى السنغال ثم إلى باقي دول غرب ووسط إفريقيا (غانا ومالي والسنغال وغامبيا...)، وذلك منذ أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن

1 تتمثل المقاصد الشرعية لإمارة المؤمنين في: حفظ الدين، حفظ العقل، حفظ دماء المسلمين، حفظ الأعراض، والأموال وسياسة المسلمين.

2 تتمثل الغايات السامية في:

- توحيد المرجعية الدينية للأمة وحفظ الخصوصية المذهبية.
- تحقيق الإجماع حول مفهوم موحد للمصلحة والمفسدة الشرعية.
- ضمان الحقوق والحريات لجميع الأفراد الذين تحت إمرة أمير المؤمنين.
- تنظيم وتأطير المجال الديني.

3-Radouane Alami « La place de L'islam dans la constitution 2011 », Revue ALMANARA pour les études juridiques et Administratives, N 8, JANVIER 2025 p. p 78-81

4- سعيد الصديقي "صنع السياسة الخارجية المغربية" أطروحة دكتوراه في القانون العام، كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بوجدة، مارس 2002م، ص 51.



الميلاديين عبر الطرق الصوفية القادرية والتيجانية<sup>1</sup>، والشاذلية والسنوسية التي ساهمت في نشر الإسلام في عموم إفريقيا الغربية والوسطى، وبذلك تكرر البعد الروحي للمغرب في إفريقيا في تبني التوابث الدينية المغربية<sup>2</sup>، حيث امتد هذا العمق الروحي في عهد الدولة المرابطية إلى حدود نهر السينغال جنوبا، وتؤكد مجموعة من الوثائق التاريخية علاقات الولاء التي كانت تربط بين الأقطار الإفريقية والدول التي تعاقبت على حكم المغرب، وإلى يومنا هذا يمكن أن نلاحظ انجذاب الطرق الصوفية بإفريقيا (القادرية والتيجانية) نحو المغرب ومدى تعلقها بإمارة المؤمنين.

وتعود الجذور التاريخية لمصطلح أمير المؤمنين إلى تحقيق المغرب لاستقلاله عن الخلافة المشرقية، حيث أصبح يوسف بن تاشفين يلقب بأمر المغرب ثم اتخذ لنفسه لقب أمير المسلمين وناصر الدين، واستمر ذلك إلى أن تولى عبد المؤمن الموحد الحكم ليلقب نفسه بالخليفة أمير المؤمنين، واستمر هذا اللقب مع الدولتين السعدية والعلوية<sup>3</sup>، وعلى اعتبار أن مريدي وأتباع الطرق الصوفية ارتبط شيوخهم المؤسسون بروابط البيعة الشرعية مع ملوك المغرب، فإن فلسفة دبلوماسية إمارة المؤمنين تكمن في استثمار الروابط الدينية والزخم الروحي والوجداني لمؤسسة إمارة المؤمنين في رسم معالم السياسة الخارجية المغربية في صيغتها الإفريقية وإعادة تأسيس التوازنات الجيو-استراتيجية في منطقة الساحل وإفريقيا الغربية على وجه الخصوص لمواجهة تحديات التنمية والتهديدات الإرهابية التي تؤثر على استقرار وأمن البلدان الإفريقية.

ويمكن جرد مرتكزات الواجب المغربي تجاه إفريقيا من خلال تحليل مجموعة من

العناصر:

## أولا: روابط البيعة بين إمارة المؤمنين والشعوب الإفريقية

كانت البيعات في الدولة العلوية تنص بعناية على مسؤولية الإمام الخليفة مع اشتراط حفظ الأمور الخمسة: الدين والنفوس والعقل والمال والعرض<sup>4</sup>، وكانت معلقة بجدران ضريح مولاي

1- أحمد بن محمد التجاني، ارتحل من مسقط رأسه (عين ماضي) وهو ابن إحدى وعشرون سنة لطلب العلم بمدينة فاس وأصبح فقيها مالكيًا ملما بالأصول والفروع، وصار شيخا للطريقة التي تنسب إليه والتي عملت على نشر الإسلام في إفريقيا بوسائل سلمية تتمثل في التجارة والتعليم وبذلك شكلت الطريقة التيجانية إحدى الجسور الروحية المثبتة والقوية بين المغرب وإفريقيا.

2- أبو بكر القادري "الدعوة الإسلامية في إفريقيا ونظرة على أحوال المسلمين ببعض أقطارها الغربية، دعوة الحق، إفريقيا القارة الإسلامية: ماضيا وحاضرا ومستقبلا، العدد 269، أبريل - ماي 1988م، ص.ص 160-193.

3- محمد ادريسي توراعتي "إمارة المؤمنين: دعامة للأمن الروحي" مجلة دعوة الحق، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، العدد 397 - شعبان 1431/يوليوز 2010، ص. 26.

4- الدرس الحسني الذي ألقاه الأستاذ أحمد التوفيق، وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية بتاريخ فاتح يوليوز 2014 في موضوع حول: "حماية الملة والدين وأليائها في المملكة المغربية"، الدروس الحسنية، 1435/2014، ص. 19.

إدريس بفاس، لتكون دستورا مكتوبا يطلع عليه من شاء ليظل وفيا له<sup>1</sup>، وتعتبر البيعة بمثابة الآلية الشرعية لتولية وتنصيب أمير المؤمنين، وتجدر الإشارة إلى أن البيعة في التجربة المغربية تتميز بأنها عقد مكتوب ومشهود عليه وأنها ذات قيمة رمزية كبرى وتعطي مكانة خاصة بالاعتقاد في بركة العهد الجديد المترتب، فهي عقد ملزم<sup>2</sup>، كما أن عنصر النسب الشريف جعل من البيعة رابطة وجدانية تتجاوز الحدود الجغرافية والسياسية المعاصرة وتقدم مؤسسة إمارة المؤمنين باعتبارها رمزا للإمامة العظمى التي من أولوياتها حفظ الدين وسياسة الدنيا، وفي المقابل السمع والطاعة يعززهما الولاء والانتماء والمناصرة والتأييد امتثالا لأمر الله تعالى<sup>3</sup>.

على هذا الأساس، تعتبر إمارة المؤمنين دعامة من دعائم حفظ الدين وركيزة من ركائز حماية الوطن، فهي جزء لا يتجزأ من الإسلام، وممارسة الحكم في ظلها ممارسة تعبدية، وتتلخص حماية حفظ الدين في إقامة شعائره وإلزام العامة بتطبيق أحكامه، والدفاع عن مصالحه والعناية بمسؤولياته في حراسة الدين وسياسة الدنيا<sup>4</sup>، وتحقيق الأمن، وفي هذا السياق يقول فضيلة الأستاذ محمد يسف الأمين العام للمجلس العلمي الأعلى أن "لقب أمير المؤمنين ونظام البيعة والخلافة يمثل الاختيار السديد لنظام الحكم الذي أجمعت الأمة على التمسك به والعض بالنواجذ عليه، والتف حوله علماء الملة وفقهاء الشريعة"<sup>5</sup>، فإمارة المؤمنين هي الحصن الحصين في الحفاظ على الدين وصونه ورعاية أموره، لذلك أوجب الإسلام الالتفاف حولها وطاعة ما يصدر عنها من التوجيهات<sup>6</sup>، فمهام أمير المؤمنين في حفظ الدين وحماية بيضة الإسلام والمسلمين تحققت وفق تصور قائم على احترام العبادات، وتأهيل المؤسسات ورسم الآليات الخادمة للثوابت والمقدسات<sup>7</sup>، ولتأكيد استمرارية هذه الخصوصية تمت دسترة هذه المؤسسة في مختلف الدساتير المغربية بما في ذلك دستور 2011 الذي نص في الفصل 41 منه على أن "الملك هو أمير المؤمنين وحامي حى الملة والدين والضامن لحرية

1- حسن السايح "تطور عقد البيعة بتطور مستجدات التزامات الدولة" البيعة والخلافة في الإسلام، الدروة الثانية، العيون، يوليو 1994، ص 81.

2- <http://habous.gov.ma/2012-01-26-16-09-45.html?limitstart=>

3- إبراهيم صالح الحسني "مكانة أولى الأمر في الإسلام" ضمن كتاب "الدروس الحسنية" منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى 2008، ص 77.

4- يظهر ذلك جليا من خلال مقتضيات الفصل 42 من دستور 2011 الذي ينص على أن "الملك رئيس الدولة، وممثلها الأعلى، ورمز وحدة الأمة، وضامن دوام الدولة واستمرارها،...."

5 "خطب إمارة المؤمنين في الشأن الديني والنصوص المنظمة للمؤسسة العلمية" منشورات المجلس العلمي الأعلى دجنبر 2008م، ص 16.

6- "برنامج تأهيل أئمة المساجد في إطار خطة ميثاق العلماء"، اللقاء الثاني، السبت 16 يناير 2010م، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص 3

7- الأستاذ عبد الحميد العلمي "إمارة المؤمنين وتحقيق قصد الحفاظ على الدين" دعوة الحق، العدد 393، السنة 52، يوليو 2009م، ص: 130.



ممارسة الشؤون الدينية"، كما أن رعاية الشأن الديني يندرج في صلب صلاحيات أمير المؤمنين حيث ينص الفصل 5 من دستور 2011 على "أن الإسلام دين الدولة ، والدولة تضمن لكل واحد حرية ممارسة شؤونه الدينية".

### ثانيا: تعلق مريدي وأتباع الطرق الصوفية بشخص الملك

تعد الزيارة الملكية لإفريقيا بمثابة زيارة إمام لأمة تعتقد فيه وفي بركته ونسبه الشريف، كما يستغل أتباع الطرق الصوفية الزيارات الملكية لتجديد بيعتهم الشرعية لأمر المؤمنين باعتبارها بيعة روحية قبل كل شيء.

وقد تغلغلت الطرق الصوفية<sup>1</sup> ذات المنشأ المغربي في إفريقيا وساهمت في تأسيس نوع من التواصل الصوفي المغربي الإفريقي في إطار شبكة من العلاقات التاريخية التي تربط بين المغرب والأقطار الإفريقية وخاصة غرب ووسط إفريقيا<sup>2</sup>، ويمثل أحد أوجه الدبلوماسية الموازية أو الهادئة أو غير الرسمية من خلال مساهمتها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في التأثير على صناعات القرار السياسي الإفريقي بما يحقق أهداف السياسات الخارجية.

وهكذا استمر هذا التواصل الصوفي ونما على امتداد الدول المتعاقبة على حكم المغرب، وبذلك عرف هذا التواصل تطورا ملحوظا برز من خلال مجموعة من المظاهر الروحانية التي شكلت هذه العلاقات، من خلال إعادة بعث الأدوار التربوية والروحية التي يمكن أن تقوم بها الزوايا. ففي لقاء سيدي شيكر الذي ضم كل متصوفي العالم، كان الرهان على دور الطرق الصوفية، في تعزيز روابط التواصل مع العمق الإفريقي للمغرب وبناء علاقات جديدة تقوم على تمكين أتباع الزوايا وخاصة الطريقتين التيجانية والقادرية من أدوار دبلوماسية تساهم في تقوية الروابط بين المغرب والدول الإفريقية، وبالتالي تقوية دور هذه الطرق كقنوات دبلوماسية غير رسمية من شأنها التأثير على الفاعل الرسمي في السياسة الخارجية الإفريقية<sup>3</sup>.

1- الطرق الصوفية مدارس دينية علمية تربوية سلوكية، ظهرت كتنظيمات سلوك جماعي في العصور المتأخرة، ومعظم هذه الطرق راجعة إلى أصول ثلاثة:

1. قادرية: نسبة إلى عبد القادر الجيلاني دفين بغداد؛

2. شاذلية: نسبة إلى أبي الحسين الشاذلي نزيل مصر ودفن بها؛

3. تيجانية: نسبة إلى أبي العباس التجاني دفين فاس.

2-John O.HUNWICK « Les rapports intellectuels entre le Maroc et l'Afrique sub-saharienne à travers les âges » chaire du Patrimoine Maroc - Africain Série Conférences (2) Publications de L'institut des Études Africaines 2014, p16 .

3- عادل مساوي " علاقات المغرب مع إفريقيا جنوب الصحراء بعد انتهاء القطبية الثنائية" أطروحة دكتوراه في القانون العام، جامعة محمد الخامس أكادال الرباط، الموسم الجامعي 2002-2003، ص.ص 75-79



وقد راهنت إمارة المؤمنين على الطرق الصوفية في الجزء الجنوبي والغربي لإفريقيا بشكل خاص كورقة رابحة في العلاقات المغربية الإفريقية بالنظر للدور الدبلوماسي الذي تقوم به هذه الطرق الصوفية، وخاصة الزاوية التيجانية في توجيه وتكييف العلاقات المغربية الإفريقية من خلال قدرتها على التأثير السياسي والانتخابي في البلدان الإفريقية.

وقد جرت العادة أن يحرص ملوك المغرب على عقد لقاءات مع رموز التصوف خلال زياراتهم المتعاقبة للدول الإفريقية، دل على ذلك الاستقبال الكبير الذي يخصص به شيوخ وأتباع الطريقة التيجانية في السنغال الزيارات الملكية للسينغال بحيث يحرص جلالة الملك محمد السادس نصره الله، بصفته أميراً للمؤمنين منذ توليه العرش على رعاية هذه الوشائج الروحية، خاصة العلاقات مع الطرق الصوفية، ورعاية اللقاءات الصوفية بإفريقيا (الاحتفال السنوي لذكرى خروج الشيخ أحمد أمباكي مؤسس الطريقة المريدية إلى المنفى، احتفالات المولد النبوي الشريف بالسينغال.....).

### ثالثاً: مبادرات إمارة المؤمنين بإفريقيا

يمكن التمييز بين ثلاث محطات أساسية في دبلوماسية إمارة المؤمنين بإفريقيا وهي:

1- منذ فجر استقلال الدول الإفريقية التزمت المملكة المغربية بتحقيق وحدة القارة الإفريقية، حيث انخرط المغرب في تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية.

2- في ثمانينات القرن العشرين انسحب المغرب من منظمة الوحدة الإفريقية وفي المقابل تم تعزيز العلاقات الثنائية مع الدول الإفريقية إلى مستوى شراكة حقيقية وتضامنية في إطار مقاربة جديدة للتنمية.

3- العودة المظفرة للمغرب إلى حظيرة الاتحاد الإفريقي كقرار منطقي جاء بعد تفكير عميق<sup>1</sup>.

وقد خصصت دبلوماسية إمارة المؤمنين هدفاً استراتيجياً للرفع من التعاون مع البلدان الإفريقية ليصل إلى مستوى شراكة حقيقية فاعلة وتضامنية وإعطاء دفعة قوية للتعاون جنوب-جنوب للمغرب مع فضائه الإفريقي عبر سياسة التعاون التي تتكفل بها الوكالة المغربية للتعاون الدولي<sup>2</sup> التي تضمن نشر ونقل التجربة والخبرة المغربية لأطرومعاهد البلدان الإفريقية، بالإضافة إلى

1- صادق البرلمان المغربي على قانون رقم 01.17 يوافق بموجبه على القانون التأسيسي للاتحاد الإفريقي الموقع في "لومي بالطوغو" في

11 يوليوز 2000 كما تم تعديله بالبروتوكول الملحق به، المعتمد بأديس أبابا بإثيوبيا في 3 فبراير 2003، وبمابوتو بالموزمبيق في 11

يوليوز 2003.

2- تتكلف الوكالة المغربية للتعاون الدولي بتكوين الأطروالتعاون التقني والتعاون الاقتصادي والمالي والمساعدات الإنسانية.

الالتزام مع عدد من الممولين (فرنسا وبلجيكا واليابان والاتحاد الأوروبي ومنظمة الأمم المتحدة للتغذية والزراعة ، إلى جانب وكالات تنمية أخرى) من أجل تنفيذ مشاريع كبرى في إفريقيا، وعلى الصعيد السياسي قدم المغرب دعمه لمبادرات الأمم المتحدة الرامية إلى استتباب الاستقرار في إفريقيا، كما لعب دورا مهما في إيجاد حل لبعض الصراعات الإقليمية كما هو الشأن للوساطة التي قامت بها إمارة المؤمنين والتي توجت سنة 2002 باجتماع رؤساء كل من ليبيريا وسيراليون وغينيا لتسوية خلافاتها<sup>1</sup>، وسبق للمغرب أن عبر عن تضامنه مع الدول الإفريقية في مواجهة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية الآنية والمستقبلية، حيث ألغى جميع ديون البلدان الإفريقية الأقل نموا تجاه المملكة المغربية ورفع كل الحواجز الجمركية عن المواد المستوردة من هذه البلدان<sup>2</sup>.

فمؤسسة إمارة المؤمنين تقوم بثمين رمزيها الدينية والروحية وتوظيفها في تدعيم وتعزيز العلاقات المغربية الإفريقية وخاصة بدول الساحل وإفريقيا الغربية، ولاسيما أمام تزايد الدول الشقيقة الراغبة في الاحتذاء بالتجربة المغربية في مجال تدبير الحقل الديني على ضوء الرؤية الاستباقية والمرنة لمحاربة الإرهاب ( يتعلق الأمر ب : مالي وتونس، وغينيا كوناكري والكوت ديفوار، ونيجيريا وليبيا)، مما يبرر الدور القيادي الرائد والطلائعي للمشروع المغربي الديني في إفريقيا من خلال استعادته لإشعاعه الروحي في القارة الإفريقية والحضور المتميز للمحدد الديني ضمن المقاربة الأمنية لمحاربة الإرهاب في ترسيخ فكر الوسطية والاعتدال وتأكيد دور إمارة المؤمنين كمؤسسة وطنية تمثل صمام الأمان لنموذج رائد يقوم على الوسطية والاعتدال في تدبير الشأن الديني الإفريقي وتأهيله لمواجهة الغلو والتطرف، وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى إنشاء المجلس الوزاري المغربي للشؤون الدينية -إبان انعقاد الدورة 31 لمجلس وزراء خارجية دول اتحاد المغرب العربي بالرباط بتاريخ 05 ماي 2013م - تبعا لتوصية "بيان نواكشوط"<sup>3</sup> الصادر عن الاجتماع الأول لوزراء الشؤون الدينية لدول اتحاد المغرب العربي المنعقد بنواكشوط في 24 شتنبر 2012م، والذي تناول الوضع الأمني في منطقة المغرب العربي وجوارها الإقليمي، بحيث تبنى المطالب التالية:

1- حسني محمد حسن "التوجهات الإفريقية للسياسة الخارجية المغربية" آفاق إفريقية، المجلد الحادي عشر، العدد 38، 2013، ص: 98-100

2- رشيد العرجوي "عشر سنوات من إنجازات أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله" دعوة الحق، العدد 393، السنة 52، يوليو 2009، ص 85

3- بتاريخ 09 أبريل 2013 تم التوقيع على محضر الاجتماع الأول لكبار الموظفين في الوزارات المسؤولة عن الشؤون الدينية في دول اتحاد المغرب العربي بالرباط، والذي وضع برنامجا تنفيذيا لتطبيق بيان نواكشوط عن طريق برمجة 18 اجتماعا في نطاق المجلس الوزاري المغربي للشؤون الدينية تتعلق بعقد ندوات فكرية في الفقه المالكي والعقيدة الأشعرية وترشيد الطرق الصوفية في بلدان المغرب العربي والاهتمام بالسنة النبوية والحديث الشريف وطباعة القرآن الكريم بروايتي ورش وقالون، بالإضافة إلى عقد لقاء مغربي في مجال تكوين الوعاظ والمرشدين.



- ضرورة إبراز صورة الإسلام الحقيقية مع التركيز على المنهج السني الوسطي الذي يرفض التطرف والغلو.

- ضرورة التحصين الفكري والثقافي للمجتمعات المغاربية عبر التشبث بالمذهب المالكي والعقيدة الأشعرية بوصفهما قاسمين مشتركين للبلدان المغاربية.

- العمل على التنسيق بين المؤسسات الحاضنة للإسلام في منطقة المغرب العربي.

ولعل من بين مبادرات إمارة المؤمنين بإفريقيا، الدعم المالي والتقني لبناء المساجد بإفريقيا وتفريشها وصيانتها، بحيث تفضل أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله فوافق على بناء مسجد كبير بالعاصمة التشادية أنجامينا (شهر أكتوبر 2007) إضافة إلى بناء مركب ديني وثقافي بجوار المسجد، وبناء مسجد محمد السادس ومرافقه بمدينة كوناكري (24 فبراير 2017) ليكون جاهزا في غضون 28 شهرا، وكذا إصلاح مسجد السلام بياموسوكرو بجمهورية كوت ديفوار، بالإضافة إلى بناء مسجد محمد السادس ومرافقه بمدينة دار السلام على قطعة أرضية مساحتها 7400 متر مربع تابعة للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بتانزانيا (25 أكتوبر 2016)، كما حرص أمير المؤمنين إبان زيارته للبلدان الإفريقية على أداء صلاة الجمعة ببعض مساجدها: مسجد الشورى بزنبار بجمهورية تنزانيا الاتحادية (28 أكتوبر 2016)، والمسجد الكبير بدكار بالسنغال (11 نونبر 2016) ومسجد أنتسيرابي بمدغشقر (23 نونبر 2016)، ومسجد أنتاناناريفو بمدغشقر (25 نونبر 2016) والمسجد الوطني بأبوجا بجمهورية نيجيريا (02 دجنبر 2016)، ومسجد أهل السنة والجماعة بكوناكري بالجمهورية الغينية (24 فبراير 2017)، والمسجد الكبير لحي ريفيرا بأبيدجان بجمهورية الكوت ديفوار (03 مارس 2017). وعقب صلاة الجمعة تفضل أمير المؤمنين بإهداء هبة مكونة من 10 آلاف نسخة من المصحف المحمدي - بالإضافة إلى نسخ مترجمة إلى اللغة الفرنسية - لكل مسجد من المساجد التي أدى بها جلالته صلاة الجمعة.

2. تجليات دبلوماسية إمارة المؤمنين في عهد جلالته الملك محمد السادس نصره الله

تتجلى دبلوماسية إمارة المؤمنين في عهد جلالته الملك محمد السادس نصره الله في:

- الزيارات الملكية الميمونة للدول الإفريقية (أولا)

- الجانب التأطيري (ثانيا)

- الجانب التكويني (ثالثا)



أولاً: الزيارات الملكية الميمونة للدول الإفريقية

في كل زيارة يقوم بها أمير المؤمنين لإفريقيا يتم استقباله كقائد جديد، وثقت فيه شعوب إفريقيا وقاداتها، يحمل آمالها وحلمها بمستقبل واعد، ويتقدمهم للدفاع عن مصالحهم في المحافل الدولية<sup>1</sup>، ثم إن القراءة المتأنية للزيارات الملكية بالبلدان الإفريقية تعكس النظرة التكاملية التي طبعت كل تحركات ونشاطات جلالة الملك محمد السادس، نصره الله، خلالها، فقد غطى كل المجالات بلقاءاته ومباحثاته الرسمية، كما شكلت هذه الزيارات مناسبة لتجديد العلاقات الروحية بين المغرب ودول غرب إفريقيا، وتندرج الجولات الإفريقية التي يقودها الملك أمير المؤمنين في عدد من البلدان الإفريقية، في أفق تعزيز العلاقات الثنائية، وعلى رأسها علاقات التعاون الديني، وبذلك يقدم المغرب استراتيجية مندمجة وشاملة ومتعددة الأبعاد تستهدف الحفاظ على الأمن الروحي الإفريقي، وفي هذا السياق فإن الزيارات التي قام بها الملك محمد السادس إلى السنغال والغابون والكويت ديفوار في مارس 2013م، كرست توجهات الدبلوماسية الملكية في استثمار الخصوصية الدينية المغربية المتمثلة في ممارسة الإسلام الوسطي المعتدل والتمسك بالتصوف السني والمذهب المالكي والعقيدة الأشعرية كصمام أمان للحيلولة دون أي اختراق فكري من شأنه تهديد أمن القارة الإفريقية.

وعموماً فقد قام الملك محمد السادس بزيارات رسمية أو زيارات صداقة وعمل لإفريقيا إلى كل من : الكامرون (2001 و2004)، والسينغال (2001 و2005 و2006 و2008 و2013)، والغابون (2002 و2004 و2005 و2006 و2013)، وجنوب إفريقيا (2002)، والبنين (2004)، والنيجر (2004 و2005)، وبوركينا فاسو (2006)، والكونغو (2006) وغينيا الاستوائية (2009)، والكويت ديفوار (2013)، وإلى كل من مالي وغينيا والكويت ديفوار والغابون في فبراير 2014، وتمثل هذه الزيارات تجسيدا لالتزام المملكة المغربية من أجل استقرار ورفاهية القارة الإفريقية<sup>2</sup>.

ثانياً: الجانب التأطيري

في هذا الجانب يمكن الحديث عن دور كل من رابطة علماء المغرب والسينغال للصداقة والتعاون الإسلامي ومؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة

1- رابطة علماء المغرب والسينغال للصداقة والتعاون الإسلامي.

تم تأسيس رابطة علماء المغرب والسينغال للصداقة والتعاون الإسلامي - تحت الرعاية السامية للمغفور له جلالة الملك الحسن الثاني وفخامة الرئيس السابق لجمهورية السنغال عبدو ضيوف-

1- عبد الله بوصوف "المغرب وإفريقيا نحو آفاق جديدة لعلاقات متجددة" دعوة الحق، العدد 421، السنة 59، يونيو 2017م، ص31

2- عبد الحق المريني، مؤرخ المملكة المغربية، "الزيارة الملكية السامية للجمهورية المالية" المطبعة الملكية بالرباط، 2013م، ص17

وذلك بمقر مجلس النواب يوم 13 رمضان الأبرك 1405 الموافق لـ 03 يونيو 1985، وذلك بهدف إبراز التمازج الحضاري والإنساني والتاريخي والجغرافي والعلمي والديني الذي يربط بين شعبي المملكة المغربية وجمهورية السنغال، وتقوية لأواصر المودة ووشائج المحبة والتعاون بين البلدين الصديقين، وتقوية لحضور المملكة المغربية الديني والروحي وإشاعة القيم الإسلامية السمحة وتعزيز وحدة المذهب المالكي والتصوف السني، وتدعيما للإشعاع الديني والفكري والعلمي لبلادنا في القارة الإفريقية.

وخلال الفترة الممتدة من 02 إلى 04 فبراير 1988م انعقد بالعاصمة السينغالية دكار المؤتمر الأول لرابطة علماء المغرب والسينغال للصدقة والتعاون الإسلامي تحت الرعاية السامية للمغفور له الملك الحسن الثاني والرئاسة الفعلية للرئيس السينغالي السابق عبدو ضيوف، مع حضور ممثلين عن بلدان إفريقية وهي نيجيريا وغامبيا وموريتانيا وتشاد وغينيا ومالي والتي عبرت عن رغبتها خلال المؤتمر في الانضمام إلى رابطة علماء المغرب والسينغال.

## 2- مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة

تم إحداث مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة- بمقتضى الظهير الشريف رقم 1.15.75 الصادر في 24 يونيو 2015- استنادا إلى الروابط الدينية والثقافية التي تجمع المملكة المغربية بعدد من بلدان إفريقيا، وبحكم ما تستوجبه الظروف الراهنة من إيجاد إطار من التعاون بين علماء المغرب وعلماء البلدان الإفريقية من جهة، وبين هؤلاء العلماء بعضهم مع البعض، من جهة أخرى، على ما يحفظ الدين من التحريف والتطرف، وما يجعل قيمه السمحة في خدمة الاستقرار والتنمية في هذه البلدان.

في هذا السياق جاءت مبادرة أمير المؤمنين، صاحب الجلالة الملك محمد السادس، أعزه الله، بإحداث هذه المؤسسة، لتكون إطارا مؤسساتيا يضطلع فيه العلماء بمسؤولية أداء واجهم والقيام بأمانتهم، سيما وأن ما يهم بلدا إفريقيا في مجال فكرة السلم والبناء يهم بلدان إفريقيا بأسرها.

وينص الظهير الشريف المحدث للمؤسسة على إمكانية إحداث فروع لها في مختلف البلدان<sup>1</sup>، ويؤكد على أن إحداث تلك الفروع يتم وجوبا في مراعاة لقوانين البلد وأوضاعه، وينبغي أن يفهم من هذا التأكيد أن فرع المؤسسة في بلد ما لا يمكن أن يكون بديلا لأي هيئة وطنية أو محلية رسمية أو أهلية، وأنه، إن جاز له أن يتعاون مع الجهات ذات الأهداف المشابهة، فإنه ملزم بالعمل بالتي هي أحسن وبإخلاص وحكمة وصبر وبقظة.

1- أحدثت مؤسسة محمد السادس للعلماء الأفارقة 32 فرعا لها بإفريقيا.

### ثالثا: الجانب التكويني

يتعلق الأمر بجامعة القرويين وبعض المؤسسات التابعة لها كمعهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات ومؤسسة دار الحديث الحسنية ومعهد محمد السادس للقراءات والدراسات القرآنية، فجامعة القرويين تشكل حلقة مهمة ومركزية في خريطة التعليم الديني بالمغرب، نظرا لعراقتها وعمقها التاريخي الحضاري، وفي سنة 2015 تمت إعادة هيكلة جامعة القرويين التي توضع تحت الرعاية السامية للملك، وتخضع لوصاية الدولة التي يمارسها وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، وهو ما يعني دخولها في قائمة مؤسسات التعليم العالي التابعة لجامعة القرويين في صيغتها الجديدة فهي:

- مؤسسة دار الحديث الحسنية بالرباط؛
  - معهد محمد السادس للقراءات والدراسات القرآنية بالرباط؛
  - معهد محمد السادس لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات بالرباط؛
  - المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب؛
  - معهد الفكر والحضارة الإسلامية بالدار البيضاء؛
  - جامع القرويين للتعليم النهائي العتيق بفاس.
- وأضحت جامعة القرويين منوطة بالمهام التالية:<sup>1</sup>
- تكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات وتأهيلهم تأهيلا معمقا، يمكنهم من اكتساب المناهج والمعارف اللازمة لقيامهم بمهامهم الدينية على الوجه المطلوب.
  - إعداد برامج خاصة للتكوين والتأهيل المستمر في مجال التأطير الديني والسهرة على تنفيذها.
  - تنمية البحث العلمي في مجال الدراسات القرآنية والحديثية والعقدية والفقهية وقضايا الفكر الإسلامي المعاصر، والإسهام في التطوير والتشجيع على القيام به.
  - الإسهام في التعريف بالعلوم الإسلامية وتاريخها والعمل على نشر الدراسات والأبحاث والمصادر المتعلقة بها.
  - الإسهام في التعريف بتاريخ المغرب وتوثيقه وإنجاز الدراسات والأبحاث المتعلقة به.
  - الإسهام في التعريف بالتراث الفقهي الإسلامي، وبالفقه المالكي منه على الخصوص، والعناية بمصادره، والعمل على نشره.

1 ظهر شريف رقم 1.15.71، صادر في 7 رمضان 1436 هـ (24 يونيو 2015) الجريدة الرسمية عدد 6372 - 8 رمضان 1436 هـ (25 يونيو 2015) ص 5991/5992.



- إنجاز دراسات وأبحاث والقيام بأعمال الخبرة في مجال اختصاصها.
- إقامة علاقات للتعاون العلمي مع الجامعات والمؤسسات والهيئات العلمية العامة والخاصة الوطنية والأجنبية التي تسعى إلى تحقيق نفس الأهداف.

ويأتي إحداث معهد محمد السادس لتكوين الأئمة المرشدين والمرشدات نظرا للدور الذي يقوم به الأئمة المرشدون والمرشدات في التأطير الديني للمواطنين، وللحاجة الملحة إلى تطوير أدائهم، والرقى بمستواهم العلمي والمعرفي، ورغبة في توفير تكوين متميز للقائمين بمهمتي الإمامة والإرشاد بما يضمن لهم اكتساب المناهج والمعارف التي تساعد على القيام بمهامهم على الوجه المطلوب، وصيانة الأمن الروحي للمغاربة ووحدة المذهب المالكي.

وسعيا إلى فسخ المجال أمام الدول الشقيقة والصديقة للاستفادة من التجربة المغربية في مجال تكوين وتأهيل واستكمال تكوين القيمين الدينيين<sup>1</sup>، انخرط هذا المعهد بفعالية في تفعيل الاتفاقيات المبرمة مع دول إفريقية والمتعلقة بتكوين أئمتها بالمغرب للاستفادة من التجربة المغربية في المجال الديني لمحاربة التطرف ونبذ العنف الذي أصبح يهدد استقرار الدول الإفريقية<sup>2</sup>، (مالي وتونس وغينيا كوناكري وتشاد ونيجيريا الاتحادية والكوت ديفوار)<sup>3</sup> لتمكينهم من تكوين يؤهلهم للقيام بمهمة تبليغ أحكام الشريعة الإسلامية، والمذهب المالكي والتعاليم الفقهية والأخلاقية التي تنبذ كل أنواع الغلو والتطرف، ويرتكز تأهيل المغرب للأئمة والمرشدين الدينيين الأفارقة، على توفير تكوين (تأهيل) علمي وديني متنور، متشبع بقيم الوسطية والاعتدال، وبالتلازم بين الحفاظ على الثوابت الإسلامية، ونهج الاجتهاد والانفتاح، وذلك بهدف تحصين المجتمعات الإفريقية من نزوعات التطرف والانحراف.

### 3. الآفاق الواعدة لدبلوماسية إمارة المؤمنين بإفريقيا

تضمنت الرسالة الملكية الموجهة لسفراء المغرب بالعالم الذين اجتمعوا في الرباط بمناسبة انعقاد ندوة محددات الدبلوماسية المغربية بتاريخ 30 غشت 2013، دعوة صريحة إلى تطوير العلاقات الثنائية مع دول جنوب الصحراء، وتقوية العلاقات المغربية مع المنظمات الإقليمية،

1- يتم تكوين القيمين الدينيين الأجانب أو تأهيلهم أو استكمال تكوينهم في طور خاص تحدد بقرار للسلطة الحكومية المكلفة بالأوقاف والشؤون الإسلامية، كيفية تنظيمه وتحديد مضمونه ومدته بحسب اختلاف الحالات المتفق عليها مع الجهات المتقدمة بطلب التكوين، مع استفادة الطلبة الأئمة الأجانب من الإيواء والتغذية بالمعهد ومنحة شهرية بمبلغ 2000 درهم شهريا طيلة مدة التكوين. بالإضافة إلى تحمل مصاريف تذاكر سفرهم من وإلى بلدانهم ذهابا وإيابا.

2-Charlotte Bozonnet « Rabat mise sur sa diplomatie religieuse » LE MONDE, n 21857, samedi 25 Avril 2015

3 -« LE FAIT RELIGIEUX -débat autour d'une constante de l'identité marocaine » M. AHMED TOUFIQ, Ministre des Habous et des Affaires Islamiques en présence des nombreux Ambassadeurs et chefs de Mission Diplomatique accrédités à RABAT, Carrefour Diplomatique, Diplomatica, N 68, 2015, p.p 46-47

وخاصة منظمات إفريقيا الغربية والوسطى<sup>1</sup>، ونظرا لمكانة المملكة المغربية كفاعل ديناميكي على الساحة الإفريقية، وانطلاقا من الاهتمام البالغ لتسوية الأزمات في إفريقيا، فإن المغرب يؤسس دبلوماسيته الروحية على قيم التضامن والدعم اللامشروط لمجهودات البلدان الإفريقية الهادفة لتحقيق الاستقرار والرفاه الإفريقي من خلال:

- دعم الأمن والاستقرار (أولا)
- دعم التنمية البشرية (ثانيا)
- الزعامة الجيواستراتيجية (ثالثا).

### أولا: دعم الأمن والاستقرار بإفريقيا

في خطاب لأمر المؤمنين جلالة الملك محمد السادس بمناسبة الذكرى الثانية عشر لثبوته على العرش، أكد على أن "...علاقتنا مع عمقنا الإفريقي، الذي يشكل مجالا لفرص واعدة، فإننا حريصون على نهج مقارنة متجددة، قائمة على التضامن، ومبنية على تعزيز الأمن والاستقرار..."، وفي جلسة بالأمم المتحدة - يوم 30 شتنبر 2014 بنيويورك - حول موضوع التجربة المغربية في ميدان محاربة الإرهاب، وذلك في إطار الجلسات التي نظمتها لجنة مكافحة الإرهاب التابعة لمجلس الأمن الدولي، قدم وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، الأستاذ أحمد التوفيق المقاربة المغربية في مجال مناهضة الإرهاب من خلال الشروط التالية:

- إرساء المشروع السياسية ودعمها بالإصلاح في جميع الميادين؛
- وجود مؤطرين دينيين من علماء وأئمة متكونين وواعين بمقاصد الدين ومصالح الأمة في انسجام مع شروط السلم والعلم والمعرفة؛
- توفير الخدمات الدينية الكافية، بعيدا عن الاستغلال الإيديولوجي، ومن ضمنها تأهيل التعليم الديني.

كما جاء تطور استراتيجية المملكة المغربية في مكافحة التطرف لمواكبة التحولات التي يعرفها المغرب داخليا، وللتغيرات والتحديات التي تشهدها الساحة الدولية وخاصة الدول الإفريقية، فتجربة الدولة في محاربة التطرف الديني ساهمت في تأسيس نموذج إسلامي ذي خصوصية مغربية،

1- ملتي السفراء المغاربة المعتمدين بإفريقيا حول موضوع " الدبلوماسية المغربية في إفريقيا: مقارنة مجددة لأولوية استراتيجية الرباط، 10 غشت 2012م.

على اعتبار أن المغرب يتقاسم مع مجموع دول غرب إفريقيا نفس القيم والمرتكزات الدينية والروحية، حيث أضحي نموذجا رائدا يحتذى به في التعايش والتسامح، الأمر الذي دفع الكثير من الدول لتقديم طلباتها للاستفادة من تجربته في المجال الديني<sup>1</sup> لمحاربة التطرف ونبذ العنف الذي أصبح يهدد استقرار البلدان الإفريقية.

وبما أن ظاهرة الإرهاب ترتبط بالتيارات الراديكالية في كل الديانات، وأن أسبابها تعود بالأساس إلى الاعتماد على أطروحات شاذة ومتطرفة في الخطاب الديني، ووعيا بخطورة التطرف الديني انخرط المغرب منذ 13 سنة في برنامج استباقي طموح لإعادة هيكلة الشأن الديني من خلال تنظيم وضبط المدارس القرآنية والمساجد، وإعداد برنامج طموح لتكوين الأئمة والمرشدين والمرشدات وفق ضوابط الاعتدال والوسطية والتسامح، مع فسخ هذا المجال أمام الدول الشقيقة والصديقة للاستفادة من التجربة المغربية.

فمنع الإرهاب هو الجهل والتطرف والغلو، وأن الوسيلة المثلى للقضاء عليه هي تفنيد ودحض مرجعياته وتجفيف منابعه، من خلال التحصين روحا وفكرا وعقيدة بالمفاهيم الإسلامية والعقيدة الصحيحة، وبالفكر السني الوسطي المعتدل باعتباره القاسم المشترك بين دول المنطقة منذ قرون، التي أجمعت على الأخذ بالمذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، حتى لا تكون الدول الإفريقية فريسة لمروجي الأفكار المنحرفة والهدامة.

وهذه الأهمية المتزايدة للبعد الديني، والروابط الدينية والتاريخية العريقة أعطت للدبلوماسية المغربية في إفريقيا نقلة نوعية في تدبير عدد من الأزمات والنزاعات الإفريقية ( الأزمة المالية مثلا)، وتقديم التجربة المغربية في مجال مكافحة التحريض على ارتكاب أعمال إرهابية بدافع التطرف واللاتسامح القائمة على التحكم في الشأن الديني من خلال تكوين الأئمة، على اعتبار أنه لضمان مكافحة فعالة للتطرف العنيف يلزم تطوير التزام استراتيجي وقائي على المستويين الثقافي والعقائدي.

1- يتعلق الأمر بإبرام اتفاقيات بشأن تكوين الأئمة بالمملكة المغربية وعلى سبيل المثال:

- بروتوكول اتفاق بشأن تكوين الأئمة بين حكومة المملكة المغربية وحكومة جمهورية مالي، الموقع بباماكو بتاريخ 20 شتنبر 2013.
- بروتوكول اتفاق بشأن تكوين الأئمة بين وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية ووزارة الشؤون الدينية بالجمهورية التونسية، الموقع بالرباط بتاريخ 05 شتنبر 2014م.
- بروتوكول اتفاق بشأن تكوين الأئمة بين وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية والأمانة العامة للشؤون الدينية بجمهورية غينيا، الموقع بالرباط بتاريخ 10 شتنبر 2014م



ثانيا: دعم التنمية البشرية بإفريقيا

جاء في خطاب أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس بمناسبة الذكرى الثالثة عشر لتربعه على العرش: "وبخصوص الدول الإفريقية جنوب الصحراء، فإن المملكة المغربية تظل منخرطة في المشاريع الفعالة للتعاون معها، هدفها دعم برامج التنمية البشرية المحلية في القطاعات ذات الأولوية". ويعتبر ورش التنمية البشرية في إفريقيا مقاربة جديدة في مواجهة التطرف من خلال القضاء على جيوب الفقر والإقصاء والتمييز التي تشكل مرتعا خصبا ليزوغ الإرهاب. ثم إن دبلوماسية إمارة المؤمنين تجعل من إفريقيا أولوية استراتيجية نظرا للعلاقات الثقافية والدينية والانتماء العميق للمغرب الإفريقي، من خلال مبادراتها الهادفة إلى الاستجابة لتطلعات الشعوب الإفريقية، وحقها في الاستقرار والتنمية المستدامة، ومن خلال العلاقات السياسية والاقتصادية المتميزة التي يقيمها المغرب مع الدول الإفريقية. (أزيد من 40 دولة إفريقية ومرتبط معها بما يفوق 500 اتفاقية تهم كل مجالات التعاون والشراكة). حيث تعززت العلاقات بفضل الزيارات التي قام بها جلالة الملك محمد السادس لعدد من الدول الإفريقية والمبادرات التي اتخذها المغرب من أجل تعزيز هذه العلاقات السياسية الإفريقية لبلادنا، مما أعطى نفسا جديدا لعلاقاتها بالدول الإفريقية، لذلك جعل المغرب من التكوين عنصرا مهما وضروريا في برامج التعاون مع البلدان الإفريقية بهدف الرقي بعلاقات التعاون إلى مستوى الشراكة الاستراتيجية جنوب-جنوب. (دور الوكالة المغربية للتعاون الدولي في نشر ونقل التجربة المغربية لأطرومعاهد الدول الصديقة)، خاصة وأن المقاربة الملكية في إفريقيا تستمد قوتها من التنمية البشرية والمندمجة، والجانب الروحي والاستقرار، وكذا آفاق وضع آليات جديدة لتعزيز التعاون جنوب-جنوب.

وبأتى الاهتمام بورش التنمية البشرية بإفريقيا وفاء بالالتزامات الدولية ذات العلاقة بالأهداف الإنمائية للألفية، وتبعا للتوجهات الدولية في مجال التنمية البشرية التي تحت على الاهتمام بالإنسان، وبذلك فالمغرب مطالب بترشيد تدبير مساعدهاته وإمكانياته مع الاعتماد على بدائل أخرى لتحقيق الطموح الإفريقي للمغرب كالتعاون الثلاثي، كآلية مبتكرة للاستثمار الأمثل للإمكانات المتوفرة، سواء بين المجموعات الاقتصادية الإقليمية لدول الجنوب، أو في إطار شراكات مع دول الشمال، على أساس التوازن والنفع المتبادل، حيث يقدم المغرب تجاربه التقنية وخبراته لدولة إفريقية، معينة في حين تتكلف دولة أخرى من الدول المتقدمة كطرف ثالث بتمويل المشاريع ذات العلاقة بمجالات هذا التعاون الثلاثي، بالنظر للتجربة المغربية الرائدة في مختلف القضايا الإفريقية. وقد عبر المغرب عن استعداداته التام لوضع ما راكمه من خبرات وتجارب، وما تحظى به من ثقة ومصداقية لدى شركائها، ولدى المؤسسات الدولية، في خدمة التعاون الثلاثي، لصالح الشعوب الإفريقية.

فالنهوض بالتنمية البشرية بإفريقيا من شأنه المساهمة في اجتثاث الأسباب المؤدية للتطرف والإرهاب، وتكريس ثقافة التضامن والتكافل كقيم مجتمعية تؤسس للأمن الاجتماعي.

## ثالثا: الزعامة الجيو- استراتيجية لإمارة المؤمنين

خلال الحرب الباردة كانت الاعتبارات الاقتصادية توظف لخدمة أهداف سياسية وإيديولوجية، وبعد ذلك سرعان ما عرفت العلاقات الدولية تحولا جذريا من خلال توظيف الدوافع السياسية لخدمة الأهداف الاقتصادية (العولمة الاقتصادية وظاهرة التكتلات الاقتصادية الجهوية)، إلا أن الجديد الذي تطرحه دبلوماسية إمارة المؤمنين يتمثل في عرض الاعتبارات الروحية والدينية لتحقيق أهداف أمنية بإفريقيا، وهذا من شأنه تبوؤ المغرب موقع القائد الجيو- استراتيجي بإفريقيا، عبر تكييف سياسته الخارجية مع استراتيجيات القوى الكبرى في إفريقيا جنوب الصحراء، من خلال الاستثمار الأمثل للبعد الروحي للعلاقات المغربية الإفريقية للتصدي ومواجهة نفوذ هذه القوى داخل عمقه الاستراتيجي الإفريقي (الولايات المتحدة الأمريكية، فرنسا القوة الاستثمارية السابقة في إفريقيا، الصين ، اليابان)، ولعل الرهانات المغربية على البعد الديني كأحد محددات السياسة الخارجية المغربية تجاه إفريقيا، تبقى واعدة في تأكيد البعد الاستراتيجي للمغرب في إفريقيا عبر شبكة قنوات الدبلوماسية غير الرسمية يأتي على رأسها دور إمارة المؤمنين المؤسسة الفوق وطنية والزوايا الصوفية بإفريقيا.

وما دامت أن المبادئ الأساسية للدبلوماسية المغربية تتمثل في حسن الجوار ومبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية وتسوية المنازعات بالطرق السلمية ، وبالتالي عدم التهديد باستعمال القوة في العلاقات الدولية، وسلوك سياسة مطبوعة بعدم الانحياز والحياد الإيجابي، وترسيخ سبل التعاون الدولي المشفوع بالعمل على تحقيق التنمية الشاملة والمستدامة<sup>1</sup>، فإن الرهانات ذات البعد الديني المطروحة على السياسة الخارجية المغربية الإفريقية من شأنها إعطاء قوة الدفع الأساسية لدبلوماسية مغربية - متكاملة وفعالة - تجاه إفريقيا للدفاع عن المصالح المغربية تبعا للتحويلات التي حدثت في الجيوسياسية الإفريقية والدولية، والقيام بأدوار طلائعية في مكافحة التطرف العنيف بشكل وقائي أثبتت فعاليتها مقارنة مع المقاربة الأمنية لمعالجة هذه الظاهرة.

وفي هذا السياق فالمغرب مطالب بالإنخراط بقوة في آليات العمل الدبلوماسي المغربي الإفريقي، خاصة على مستوى تعزيز التمثيل الدبلوماسي وتفعيل الدبلوماسية الثنائية والتأقلم مع الأولويات الجديدة للتعاون المتعدد الأطراف بإفريقيا.

ومادام أن من المواقع الجغرافية ما يحقق بذاته قيمة سياسية على حد قول "فريدريك راتزل"، على اعتبار أن للعوامل الجيوسياسية دورا حيويا ومهما في تحديد سلوكيات الدول تجاه محيطها

1- محمد تاج الدين الحسيني "الدبلوماسية المغربية في الخطاب الملكي" مرجع سابق، ص-ص: 38-48



الخارجي مما يكرس الأهمية الاستراتيجية للمواقع الجغرافية في العلاقات الدولية، فإن القارة الإفريقية أضحت كمركز استراتيجي تسعى كل القوى العالمية للتواجد فيه في إطار سباق دولي حول النفوذ الاقتصادي لإعادة توزيع القوة الاقتصادية العالمية، وفي هذا السياق فالمغرب كمركز ثقل استراتيجي مهم، مؤهل بامتياز للعب دور القائد الجيواستراتيجي والزعيم الروحي في القارة الإفريقية - التي تعد ضمن مجالاته الحيوية- من خلال تعزيز مكانته في صناعة القرار الإفريقي، وبالتالي الإسهام في إعادة تشكيل خريطة سياسية جديدة لإفريقيا، خاصة وأن الإستقطاب الأوربي الأمريكي للمنطقة الإفريقية تتحكم فيه الاعتبارات الاقتصادية والاستراتيجية بالدرجة الأولى.

إن تكريس الواجب المغربي تجاه إفريقيا من خلال اعتماد البعدين الإسلامي والإفريقي كثوابت مدسّرة لسياسته الخارجية، يمثل تنويعا للمسؤوليات التاريخية لإمارة المؤمنين بإفريقيا، وللمضي قدما في المساهمة في تأمين وتأمين الأمن الروحي للشعوب الإفريقية قصد إعطاء قوة الدفع الأساسية للعلاقات المغربية الإفريقية نحو آفاق أوسع.

وتستمد دبلوماسية إمارة المؤمنين مقوماتها من طبيعة النظام المغربي الذي يتميز بتوظيف البعد الديني ضمن الفلسفة السياسية للحكم من خلال إعطاء مكانة خاصة للسياسة الدينية في إطار تدبير شؤون الدولة، ويتجلى هذا التوظيف في مفهوم إمارة المؤمنين باعتبارها المرجعية التاريخية التي تشكل صمام أمان للسياسة الدينية التي تركز على أن ولي الأمر، يستمد مشروعيتها من كونه أميرا للمؤمنين، ملتزما بحماية الدين، وحماية الثوابت الدينية المشتركة مع البلدان الإفريقية، ومعلوم أن هذه الثوابت المتمثلة في العقيدة والمذهب والسلوك الروحي، ثوابت يرعاها ويدرسها العلماء، ويعمل بمقتضاها الأئمة<sup>1</sup>.

1- مقتطف من كلمة وزير الأوقاف والشئون الإسلامية السيد أحمد التوفيق في جلسة بالأمم المتحدة - يوم 30 شتنبر 2014 بنيويورك - حول موضوع التجربة المغربية في ميدان محاربة الإرهاب، وذلك في إطار الجلسات التي نظمتها لجنة مكافحة الإرهاب التابعة لمجلس الأمن الدولي.



## بحثاً عن الإسلام في شعر المسيحيين العرب

ذة. حنان السقاط

كلية الآداب سايس- فاس.

أصدر الكاتب اللبناني فارس يواكيم كتاباً بعنوان "الإسلام في شعر المسيحيين"<sup>1</sup> جعل موضوعه الرئيسي منصباً على اهتمام الشعراء المسيحيين العرب بالإسلام.

والمسيحيون العرب يتوزعون على سبعة أقطار: مصر، السودان، لبنان، سوريا، فلسطين، الأردن والعراق. وترجع جذورهم إلى ثقافات مختلفة كانت سائدة في تلك البلاد قبل ظهور الإسلام، وقبل أن تصبح هذه الأمصار عربية إسلامية، مثل القبطية والأشورية والآرامية والسريانية. لكنهم استعربوا بعد الفتح الإسلامي وأضحت اللغة العربية لغتهم الأم في الكتابة وفي الحياة اليومية بلهجاتها المتفرعة من اللغة العربية الفصحى.

والشعراء الذين وردت قصائدهم في هذا الكتاب ينتمون إلى أربع دول عربية: لبنان، سوريا، فلسطين والسودان، مع استشهد ببعض أبيات لشعراء مصريين في مقدمة الكتاب. والواقع أن مساهمة أقباط مصر في الحياة الثقافية العربية كانت في مختلف المجالات الأدبية إلا الشعر. ومنهم من كان روائياً ومسرحياً وناقداً وباحثاً أكاديمياً ومؤرخاً (على سبيل المثال: إدوار الخراط، ألفريد فرج، لويس عوض، سلامة موسى، ميخائيل رومان، مجيد طوبيا...). كذلك الأمر في العراق (الأب أنستاس الكرمل، كوركيس عواد، روفائيل بطّي وسواهم)، وإنْ ظهر في العقود الأخيرة شعراء مسيحيون مثل سركون بولص وجان دقو، بيد أن قصائدهم تنتمي إلى الشعر الحديث ولم تكن الموضوعات الدينية في دائرة الاهتمام. والملاحظ أن القصائد التي اختارها مؤلف الكتاب جميعها ينتمي إلى الشعر العربي العمودي. بل حتى القصائد الأخرى التي لم ترد في كتاب فارس يواكيم والتي نظمها شعراء عرب مسيحيون فنجدتها من الشعر العمودي أيضاً.

كما أن الشعراء الذين وردت قصائدهم في الكتاب ينتمون إلى القرن العشرين، وإن كان بعضهم ولد في أواخر القرن التاسع عشر، بيد أن إبداعهم أنتج في القرن العشرين. ولا غرابة في ذلك أيضاً، فالشعراء العرب المسيحيون قبل القرن العشرين، لم ينظموا قصائد في موضوع الإسلام، وإن تضمنت أشعارهم الأخرى استعارات تشي بالمأمهم بالثقافة الإسلامية.

1 - عن دار "الفرات للنشر والتوزيع"، بيروت، 2016م، ط. الأولى.

والمسيحي العربي ينشأ في كنف الثقافة الإسلامية ويتعرف على الإسلام منذ تفتح وعيه، عبر المدرسة أو من خلال الجيران المسلمين؛ ولأن اللغة العربية هي لغته الأم، وهي في الوقت نفسه لغة القرآن الكريم، فلقد كان ولوج الثقافة الإسلامية سهلاً بالنسبة إليه. والعوام من المسيحيين العرب يستخدمون التعبيرات الإسلامية في حديثهم اليومي من مثل "لا حول ولا قوة إلا بالله" أو "حسبي الله ونعم الوكيل". أما الخاصة فقد أظهروا اهتماماً كبيراً باللغة العربية وبالثقافة الإسلامية. ويشير فارس يواكيم في كتابه إلى أن "أدباء عرب معروفين مسيحيين صَدَّروا كتبهم بالبسملة. منهم الأديب ناصيف اليازجي في كتابه (العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب)، ومنهم الخوري يوسف عون لدى ترجمته للإنجيل. ولا غرابة في ذلك، فالمسيحي يؤمن بأن الله رحمان ورحيم".

"ومنذ القرن التاسع عشر بدأ عدد وافر من الأدباء المسيحيين ينشر كتاباته وأصبح عدد لا بأس به منهم من أعلام الأدب العربي. حتى في الحقبة العثمانية التي امتدت لنحو خمسة قرون وضعف فيها الاهتمام باللغة العربية، حافظ المسيحيون العرب على اللغة وتمسكوا بها"، وكان الإسلام في نظرهم صنو العروبة والمرجعية الثقافية للعرب (...). وفي ضوء هذا يُردّ رفض الأدباء المسيحيين للاحتلال العثماني لبلادهم إلى انتمائهم إلى القومية العربية والتزامهم بها، وهو ما جعلهم يرفضون الاستعمار الأجنبي لبلادهم بكل جنسياته، فرنسية كانت أم بريطانية، حتى وإن كانت هذه الدول (مسيحية). والخلاف مع العثماني ليس لكونه مسلماً، بل لأنه يحتل الوطن. وقد روى د. حديد السراج عن والده الأديب واللغوي السوداني أنه كانت للشيخ الطيب السراج علاقات واسعة مع إخوتنا المسيحيين السودانيين الأقباط، الذين كانوا دائماً صفاً واحداً مع إخوتهم المسلمين السودانيين في مواجهة المستعمرين الإنجليز ومكائدهم والتصدي لسياساتهم المعادية لشعب السودان ومناضليه"<sup>1</sup>.

والالتزام بالعروبة كمرجعية فكرية وسياسية جعل الشعراء العرب المسيحيين يدعون إلى التآخي مع المسلمين وإلى نبذ الفتن. وللشاعر الفلسطيني وديع البستاني قصيدة جاء فيها:

المسلمون مع النصارى كبروا ومهللون من النصارى رحبوا

والمهد للأقصى انثنى وتعانقا وانظر فحولك بيت لحم ويثرّب

والشاعر الشهير إيليا أبو ماضي حين كتب قصيدة "الحرب العظمى" في أعقاب الحرب العالمية الأولى، اشتكى من أهوال الحرب عموماً وما خلفته من قتلى ودمار، كما انتقد بني قومه المتقاعسين،

1 - "الإسلام في شعر المسيحيين"، ص 9.

الذين بدلا من الانتفاض لكرامتهم الوطنية انشغلوا بالتناحر الداخلي، ودعا إخوانه المسيحيين والمسلمين إلى التآخي بدلا من التنابد:

|                                      |                           |
|--------------------------------------|---------------------------|
| ما بال قومي نائمين عن العلى          | ولقد تنبّه للعلی الثقلان  |
| تباع أحمد والمسيح هواده              | ما العهد أن يتنكر الأخوان |
| الله ربّ الشرعتين <sup>1</sup> وربكم | فإلى متى في الدين تختصمان |
| مهما يكن من فارق فكلكما              | يُنهى إلى قحطان أو غسان   |
| فخذوا بأسباب الوفاق وطهروا           | أكبادكم من لؤثة الأضغان   |

واشتهر الشاعر المهجري الآخر رشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) بالتزامه الحاد بالفكر القومي العربي، وهو الذي جعل العروبة والإسلام وجهان لعملة واحدة. ومن قصيدة له بعنوان "الناخلة":

|                              |                             |
|------------------------------|-----------------------------|
| من يُنبئ الملاء الذين أحبهم  | فيكافئون الحبّ بالعدوان     |
| أني على دين العروبة واقف     | قلبي على سُبُحاتها ولساني   |
| إنجيلي الحبّ المقيم لأهلها   | والذودُ عن حُرُماتها فرقاني |
| أرضيتُ أحمدَ والمسيحَ بثورتي | وحماستي، وتسامحي وحناني     |
| يا مسلمون ويا نصارى دينكم    | دينُ العروبة واحدٌ لا اثنان |

وتسمع صدى العروبة في التوحيد بين المؤمنين في قصيدة "عرس الشعر" للشاعر السوري عبد الله يوركي الحلاق، جاء فيها:

|                              |                                 |
|------------------------------|---------------------------------|
| العرب أهلي وجدّ الجدّ غسان   | والضاد أمّ ونور الله قرآن (...) |
| أمنت بالحبّ لم أؤمن بتفرقة   | وفي فؤادي إنجيلٌ وفرقان         |
| وسرت في موكب الإيثار فانكسرت | على صخور الأنا والكفر أوثان     |
| محمدٌ وكتاب الله في يده      | دستور ديني به الإنسان إنسان     |

ومحذرا من الابتعاد عن العروبة والوقوع في تأثير مغريات الغرب المستعمر، كتب الشاعر اللبناني نقولا فياض:

1 - تعبير "الله ربّ الشرعتين" هو في معناه مستوحى من قوله تعالى: "... لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة..."، الآية 50 من سورة المائدة.



بني أُمي، خَبَرنا الغربَ دَهراً  
فكيف يَغُرّنا منه سَرابٌ  
تباعَدنا زماناً وافترقنا  
وهلاً كان غير الحب حالٌ  
وما استقلّالنا إلا سبيل  
ضرعتُ إلى السماء بحقّ عيسى  
وشاهدنا مطامعَه عياناً  
نشدّ له الرجال وما سقانا  
فهلّا جاء موعَدنا وحانا  
يوحدّنا ويبلغنا منانا؟  
لنوسع في مدى العليا مدانا  
وحقّك يا محمد أن يُصانا

ويصاب القارئ بدهشة حين يقرأ قصيدة "مناسك الحج" للشاعر والصحافي اللبناني جبران تويني (1890-1947م)، فهو المسيحي الذي لم يَقم بأداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، لكنه في قصيدته يتكلم عن الحج كما لو أنه مارسه. قال في مطلعها:

هذا الحجيج أقبلا، مكبّرا مهللاً  
يطوف بالبيت العتيق ساعيا مهرولاً  
الله لا إله إلا الله قمّ حيّ على

وأكمل:

طاف بالبيت محرماً وتهاياً  
ومشى من منى إلى عرفات  
ويناجي النبي في مهبط الوحي  
للقاء الرحمن برّاً نقيّاً  
يذكر الله بكرة وعشياً  
هنيئاً لمن يناجي النبيّاً

(...) ويختتم جبران تويني قصيدته بقوله:

لبّيك اللهم يا رحيم  
من زمزم نروى، وأكبادنا  
لك ازدلفنا بجوار الحطيم  
حرى إلى غفران يوم عظيم

(وفي القصيدة أبيات لم ترد في كتاب فارس يواكيم هي التالية:

أيّ بادٍ أو عاكف ما تنادى  
نفر المؤمنون من كلّ فجٍ  
نظمّتهم بطحاء مكة عقداً  
هذه قبلة الصلاة فهيّا  
بنفوسٍ من روعة الوحي ربّا  
جعل الله دينه عربياً)

ومن دلائل الإلمام الكبير بالثقافة الإسلامية حتى وإن لم يكن موضوع القصيدة إسلامياً، هو تضمين الشعراء أبيات قصيدتهم باستشهادات مستوحاة من القرآن الكريم. كمثال قول الشاعر المصري تادرس وهي (1860-1934م) في الذكرى السنوية الأولى لمصرع بطرس غالي: "ربّ كن لي فيما أحاول، وأحلل حين أرثيه عقدة من لساني"<sup>1</sup>.

\*\*\*\*\*

1 - مستوحاة من قوله تعالى في سورة طه، الآيات 24 إلى 27: "قال ربّ اشرح لي صدري، ويسّر لي أمري، واحلل عقدة من لساني، يفقهوا قولي".

إن الشعراء الذين اختارهم فارس يواكيم في كتابه، هم: إلياس فرحات، بولس سلامة، جورج رجي، جورج شكور، حليم دموس، خليل فرحات، خليل مطران، رشيد سليم الخوري، رياض المعلوف، ريمون قسيس، سعيد عقل، شبلي الشميل، شبلي الملائكة، صلاح لبكي، مارون عبود، محبوب الخوري الشرتوني، نقولا فياض (لبنان)، إدوار مرقص، إلياس قنصل، جاك شماس، جورج صيدح، رفيق رزق سلوم، زكي قنصل، عبد الله يوركي الحلاق، ميشيل مغربي، وصفي قرنفل (سوريا)، سعيد العيسى، كمال ناصر (فلسطين)، صالح بطرس، عزيز التوم منصور (السودان). بعضهم أصاب شهرة كبيرة في العالم العربي، وبعضهم معروف لدى النخب العربية فقط، وبعضهم قليل الشهرة. وحسنا فعل فارس يواكيم حين قدم كل شاعر منهم بعرض لسيرة حياته.

والقصائد التي اختارها تشمل مواضيع إسلامية مختلفة. بعضها ذو مضمون يتعلق بجوهر الإسلام وبرسول الله (صلى الله عليه وسلم). وبعضها ذو صلة بأحداث ومناسبات إسلامية. على أن جهد المؤلف الأبرز كان في البحث الذي قدمه وهو يربط أبيات القصائد بمرجعيتها الإسلامية.

في قصيدة "النبي العربي الكريم" لإلياس قنصل تناول الشاعر سيرة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ومغزى رسالته. وفي أبيات منها إحالات على أحداث ذات صلة بتاريخ السيرة النبوية. منها العرض الذي تقدم به عتبة بن ربيعة (أبو الوليد) وهو من سادة قريش إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد التقى به منفرداً في المسجد. وكان عتبة موفداً من قريش بعدما أخذ عدد المسلمين في تكاثر، فحاولت قريش القضاء على الدعوة مبكراً عبر العرض المغري. قال عتبة: "يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا". وكان أن رفض الرسول صلى الله عليه وسلم العرض وأسمع عتبة سورة "فصلت" من القرآن الكريم. وفي القصيدة ترد هذه الواقعة، في الأبيات التالية:

|                             |                               |
|-----------------------------|-------------------------------|
| إني ذكرتكَ يا محمد مصغياً   | لحديث عمّ ناصح حيران          |
| يغريك بالذهب الوفير وكم عنت | للفلس من مهج ومن أذهان        |
| "إن كنت تبغي أن تكون مسوداً | جاءت إليك سيادة الأقران"      |
| ومحا جوابك والوقار غلافه    | ربما أثارت عاصفة النكران      |
| "ما المال حين تقيسه برسالة  | علوية؟ ما المجد؟ ما القمران؟" |
| مثلٌ من الخلق الجليل تركته  | درساً لكل مناضل متفان         |

وحين حاولت قريش تهديد النبي صلى الله عليه وسلم وأبلغت عمه أبا طالب بذلك ونقله إليه، كان جواب النبي صلى الله عليه وسلم: "يا عماء، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته". (في القصيدة: ما المال حين تقيسه برسالة علوية؟ ما المجد؟ ما القمران؟).

وبعد البعثة، فكر الرسول صلى الله عليه وسلم في نشر دعوته خارج مكة، فقصد الطائف، وكانت ثاني المدن كبرا ومركزا مهماً. وحين دعا أهلها إلى الإسلام عميت أبصارهم وبصائرهم، بل أرسلوا سفهاء منهم يطاردونه ويقذفونه بالحجارة والشتائم. ويتجلى ذلك في القصيدة:

|                           |                             |
|---------------------------|-----------------------------|
| يتألبون تألب الذؤبان      | إني ذكرتك يا محمد والعدى    |
| ليل الفساد أصابغ الشيطان  | ضربت على أبصارهم وقلوبهم    |
| صوت يفتح مغلق الآذان      | ويقض تالد جهلهم وغرورهم     |
| وبكل وغد حائق شنان        | فيلحقونك بالتراب وبالحصى    |
| حتى يتم النصر للديدان     | وتظل تدعو لا تني لك همّة    |
| دنيا .. تذلل لقوة الإيمان | فأريت معجزة العزيمة والرجا: |

ويذكر الشاعر أول مؤذن، بلال رضي الله عنه، الذي كلفه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بمهمة الأذان لجمال صوته، وأعطاه هذا التشريف برغم سواد بشرته وعنصرية القوم آنذاك. وجاء التكليف منسجماً مع الحديث الشريف في خطبة حجة الوداع: "أيتها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر، إلا بالتقوى".

|                            |                            |
|----------------------------|----------------------------|
| إني ذكرتك يا محمد ناشرا    | روح الأخوة في بني الإنسان  |
| يعلو "بلال" العبد أشرف قبة | ليذيع منها أشرف الألحان    |
| حق المواهب أن يقدّر أهلها  | لا فرق في الأجناس والألوان |
| والحكم للأعمال: فاسع بغيرة | ترجح بفضلك كفة الميزان     |

وللشاعر بولس سلامة قصائد عديدة في موضوع الإسلام، ومنها قصيدة "صلاة الاستسقاء". وقد أجراها الشاعر على لسان عبد المطلب جد النبي (صلى الله عليه وسلم). وفيها طيّ الدعاء تضرع إلى الله بالحفيد الطفل الوليد، وكان ابنه عبد الله، أبو الرسول صلى الله عليه وسلم، مات وأمه حبلى



به، فولد يتيما في العام الذي هاجم فيه أبرهة ملك الحبشة مكة مستخدما العديد من الفيلة، وهي الواقعة التي سجلها القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة الفيل: ﴿ألم تَرَ كيف فعل ربنا بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيرا أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول<sup>1</sup>﴾. وفي القصيدة أيضا بيت جاء في صدره: "لا علينا بل حولنا الغيث يهي"، وهو مستوحى من دعاء قاله النبي (صلى الله عليه وسلم) عند نزول المطر بشدة: "اللهم لا علينا، بل حولنا".

|                             |                                 |
|-----------------------------|---------------------------------|
| ربّي ارحم أطفالنا فحرام     | أن يحلّ العقاب بالأبـرياء       |
| إنني ضارع إليك بهذا الطفل   | يا ربّ لا تخيّب دعائي           |
| هو مني كالروح للجسم حتى     | لا أساوي بحبّه أبنائي           |
| مات في غربة أبوه فلاح       | في محيّا بركات رجائي            |
| كان هذا الطفل اليتيم رضيعا  | يوم مادّت جوانب البطحاء         |
| بعجيج الأفيال والجيش مجرّ   | كجبال الأمواج في الدماء (..)    |
| أنت أفنيت ذلك الجيش عدلا    | ودفنت الطغاة في الكبرياء        |
| ودفعت الطير الأبابيل تهوي   | فتفلّ الأبطال بالحصباء          |
| وابلّ من حجارة ورعود        | وأزير مزمر في الفضاء            |
| فإذا الجيش والعتاد حطام     | واشتباك الأشلاء بالأشلاء        |
| قد منعت البيت العتيق وصنت   | الركن من صولة اليد الهوجاء (..) |
| ربي ارحم عبيدك اليوم واعطف  | واستجبنا بديمة وطفاء            |
| لا علينا بل حولنا الغيث يهي | وتسيل الحياة في الغبراء         |

وحين تناول جورج صيدح موضوع "المولد النبوي" استخدم لازمة شعرية تتكرر في قفلات المقاطع مستوحيا آية من سورة الرحمن، هي قوله تعالى: "فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان"، معتمدا تكرارها كما تتكرر الآية في السورة، ومقتبسا الصياغة، مع تنويعات طفيفة (منها تغيير كلمة). أما "الأزهران" الواردة في البيت الثالث، فهما الشمس والقمر، وقد رفض الرسول (صلى الله عليه وسلم) التراجع عن رسالته ولو وضعوهما في يمينه ويساره. وأما "السبع المثان"، فهي الواردة في قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم<sup>2</sup>﴾. وفي المقطع الأول إشارة إلى رفض الرسول صلى الله عليه وسلم للوثنية:

1 - سورة الفيل، الآيات 1-5.

2 - سورة الحجر، الآية 87.

وجهٌ أطل على الزمانُ      لألاؤه شقَّ العنانُ  
فيه شعاع النيرات      وفيه أنفاس الجنان  
ضاقت قريش به، أما      يكفي قريش الأزهران؟  
من ذا رأى طفلاً يناغي      الله بالسبع المئان؟  
نبذ التمايم وهو في      مهد الرضاعة والختان.  
يا صاحبي، بأي آلاء      السماء تكذبان؟

ويستمر الاستناد على القرآن الكريم في العديد من أبيات القصيدة. مطلع المقطع الثاني "الله الذي إن قال كُنْ للشيء كان" مستوحى من (قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>1</sup>، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾<sup>2</sup>. والكلام على (الروح يملئ...)، وبأن الضاد هي لغة التنزيل، جذوره في قوله تعالى: ﴿نَزَّلَهُ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَاقِلِيلًا لَتَكُونَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾<sup>3</sup>، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾<sup>4</sup>، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾<sup>5</sup>.

لا يعجز الله الذي      إن قال كُنْ للشيء كان  
أمر الرمال فأطلعت      صحراء يثرب أقحوان  
لرسل آيات، وهذا      الطفل آتته البيان  
الروح يملئ ما      يترجمه، ونعم الترجمان  
بالضاد آذن ربّه      فتخلّدت لغة الأذان  
يا صاحبي، بأي آلاء      الرسول تكذبان؟

وإذ تقرأ البيت القائل: "يوفون بالنذر الذي كتب الكتاب له الضمان" يذهب ذهنك فوراً إلى قوله تعالى في سورة الإنسان: ﴿يُوفُونَ بِالنَّكْرِ وَيُنَاقُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَضِيراً﴾<sup>6</sup>.

1 - سورة النحل، الآية 40.

2 - سورة مريم، الآية 34.

3 - سورة الشعراء، الآيات 193-195.

4 - سورة يوسف، الآية 2.

5 - سورة الزخرف، الآية 2.

6 - سورة الإنسان، الآية 7.

تَغْنِيْ عُرُوسَ الشَّعْرِ بِاسْمِ مُحَمَّدٍ      وَهَزِيْ بَنِي الدُّنْيَا بِسِيْرَةِ أَحْمَدٍ  
تَغْنِيْ بِأَمْجَادِ الْجُدُودِ وَأَيُّقُظِي      بِقِيَاثَةِ الْإِلْهَامِ أَجْفَانَ هُجْدٍ  
تَغْنِيْ بَأَيِّ الذِّكْرِ وَالْفَتْحِ وَالْهَدَى      تَغْنِيْ بِعَهْدِ الْخَالِدِينَ وَرَدْدِيْ

وفاجأه الروح الأميين بهمسة  
أذان من الصحراء من قلب مكة  
فلست ترى أنى تجلّى كتابه  
وأقسم لو يدري الورى كنه دينهم  
ولا أطلقوا يوما قنابل مدفع  
فأنت أخي ما دامت الأرض أمنا  
لعمرك ما الأديانُ إلا نوافذ  
تعاليم إصلاح وعدل ورحمة  
ولو شاء ربّ الكون توحيد خلقه

والبيت الذي صدره: "وفاجأه الروح الأمين بهمة"، فهو مستوحى من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَتَنْزِيلِ رَجٍ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ<sup>1</sup>﴾. وقول الشاعر: "فأنت أخي ما دامت الأرض أمنا"، هو تصوير شعري للحديث النبوي الشريف: "لكم لأدم وأدم من تراب". وأما قول الشاعر: "ولو شاء ربّ الكون توحيد خلقه"، فهو مستوحى من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَجَعَلْنَا بَشَرًا وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُتْتَفِلِينَ...<sup>2</sup>﴾.

2 - سورة هود، الآية 118.



موضوع "رأس السنة الهجرية" أيضاً، تناوله غير شاعر. واختار فارس يواكيم قصيدة طويلة للشاعر خليل مطران:

هلّ الهلال فحيّوا طالع العيد      حيّوا البشير بتحقيق المواعيد  
يا أيها الرمز تستجلي العقول به      لحكمة الله معنى غير محدود  
كأنّ حسنك هذا وهو رائعنا      حسنٌ لبكرٍ من الأقمار مولود  
رسالة الله لو حلت على جبلٍ      لاندكّ منها وأضحى بطن أخدود  
ولو تحمّلها بحر لشبّ لظىً      وجفّ وانهل فيه كلّ جلمود

وفي البيت الذي قال فيه الشاعر: "رسالة الله لو حلت على جبل..."، استيحاء من قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله...﴾<sup>1</sup>.

وفي التاريخ الإسلامي أن قريشا لم تطق في البدء دعوة محمد (صلى الله عليه وسلم) وحاولت ثنيه عنها بشتى الطرق، بالترغيب والترهيب، إلى حد التهديد، ثم إلى حد التآمر عليه لقتله، فكان أن أوحى الله إليه مغادرة مكة. ومضى الرسول (صلى الله عليه وسلم) يصحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه باتجاه المدينة، حتى وصلا إلى غار ثور فاحتميا به. وشقّ على المشركين إفلات محمد (صلى الله عليه وسلم)، فراحوا يبحثون عنه، وكان أن وقفوا بباب الغار، وقال أبو بكر (رضي الله عنه): "لو أن أحدهم نظر إلى قدميه، لأبصرنا تحت قدميه"، فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم): "ما ظنك باثنين الله ثالثهما". وفي القرآن الكريم ذكر لهذا الحدث في قوله تعالى: ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إنه أخرجه الذّين كفروا ثلثي اثنين إنما هما في الغار إنما يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينة عليه وأيده بمجنون لم ترهوا وجعل كلمة الذّين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾<sup>2</sup>. والبيت الذي يقول فيه الشاعر: "حماء وشي بباب الغار منسدل..."، هو تعبير شعري لما جاء في كتب السيرة النبوية، أن العنكبوت نسجت نسيجها على فم الغار، ووقفت حمامتان بريتان على مقربة منه، فلم يتمكن المشركون من العثور على النبي (صلى الله عليه وسلم). وأما البيت الذي به ذكر للأفعى التي هاجمت الصديق رضي الله عنه، ففيه إحالة على ما رواه الثقات عن الأفعى التي لدغت الصديق رضي الله عنه، وهما في الغار فواساه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: "لا تحزن إن الله معنا".

1 - سورة الحشر، الآية 21.

2 - سورة التوبة، الآية 40.

فإذ غلا القوم في إيذائه خطلاً  
دعا الموالين إزماعاً لهجرته  
مضى هو البدء والصديق يصحبه  
مواليا وجهه شطر المدينة في  
حتى إذا اتخذ الغار الأمين حمى  
حماه وشي بباب الغار منسدلاً  
يا للعقيدة والصديق في سهرٍ  
إنَّ العقيدة إنَّ صحتْ وزلزالها  
وشرّدوا تابعيه كلّ تشريدٍ  
فلم يجبه سوى الرّهط الصناديد  
يغامر الحزن في تمهات صيخودٍ  
ليلٍ أغرَّ على الأدهار مشهودٍ  
ونام بين صفاء نوم مجهودٍ  
من الأولى هددوه شرّاً تهديدٍ  
تؤذيه أفعى وببكي غير منجودٍ  
مفني القرى فهي حصن غير مهدودٍ

أما موضوع الإسراء والمعراج، فقد تناوله الشاعر الفلسطيني سعيد جريس العيسى بقصيدة عنوانها "من وحي الإسراء". والإسراء هو الرحلة التي قام بها النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى بيت المقدس. وقد أتى ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي بركنا حوله لنريه من إياتنا إنه هو السميع البصير﴾<sup>1</sup>. والشاعر نظم قصيدته مستلهماً ما جاء في القرآن الكريم، ومن التفاصيل التي أوضحتها السيرة النبوية والأحاديث النبوية الشريفة. وإذا كان أمر المعراج لم يذكر بالاسم تحديداً في القرآن الكريم، فإن آيات عديدة من سورة النجم تشير إليه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ثُمَّ رَآهُ فَتَكَلَّمَ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَوْحَى فَأُوْحِيَ إِلَيْهِ الْعِبْرَةُ مَا أُوحِيَ مَا كَتَبَ الْفُؤَادُ وَمَا رَأَى أَوْفَتَمَارُونَهُ عَلَماً يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ مِزَارِ الْمُنتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَغْشَى السَّحَابَ مَا يُغْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا كَفَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾<sup>2</sup>.

سبحان ربك إذ أسرى بأحمده  
يطوي الجزيرة تجوالاً وينشرها  
يحار في ليله الخربى متعسفا  
حتى إذا بلغ (الأقصى) تحف به  
لوى الأعنة شطر (البيت) واندفعت  
على (البراق) إلى السبع الطباق رقى  
وصحبه أنبياء الله في رتب  
وحف جبريل والروح الأمين به  
توق إلى رحموت الله يدينه  
من مسجد الله في إحدى لياليه  
في مهمه مقفر جهنم نواحيه  
كانه ضارب في غمرة التيه  
ملائك الله، والرحمن يحميه  
هوج العواصف يطويها وتطويه  
مصعداً، نور رب العرش صبيهي  
خفوا إلى المصطفى، كل يحييه  
وانهل فيض ربوبي يغشيه  
والخوف من رهبوت العرش يقصيه

1 - سورة الإسراء، الآية 1

2 - سورة النجم، الآيات 18-7.

صوت من الملاء الأعلى يهيب به      "أقبل" فأذعن مصعوقاً يلتيه  
دنا من السدرة الميمون مغرسها      فكان قوسين من أعتاب باريه  
رنا إلى ملكوت الله فانهمرت      عيناه، وانحبست نجواه في فيه  
رأى الذي ما رأت عين ولا سمعت      أذن على الدهر: ماضيه وآتيه  
وآب والليل ما آبت كواكبه      وبعدُ بالفجر ما شابت نواصيه  
لتلك من مبدع الأكوان معجزة      وفضل ربك ذا، من شاء يؤتيه

وحريق المسجد الأقصى (في 21 آب/أغسطس 1969م) ألهم الشاعر السوداني عزيز التوم منصور قصيدة كتبها الشاعر تأثراً بنبأ الحريق الضخم الذي شبَّ في المسجد، والتهمت النيران محتويات الجناح الشرقي وأبرزها منبر صلاح الدين التاريخي. مطلعها:

يا مسجداً فوق اللهب وتحت أدخنة الحريق  
النار منك مشاعل باتت تنير لي الطريق  
أنا موعدي هذا الدخان ووجهي هذا البريق  
أنا لست التمس الرفيق فليس يعوزني الرفيق  
سأسير في كفني إليك وبني إليك هوى وثيق  
يا قبلة الدنيا وفي نفسي إليك هوى صريح  
إني بكيك عليك أمس كما بكيك على المسيح

وبعد أن يعرض تقاعس الذين لم يهزم هذا الحريق، يختم قصيدته مستغيثاً بالرسول (صلى الله عليه وسلم)، الذي أسري به إلى المسجد الأقصى وعرج من هناك إلى السماوات العلى، ويخبره أن العرب لم يجبنوا، لكنهم مختلفون وليس بينهم اتفاق.

لَهُمْ هَذَا بَيْتُكَ الْأَقْصَى ، وَبَيْتُكَ لَا يَهَانُ  
لَهُمْ لَا تَكْتُبْ عَلَيْنَا أَنْ نَصِيرَ إِلَى هـ\_\_\_\_وَان  
أَنْتَ الْقَوِي وَبَيْتُكَ الْأَقْصَى يَدُورُ بِهِ الزَّمَانُ  
أَيْتِيحُ قَدْ سَكَ لِلْغَزَاةِ الْكَافِرِينَ الظَّالِمِينَ  
وَطُئُوا هُنَاكَ كَأَنَّمَا وَطُئُوا جِبَاهَ الْمُسْلِمِينَ  
صَلَبُوا الْمَسِيحَ وَهَاهُمْ صَلَبُوا رَجَاءَ الْمُؤْمِنِينَ  
لَهُمْ أَنْ تَغْضَبَ فَإِنَّكَ أَنْتَ أَقْوَى الْغَاضِبِينَ  
لَهُمْ أَنْ تَرْضَى فَإِنَّكَ أَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ



وبحق من أسرى إليك وفي جوانحه اشتياق  
وبموضع المعراج يا ربّي بمنطلق البراق  
المسلمون سَعُوا إليك وفي قلوبهم انسحاق  
فاغضب فإن عدوهم شرس العداوة ما يطاق  
والله ما جبنوا.. ولكن ليس بينهم اتفاق

أما مارون عبود شيخ النقاد في زمانه، الأديب الموسوعي الثقافة، المتعدد في ألوان إبداعه،  
فله قصيدة مثيرة للغاية، وعنوانها "محمد مارون". وهو سقى ابنه البكر محمداً على اسم النبي العربي  
الكریم (صلى الله عليه وسلم)، وأصبح مارون يكتى بأبي محمد. وهو عندما نشر هذه القصيدة سنة  
1926م، كتب في مقدمتها: "رزقت ولداً فسميته محمداً، فقامت قيامة الناس، فريق يستهجن ويقبح  
ويكفر، وفريق يوالي وينتصر. وكان أول من قدر هذا العمل وأعجب به أشد الإعجاب، صديقي  
المرحوم أمين الريحاني (...)

عشت يا ابني، عشت يا خير صبي ولدته أمه في "رجب"  
فهتفنا واسمُه محمداً أيها التاريخ لا تستغرب  
خفف الدهشة واخشع إن رأيت ابن مارون سميّاً للنبي  
أمه ما ولدته مسلماً أو مسيحياً، ولكن عربي  
والنبي القرشي المصطفى آية الشرق وفخر العرب

وفي ختامها يوصي ابنه أن يتبع خطاه وينبذ نهج المتعصبين، مشدداً على العروبة التي تجمع  
المسلمين والمسيحيين:

فاتبع يا ابني أباً أبغضه وجفاه كل ذي دين غبي  
فهم آفة هذا الشرق مذ حكموه بضروب الرعب  
جعلوا الأديان معراج العلى ومشوا في زهوهم في موكب

شردوا «أحمد» عن مضجعه فسرى ليلته في كرب  
ودهوا عيسى لما علمه وهو لولا كيدهم لم يصلب  
فإذا ما متُّ يا ابني في غدٍ فاتبع خطوي تفز بالأرب  
وعلى لحدي لا تندب وقل آية تزرى بأعلى الخطب  
عاش حراً عربياً صادقاً وطواه اللحد حُرّاً عربي

\*\*\*\*\*

وبالرغم من الاختيار الموفق الذي قام به فارس يواكيم، فلقد كان من الممكن أن يضيف إلى كتابه مختارات من إبداع شاعرين مسيحيين عربيين، هما: سابا زريق، وعبد المسيح الأنطاكي. فأما سابا زريق، فهو شاعر لبناني ولد في طرابلس عام 1888م، وفيها توفي عام 1974م. وله غير قصيدة تناول فيها موضوع الإسلام، ومنها قصيدة "ليستقلوا بالنفوس"، خصوصاً وأن هذه القصيدة تدعو إلى التآخي بين المسلمين والمسيحيين العرب، وهو هدف يتوافق مع الهدف من تأليف الكتاب ونشره. ومن أبيات هذه القصيدة الجميلة:

|                             |                                    |
|-----------------------------|------------------------------------|
| هذي يدي للمسلمين أمدّها     | باسم النصارى هازجاً أترنّم         |
| المخلصين الودّ إن هم أخلصوا | المقسمين على الوفا إن أقسموا (...) |
| ديني ودينك يا موحد واحد     | طه سبيلك أم مسيحي السّلم           |
| أنا عيسويّ ما تشاء عقيدتي   | لكني في شرع حبّك مسلم              |

وأما عبد المسيح الأنطاكي (1875-1922م)، فكانت الإشارة إليه والتعريف به مفيداً لإثراء الكتاب، لا سيما وأنه من الرواد في مجال موضوع الكتاب. وهو ولد ونشأ وتوفي في مدينة حلب السورية. والطريف لديه أنه صاغ ملحمة هي الأطول في تاريخ الشعر العربي، بعنوان "القصيدة العلوية المباركة"، وعدد أبياتها 5595 بيتاً، نظمها على وزن واحد وقافية واحدة، وهي تناولت سيرة الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه). وكان من البديهي أن يغوص في موضوع "نهج البلاغة"، وأن يشيد بفصاحة الإمام:

|                                   |                              |
|-----------------------------------|------------------------------|
| نعم فصاحته ما من يُقاربه          | فيها وحسبي عليّ كان يُنشئها  |
| وإنّه دون ريب سيّد الفصحاء        | الناثرين من الأقوال درارها   |
| وإنّها فوق أقوال البريّة طُرّاً   | إنّما دون ما قد قال بارها    |
| وهي التي تُسجّر الأبواب ما تُليّت | سجراً حلالاً يغشي نفس تاليها |

لكنه لم يقتصر في الملحمة على سيرة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فحسب، بل شملت تاريخ العرب وتراثهم وتقاليدهم:

|                                  |                                     |
|----------------------------------|-------------------------------------|
| سِر في الأعـارب وانزل في مغانيها | واشهد مكارم باديها وقاريها          |
| وصف فإن مجال الوصف ذو سعة        | خلالها الزهر مع سامي مباديها (...)  |
| وأمة خير ما تسمّى به عربّ        | إن رآهم تمجيدها يوماً مسمّيها (...) |
| والعرب من قدم أسى الورى حسباً    | إذا رجعنا إلى تاريخ ماضيها (...)    |
| وأن أحكامها شورى يصيخ لها        | شيوخها إذ تنادى مستشاريها           |
| شورى إليها انتهت من جاهليتها     | تالله قد اتخذتها عن قريشها          |
| وقد أنزل في القرآن آيها الغـرا   | لتردع عنها مستبديها                 |

وكان الأديب السوري سامي الكيالي كتب عنه مرتين، في كتاب "الأدب العربي المعاصر في سوريا"<sup>1</sup>، وفي مجلة "العربي"<sup>2</sup>. في الكتاب قال عن هذه الملحمة: "وهي وإن لم تبلغ مبلغ الشعر الجيد إلا أنها تنم عن قريحة وقادة، ولا سيما وقد كان الشعر في زمنه لا يزال وثيق الصلة بشعر عصر الانحطاط. وعلى كلّ فيمكن اعتبارها من الملاحم العربية في عصرنا هذا". وفي مجلة "العربي" أعاد نشر هذا الرأي، لكنه استطرد قائلاً: "ويضاف إلى ذلك أن إخضاع حوادث التاريخ إلى قوالب الشعر ليس من الأمور السهلة التي تمكّن الشاعر، مهما علا كعبه في النظم، أن يضفي على شعره هذا الجو السحري الذي يهزّ النفس ويثير كوامن الوجد".

جدير بالذكر في الختام أن كتاب "الإسلام في شعر المسيحيين" تميّز ثقافياً واجتماعياً؛ ثقافياً لكونه اشتمل على بحث عرّفنا بشعراء عرب مسيحيين كتبوا في موضوع الإسلام، عرّفنا بسيرهم الذاتية وبالقصائد التي كتبوها بنقّسٍ إيجابي، حتى لو أننا أخفينا اسم الشاعر لكان يمكن اعتبار الناظمين مسلمين. كما كان تحليل القصائد جديراً بالاهتمام، لكونه أوضح العلاقة بين أبيات القصائد وتأثيرها بالثقافة الإسلامية. أما من الناحية الاجتماعية، فالكتاب يفيد في حوار الحضارات من حيث التعريف بالآخر، ليدرك المسيحيون العرب ما كتبه أبرز شعرائهم من قصائد تناولت موضوع الإسلام بمودّة، وليدرك المسلمون العرب أن المسيحيين العرب إخوانهم في الوطن.

1 - دار المعارف - القاهرة.

2 - يونيو 1967م - الكويت.





## ديوان العدد





## هذي الثوابت سر وحدة شعبنا

الشاعر محمد البلغي-فاس

وَاصْدَحْ بِهِ كَالطَّيْرِ فِي الْأَغْصَانِ  
جَيَّاشَةً بِمَحَبَّةِ الْأَوْطَانِ  
إِلَّاكَ فِي قَلْبِي وَفِي وَجْدَانِي  
مَاءً وَأَنْعَامًا وَحُسْنَ جَنَانِ  
بَيْنَ الْجِبَالِ... وَحَوْلَهَا بَحْرَانِ  
وَالرَّمْلِ فِي الشَّطْنِ كَالْعُقَيَّانِ  
فِي السَّهْلِ، وَالْهَضْبَاتِ وَالْكَثْبَانِ  
مَأْوَى الْأُسُودِ، وَقَلْعَةُ الشُّجْعَانِ  
مَوْصُولَةٌ بِشَرِيعَةِ الدِّيَّانِ  
بِالْحَقِّ لَا بِالزَّيْفِ وَالْبُطْلَانِ  
نُخَبٌ أَتَتْ مِنْ مَوْطِنِ الْعُرَبَانِ  
قَادَ الْفُتُوحَ، وَكَالَفَتِ "حَسَّانِ"  
"بِشَمَالِ إِفْرِقِيَا"، عَلَى السُّكَّانِ  
بِلِسَانِهِ الْعَرَبِيِّ، خَيْرَ لِسَانِ  
دَكُّوا قِلَاعَ الشَّرِكِ وَالْكَفْرَانِ  
كَيْ يَرْفَعُوا عِلْمَ الْهَدَى لِعِنَانِ  
مِنْ رُومِهَا طُورًا، إِلَى الْإِسْبَانِ  
وَمُحَرَّرًا لِلْفِكَرِ وَالْإِنْسَانِ  
لِلنَّاسِ صَالِحَةً مَدَى الْأَزْمَانِ  
وَضَّاحَةً كَالشَّمْسِ لِلْأَعْيَانِ  
أَهْلِ التَّقَى وَالْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ

غَرَّدَ بِشِعْرِكَ رَائِعَ الْأَلْحَانِ  
وَأَنْظُمَ هَوَاكَ مِنَ الْفُؤَادِ قَوَافِيَا  
وَطَنِي مِنَ الْإِيمَانِ حُبُّكَ، لَيْسَ لِي  
أَعْطَاكَ رَبِّي مِنْ مَوَاهِبِ فَضْلِهِ  
وَحَبَّكَ أَرْضًا قَدْ نَمَتْ خَيْرَاتُهَا  
الْخَيْرُ يَدْفُقُ مِنْهَا مُتَنَوِّعًا  
وَطَنٌ تَقَرَّدَ بِالْمَحَاسِنِ كُلِّهَا  
مُذْ كَانَ وَالتَّارِيخُ يَشْهَدُ أَنَّهُ  
ضَمَّتْ صُفُوفَ الشَّعْبِ فِيهِ وَشَائِجُ  
أَرْسَى دَعَائِمَهَا الرَّسُولُ، وَصَحْبُهُ  
مِنْ عَهْدِ عُقْبَةٍ لِلْمَجَاهِدِ طَارِقِ  
أَهْدَافُهُمْ نَشْرُ الْهُدَى "كَزْهِيرِ" مَنْ  
حَسَّانُ مَنْ "لِلضَّادِ" أَوْجَبَ نَشْرَهَا  
فَبِجْهَدِهِ أَضْحَى الْكِتَابُ مُرْتَلًا  
أُسْدٌ بِهِمْ نُصِرَ الْهُدَى، وَبِعَزْمِهِمْ  
فَهُمُ الَّذِينَ اسْتَرْخَصُوا أَرْوَاحَهُمْ  
وَهُمُ الْأُولَى دَانَتْ لَهُمْ أُمَمُ الدُّنْيَى  
دِينٌ بِهِ جَاءَ الرَّسُولُ مُبَشِّرًا  
وَشَرِيعَةً الْإِسْلَامَ خَيْرُ شَرِيعَةٍ  
وَأَسَاسُهَا وَحْيُ السَّمَاءِ وَسُنَّةُ  
مَرْوِيَّةٌ عَنْ كُلِّ ذِي ثِقَةٍ وَعَنْ

لِلنَّاسِ شِرْعَتُهُمْ بِصِدْقِ بَيَانٍ  
مَنْ عَمَّ عِلْمُهُ سَائِرَ الْبُلْدَانِ  
فِقْهًا وَمَعْرِفَةً وَحُسْنَ مَعَانٍ  
مُتَكَامِلٍ.. مِنْ غَيْرِمَا نُقْصَانٍ  
وَبِهِ وَقِينَا مِنْ ذَوِي الْهُتَّانِ  
بِالْحَقِّ صَانَ عَقِيدَةَ الْإِيمَانِ  
وَسَطًا بِلَا زِيغٍ وَلَا مِيلَانِ  
فَيُقَرِّبُ بَعْدَ الْجَحْدِ بِالْإِدْعَانِ  
يَمْتَحُ مِنْ تَقْوَى وَمِنْ إِحْسَانٍ  
لِلَّهِ فِي سِرِّ وَفِي إِعْلَانٍ  
وَلَكُمْ هَدَى لِلدِّينِ مِنْ حَيْرَانٍ  
خَدَمُوا شَرِيعَتَنَا بِكُلِّ تَفَانٍ  
فِي دَقَّةِ التَّفْسِيرِ وَالتَّبَيُّانِ  
بِشُرُوحِ سُنَّةِ أَحْمَدِ الْعَدْنَانِ  
لِدُرُوسِهِ فِي لَهْفَةِ الظَّمْآنِ  
تُثْرِي الْعُقُولَ بِهَدْيِهَا الثُّورَانِي  
كَعْبًا بِعِلْمِ الشَّعْرِ وَالْأُوزَانِ  
وَهُوَ الْمُحَدِّثُ ، وَالْجَلِيلُ الشَّانِ  
فِي الْفِقْهِهِ وَالتَّأْلِيفِ وَالْإِتْقَانِ  
لَمْ يَغْرِهَا فِي اللَّهِ أَيُّ تَوَانٍ  
آثَارُهُ، إِنْ شِئْتَ لِلْبُزْهَانِ  
فِي عِلْمِهِ كَالْمَنْهَلِ الْمَلَانِ  
فَتَيَّاتٍ مَغْرِبَنَا وَمِنْ فِتْيَانِ  
سِيرًا لَطَائِفُهُ مِنَ الْفُرْسَانِ

قَبَسُوا مِنَ الثُّورِ الْمُبِينِ... وَبَيَّنُّوا  
مِنْ بَيْنِهِمْ حَبْرَ الْمَدِينَةِ مَالِكُ  
فَافِرًا بِإِمْعَانٍ "مُوطَّأَهُ" تَجِدُ  
جَمَعَ الْفَوَائِدِ كُلِّهَا فِي مَذْهَبٍ  
فِيهِ اكْتَسَبْنَا فِي الْحَيَاةِ سَعَادَةً  
وَالْأَشْعَرِيَّ مَنَارَةَ التَّوْحِيدِ مَنْ  
جَعَلَ التَّعَبُّدَ لِلْمُهَيْمِنِ مَنَاجَاً  
بِوَسَائِلِ الْإِقْنَاعِ يُفْجِمُ خَصْمَهُ  
وَمِنْ الْهُدَى قَبَسَ الْجُنَيْدُ تَصَوُّفًا  
الْخُلُقُ مَبْدَأُ نَهْجِهِ.. وَتَقَرُّبُ  
فَلَكُمْ عَلَى يَدِهِ تَخَرَّجَ عَالِمٌ  
وَنَوَابِغُ فِي الْعَصْرِ جَاؤُوا بَعْدَهُمْ  
فَأَبُو شُعَيْبٍ مِنْ "دُكَّالَةِ" نَابِغٍ  
كَرَعَ الْعُلُومَ مِنَ الْكِتَابِ مُبَيَّنًا  
وَدَعَا الْجُمُوعَ إِلَى الصَّلَاحِ فَأَقْبَلُوا  
يَتَرَوَّدُونَ مِنَ الْحَدِيثِ مَعَارِفًا  
وَكَذَلِكَ عَلَّالُ ابْنِ "فَاسٍ" مَنْ عَلَا  
فَهُوَ الْأَدِيبُ الْأَلْمَعِيُّ سَجِيَّةً  
قَدْ كَانَ فَرَدَ زَمَانِهِ بِدُرُوسِهِ  
خَدَمَ الشَّرِيعَةَ وَالْحَدِيثَ بِهَمِّهِ  
هُوَ حَجَّةٌ بِعَطَائِهِ فَاسْأَلْ بِهِ  
وَبِقُطْبِنَا الْجِبَرَارِي عَبْدُ اللَّهِ مَنْ  
قَدْ حَبَّبَ التَّارِيخَ لِلْأَجْيَالِ مِنْ  
وَهُوَ الَّذِي قَدْ خَلَدَتْ أَعْمَالُهُ

مِنْ كُلِّ فَحْلٍ فِي الشَّرِيعَةِ قَدْ سَمَا  
 سَلَفٌ نَثَمْنُ بِالْفَخَارِ جُهُودَهُمْ  
 وَلَسَوْفَ نَنْهَجُ فِي الْحَيَاةِ سَبِيلَهُمْ  
 وَإِمَارَةً لِلْمُؤْمِنِينَ شِعَارُنَا  
 عِلْمَاؤُنَا الْأَفْذَاذُ هُمْ شُهَبُ الْجَمَى  
 فَهُمْ النُّجُومُ، وَهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى  
 هَذِي الثَّوَابِتُ سِرُّ وَحْدَةِ شَعْبِنَا  
 يَا رَبِّ وَقِفْ لِسَدَادِ دُعَاتِنَا  
 وَأَدِمْ عَلَى هَـذِي الْبِلَادِ أَمَانَهَا  
 وَاحْفَظْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدًا  
 فَمَلِكُنَا زَمَنُ الْمَبَادِي كُلِّهَا  
 وَعَلَى النَّبِيِّ صَلَاتُنَا وَسَلَامُنَا  
 بِشَرِيفِ سِيرَتِهِ عَلَى الْأَقْرَانِ  
 وَلَهُمْ نُقَدِّمُ خَالِصَ الشُّكْرِانِ  
 مُتَمَسِّكِينَ بِشَرْعَةِ الرَّحْمَانِ  
 فِي ظِلِّهَا سَنَعِيشُ كَالْإِخْوَانِ  
 بِالْفَضْلِ نَذْكُرُهُمْ بِكُلِّ أَوَانٍ  
 بِمَنْ اقْتَدَيْتَ.. بَلَّغْتَ بَرًّا أَمَانٍ  
 مَنْ حَادَ عَنْهَا.. بَاءَ بِالْخُسْرَانِ  
 وَأَنْصُرْ بِعِزِّكَ أُمَّةَ الْقُرْآنِ  
 حَتَّى يَعِيشَ الشَّعْبُ فِي أطمِنَّانٍ  
 وَوَلِيَّ عَهْدِهِ رَأْسَ الشُّبَّانِ  
 وَلَوْحَدَةِ الْأَوْطَانِ خَيْرُ ضَمَانٍ  
 مَا غَرَّدَ الْقُمْرِيُّ فِي الْبُسْتَانِ



## صفوة الرجال

الشاعر: عبد الكريم الزواني- فاس

ضِ اَرِيحْ يَضُوعُ فِي الْأَجْوَاءِ  
هُوَ فِي أَشْطَرِي صَدَى الْأَصْدَاءِ  
ي وَيَسْرِي الْحُنُوءُ فِي الْأَحْشَاءِ  
بَانْدِمَاجِ الْكُلِّي فِي الْأَجْزَاءِ  
صَفْوَةٌ مِنْ رَجَالِنَا الْعُلَمَاءِ  
دُرَّةُ الْعَقْدِ بَضَّةُ الْأَضْوَاءِ  
ةِ صِرْفًا وَأَعْطَى الرَّائِدَاءِ  
مُونِقُ النَّبْتِ مُخْصِبُ الْأَرْجَاءِ  
مَ وَأَسْرُوا بِهِمْ إِلَى الْجَوَاءِ  
يَصِفُ الْبُرءَ وَالِدُوا لِلدَّاءِ  
بِهِمْ فِي الْعُرُوقِ رِي الْمَاءِ  
يَامَ مِنْهُمْ بِصَادِقِ الْأَنْبَاءِ  
وَوِطَائِي الْمَدَى الْقَصِي النَّائِي  
لِ وَلَفْظًا يَخْلُو لَدَى الْإِضْغَاءِ  
دُرَّرَ لَفْظُهُ لَدَى الْإِمْلَاءِ  
بَعْدَهُ الْجَيْلُ عَاطِرُ الْإِطْرَاءِ  
كَالْتَحَامِ الْأَرْءِ بِالْأَرْءِ  
بِتَعَالِيهِ عَنِ الْأَخْطَاءِ  
نَ دُرُوسًا بِأَبْلَغِ الْإِلْقَاءِ  
وَبَيَانًا بِالْجَهْرِ وَالْإِخْفَاءِ  
هَ كَانَتْهُمْ فِي لَحْظَةِ الْإِسْرَاءِ  
فَوْقَ مَا فِيهِ مِنْ مَدَى الْأَمْدَاءِ  
جَادَهَا الْغَيْثُ غَامِرَ الْأَنْدَاءِ

مِنْ مَعَانِي الْحَدِيثِ فَاحَ عَلَى الْأَرْ  
جِئْتُ أَسْعَى وَمَنْبَرُ الْعِلْمِ قَصْدِي  
يَمْلَأُ الشُّوْقُ مُهْجَتِي وَحَنَائِي  
كُنْتُ لَا أَكْتَفِي مِنَ الشُّوْقِ إِلَّا  
قُلْتُ مَاذَا هُنَاكَ حَلٌّ...؟ أَجَابَتْ:  
مِنْ نَسِيبِ، قُرَيْشٍ، مِنْهُ وَفِيهِ  
كَرَعُوا الْعِلْمَ مِنْ مَنَاهِلِهِ الثَّرِّ  
فَزَكَا غَرْسُهُمْ وَأَيْنَعَ فِيهِ  
حَدَّثُوا بِالْعَقِيدَةِ السَّمْحَةِ الْقَوِّ  
بِأَحَادِيثٍ إِنْ تَسَلَّ بَيَهَقِيًّا  
فِيهِمْ نُورُ الْقِيَا فِي وَيَجْرِي  
سَوْفَ يَأْتِيكَ مَنْ تُزَوِّدُهُ الْأَ  
جِئْتُ يَا صَحْبُ وَالْحَنِينُ لِحَافِي  
نَاهِلًا مِنْ حِيَاضِهِمْ حِكْمَةُ الْقَوِّ  
كَأَسْهُمْ مُتَرَعَّ وَسَاقِيهِ فِكْرُ  
لَيْسَ سِرًّا أَنْ يَقْبَسَ الْجَيْلُ عَنْهُمْ  
لَمْ يَكُنْ هَمُّهُمْ مِنَ الدَّرْسِ شَيْئًا  
يَتَمَاهَى الْمُرِيدُ بِالشَّيْخِ يَسْمُو  
مَنْ رَأَاهُمْ عَلَى الْمُنَابِرِ يُلْقَوُ  
خَالَ سَحْبَانَ فِي حِجَاهُمْ كَلَامًا  
تَتَعَالَى بِهِمْ مَلَأْنِكَ اللَّهُ  
فَوْقَ هَذَا الزَّمَانِ فَوْقَ رَدَاهُ  
بَاقَةً مِنْ نَصِيرٍ وَرَدٍ وَرَنْدٍ

مَا رَأَوْا بَلَقَعًا وَلَا حَبَّ رَمَلٍ  
لَيْسَ تَذَرُوهُمْ الرِّيحُ وَقَدْ مَأْ  
حَمَلُوا الْعِبَاءَ فِي يَفَاعَةِ عُمْرٍ  
يَا رَعَى اللَّهُ أَنْجُمًا فِي سَمَاءٍ  
وَأَظْلَلْتُ بِالْأَدْنَى وَبَنِيهَا  
لَبِسْتُ ثَوْبَهَا الْقَشِيبَ فَأَزَرْتُ  
لَمْ تَنْلِ مِنْ صُمُودِهَا غَيْرُ الدَّهْرِ  
أَنْطَقْتُ صَامِتَ الصُّخُورِ وَأَوْلْتُ  
إِنَّ مَنْ يَزْرَعُ السَّنَاءَ بِأَرْضٍ  
إِنَّمَا الْأَيْكُ مُسْبَلُ الْأَنْوَاءِ  
ذَرَّتِ الرِّيحُ صَاحِبَ الْأَهْوَاءِ  
وَاسْتَهَانُوا فِي الشَّيْبِ بِالْأَعْبَاءِ  
بَسَطَتْ جُودَهَا عَلَى الْأَحْيَاءِ  
وَوَقَّتْنَا غَوَائِلَ الْأَزْزَاءِ  
بِجَدِيدِ الثِّيَابِ وَالْأَزْيَاءِ  
رَوْلًا أَدْعَنْتُ لَدَى الْإِعْيَاءِ  
صَفَاةَ النَّاطِقِينَ لِلْأَشْيَاءِ  
سَوْفَ يَجْنِي غَدًا بِهِيَ السَّنَاءِ





الفهرس

|     |                                                                 |
|-----|-----------------------------------------------------------------|
| 7   | افتتاحية.....                                                   |
|     | كيف يتسلل التعصب إلى عقائد الناس                                |
| 11  | ذ. عبد الحميد عشاق.....                                         |
|     | علاقة المذهب المالكي بالمعتقد الأشعري                           |
| 23  | ذ. عبد القادر بيطار.....                                        |
|     | نماذج من أعلام المغرب في تقرير الوسطية ونبذ التطرف              |
| 41  | د. عبد المجيد محيب.....                                         |
|     | المدرسة الأشعرية: عقيدة الإسلام عند القساوسة: ريموند لول نمونجا |
| 53  | نيقولا روزير نبوت.....                                          |
|     | من تجليات البراعة المغربية في نظم العقيدة الأشعرية              |
| 71  | ذ. عبد العلي بلامين.....                                        |
|     | الاتجاه الوسطي في المذهب الأشعري                                |
| 81  | ذ. عبد العالي ملوك.....                                         |
|     | علماء المغرب والدفاع عن ثوابت الأمة                             |
| 95  | ذ. أمينة الراضي.....                                            |
| 115 | مقالات داعمة.....                                               |
|     | دبلوماسية إمارة المؤمنين في إفريقيا                             |
| 117 | ذ. هاني عبد الكريم.....                                         |
|     | بحثاً عن الإسلام في شعر المسيحيين العرب                         |
| 135 | ذ. حنان السقاط.....                                             |
| 151 | ديوان العدد.....                                                |
|     | هذي الثوابت سر وحدة شعبنا                                       |
| 153 | الشاعر محمد البلغمي.....                                        |
|     | صفوة الرجال                                                     |
| 156 | الشاعر عبد الكريم الوزاني.....                                  |



### شروط النشر بالمجلة

تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

- أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلاً من بحث جامعي أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
- أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
- ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم A4.
- في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
- في حالة وجود وثائق وصور يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
- تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
- ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
- البريد الإلكتروني هو: alami hamid49@gmail.com
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

### محاور الأعداد المقبلة :

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاور الآتية :

- 1- قول العلماء في الثوابت المغربية.
- 2- الذكرى العشرون لعيد العرش المجيد.
- 3- فقه العمران في المذهب المالكي.

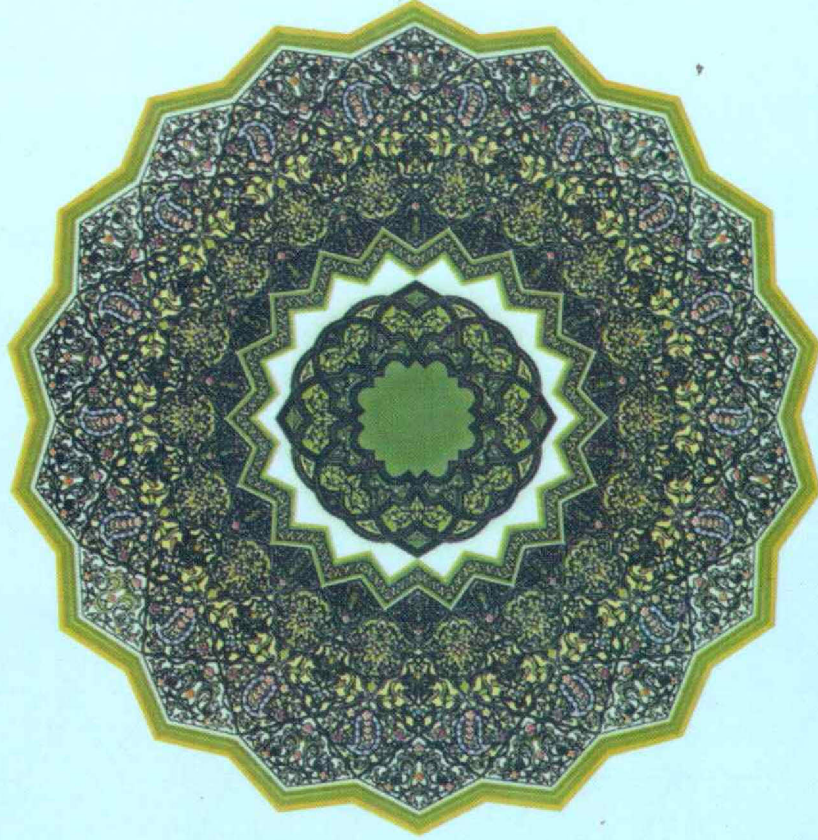












## دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والفكر  
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية  
بالمملكة المغربية



مطبعة وراقصة الكرامنة